

١٤ قرناً
من الصراع بين الشرق والغرب
"رؤية جديدة"
تأليف لواء أركان حرب
عبد الحميد شرف
سما
المجموعة الدولية
للنشر والتوزيع

14 قرناً من الصراع بين الشرق والغرب

رؤية جديدة



تأليف: لواء أركان حرب عبد الحميد شرف



العنـــوان: 14 قرنًا من الصراع بين الشرق والغرب «رؤية جديدة»
المـــؤلــف: لواء أركان حرب/عبد الحميد شرف
تدقيق لغوي: عبدالحليم أبو سنة
إشراف عام: نجـــلاء قـاســـم

الناشــر



15 ش يوسف الجندي ميدان باب اللوق
أمام مول البستان وسط البلد
تليفون: 24517300 - 01271919100
emil: samanasher@yahoo.com

التوزيـع

المجموعة الدولية
للنشر والتوزيع

80 ش طومان باي - الزيتون - القاهرة
تليفون : 24518068 - 01099998240
emil: aldawleah_group1@yahoo.com

تصميم الغلاف: هنا إبراهيم
إخراج داخلي: معتز حسنين

الترقيم الدولي: 978-977-6451-56-8
رقم الإيداع: 2839 / 2014
الطبعة الأولى: يناير 2015

مقدمة

إن الواقع المر الذي تعيشه الأمة العربية والإسلامية غني عن التدليل.. فلا شك أننا نعاني أزمات سياسية واقتصادية واجتماعية، أضف إلى ذلك الشعور بالإحباط العام والروح المعنوية المنكسرة، والشعور بالعجز والتدني إزاء المجتمعات الغربية؛ هذا الشعور الذي يتزايد باتساع الهوة الحضارية بيننا وبينهم اتساعًا يتسارع بمعدلات كبيرة.. ولا شك أن ما نعانيه الآن إن هو إلا نتائج طبيعية لمقدمات طبيعية، وظروف تكاتفت على قهرنا منذ أزمان طويلة.

فمن نحو ثلاثة قرون.. ونجم الشرق في أفول مضطرد حتى انتهى إلى هذا الواقع المر في العقد الأخير من القرن العشرين.. الآخرون أقوياء، أذكياء، تمكنوا خلال هذه القرون من تطوير أدائهم وآلياتهم حتى استطاعوا الخروج تدريجيًّا من موقف الدفاع، إلى حدٍّ تمكنهم من الهيمنة على العالم تحت ظروف معينة من خلال أسباب موضوعية لابدّ لنا من محاولة فهمها فهمًا موضوعيًّا.

فصراع الشرق والغرب امتد نحو ثلاثة عشر قرنا من الزمان والخيار الوحيد أمامنا الآن هو الخروج من أزمتنا المعاصرة مع الغرب؛ لا بهدف تبادل المراكز مرة أخرى، وإنما سعيًا للمشاركة معه في بناء العالم حيث لا يمكن للضعفاء أن يسهموا في ذلك.. ماداموا ضعفاء: فكرًا وعملًا ومنهجًا، وإذا كان بعض الأقوياء لا يريدون لنا القوة فلنتسلل إليها مثل اليابان وكوريا بالعمل الدعوب مع وضوح الرؤية والهدف؛ وعندئذٍ سنكون جديرين بالمشاركة في بناء العالم لخير البشرية.

الهدف من هذا الكتاب

أولًا: توضيح الكيفية والظروف التي مَكَّنت الغرب في القرون الثلاثة الأخيرة من انتزاع المبادأة تمامًا في صراعه مع الشرق حتى تمت له الهيمنة الكاملة عليه وعلى مقدراته.

ثانيًا: الفهم الموضوعي لحركة التاريخ في أثناء فترة الصراع التي امتدت نحو ثلاثة عشر قرنًا من الزمان، وظروف صناعة جزيئاته.

ثالثًا: معاونة القارئ في الاهتداء إلى طريق الخروج من إحباطنا العام وأزمتنا المعاصرة مع الغرب من خلال رؤية واضحة تكشف بعض الضوء على هذا الطريق، رؤية تعتمد على الأسئلة الحرة التي تدور بمخيلته عن أسباب ما نحن فيه من تدنٍ حضاري.

هذه هي الأهداف التي آمل النجاح في تحقيقها أو تحقيق جزء منها من خلال هذا الكتاب الذي صدر بعد تردد.. وضعت فيه كلمتي - وقد قاربت الستين من عمري - لجيلنا الحالي أدعوه هنا للبحث ورفض الاستسلام لواقعه، هذا الاستسلام الذي يوشك أن يتأصل عامًا بعد عام، عدم الرضا بالركون والركود حتى لا نكون ضيوفًا على العالم، وعالة عليه، وجزءًا من تاريخه.. لا من صنّاعه ومحركيه وهو أمر مرفوض وشاذ. وقد سمعنا تساؤلات عديدة تدور بين المثقفين:

لماذا حدث هذا... وما الحل؟

وحتى لا يكون حديثنا صراخًا بلا تحاور، وتعبيرًا بلا تفكير، وانفعالات بلا فعل، حاولت بهدوء وموضوعية طرح التساؤلات الآتية، ولا شك في أنها بعض مما يجول بخاطر أي مثقف معاصر:

1 - لماذا عجزت الأمة العربية والإسلامية عن مواكبة النهضة الأوروبية.. وهل هذا العجز كان تامًّا؟ أم أنها لم تشارك بالقدر الكافي.. أو أن هناك إسهاماتِ معتما عليها من المجتمع الدولى؟ وهل جمود الحياة الفكرية منذ القرن السادس عشر له بذور احتضنها تراث الأمة في زمن سابق؟

2 - بالنسبة لنهضة أوروبا هل كان لحَسْم الصراع الديني مع الكنيسة، والقضاء على فرص استغلال الدين - دورٌ رئيس في حدوث النهضة الأوروبية؛ خاصة أننا في المقابل الشرقي نجد استغلال الدين لصالح السلطة هو الصفة الغالبة لدينا خلال العصور المتأخرة؟

3 - هل كان لحدة الصراع الكنسي وديناميكية الحياة السياسية في أعقابه أثر في إثراء التجربة الأوروبية بخبرات مفيدة؟

4 - هل تَقَبُّل العقل الأوروبي للسلطة المتعددة الأقطاب كان أحد نواتج الجذور الديمقراطية الرومانية وتعدد الآلهة سواء الإغريقية أو الرومانية؟ وفي المقابل الشرقي نجد أن فكرة الفرد القدوة، والحاكم العادل، وظل الله في أرضه، فهل تلك الفكرة هي التي أبعدت العقل الإسلامي عن فكرة السلطة المتعددة الأقطاب؟

5 - هل كان لزعامة الأتراك للعالم الإسلامي وحداثة عهدهم نسبيًا بالإسلام أثر في صبغ دولتهم بصبغة دينية عسكرية، أثرت في عدم مواكبتهم عصر إحياء العلوم في القرن السادس عشر؟

6 - هل تعصب الأتراك العثمانيين للغة التركية وإهمال العربية - وهي لغة التراث - وقصرها على الأمور الدينية سببًا من أسباب الجمود الفكري وعدم الانتفاع بتراث الأمة على وجه أفضل؟ فليس من المعقول أن يعيش ابن خلدون جزءًا من حياته في القرن الخامس عشر - وهو أعظم عالم تاريخ واجتماع في العالم حتى القرن التاسع عشر (هذا الوصف من موسوعة كولير الأمريكية وتحديدًا في صفحة 313) - ولا يظهر له تلميذ أو نظير خلال أربعة قرون تالية؟!!

7 - هل أثرت الفنون عمومًا في إحداث النهضة الأوروبية، تلك الفنون التي

ألـهبت خيـال المجتمعـات الأوروبيـة، وسـاعدت فـي وصـل تراثها وإحيائه من خلال مرئيات مجسدة أو مصورة. كذلك الموسيقى التي تطورت لتصبح فنًّا مستقلًا ولغة مشتركة بين الشعوب الأوروبية؟ وفي المقابل لم تخدم الفنون الإسلامية على الرغم من تقدمها وتفوقها الشعوب إلا في أضيق الحدود.

8 - هل لعبت المصادفات التاريخية دورًا في مسار التاريخ العلمي؟

كل هذه التساؤلات وغيرها.. تكون خلفية أي قارئ مثقف، يعيش محنة أمته ويريد الخـلاص. إنها أسـئلة بلا إجابات محددة؛ فكل سؤال له أكثر من إجابة. وقد تظهر في ذهن القارئ إجابات في أثناء رحلته مع هذا الكتاب، وقد يسطع له ضوء باهر على جزئية صغيرة تكون له لبنة مهمة على طريق الخروج من إحباطنا العام إزاء أزمتنا المعاصرة مع الغرب. وبكل الموضوعية والحيدة نبدأ رحلتنا مع كيف وتحت أي ظروف تمكن هذا من ذاك، نستعرض المقدمات ونتأمل، ثم نفعل.

والله الموفق

الفصل الأول: جذور الصراع بين الشرق والغرب

- القسم الأول: القضية الأساسية.
- القسم الثاني: بدايات التاريخ الأوروبي الحديث.
- القسم الثالث: ظهور العالم الإسلامي كقوة صاعدة في القرن الثامن الميلادي.
- القسم الرابع: أوروبا والعالم الإسلامي حتى القرن الحادي عشر.
- القسم الخامس: الحروب الصليبية والظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية للأطراف المتصارعة.

القسم الأول: القضية الأساسية

في المجتمعات البشرية صفة متأصلة قديمة تتمثل في جنوح المجتمعات الأكثر قوة للسيطرة على الضعيفة منها، وعند توافر قوة أكبر لهذه المجتمعات يتجه سعيها إلى تأسيس ممالك وإمبراطوريات، وهناك نظريات تقول بنظام تعاقب الإمبراطوريات، وهي نظريات لا نستطيع التسليم بها، ولا يعنينا الدخول في جدل حولها وإنما قضيتنا الأساسية هي توضيح كيفية وتحت أي ظروف تمكّن الغرب بعد تطوير أدائه وآلياته من هزيمتنا هزائم مضطردة ومستمرة في القرون الثلاثة الأخيرة، بل وما زال ذلك قائمًا، فبعد عشرة قرون من التنافس على مراكز القوة الدولية، كان للشرق فيها قصب السبق على الغرب معظم تلك القرون العشرة في التجارة، والصناعة، والعلوم - والفنون تبدل الحال.

ولكي نصطلح على مفهوم نحن: هل نحن عرب الجزيرة، أو المصريون، أو بربر شمال إفريقيا، أو عرب الشام.. أو الإيرانيون.. أو الأتراك... إلخ، أقترح أن ندعي أننا كل هؤلاء منذ اعتناق هذه الشعوب الدين الإسلامي، هذا الدين الذي كان لب الحضارة الإسلامية التي صارعت الغرب البيزنطي واللاتيني قرابة ثلاثة عشر قرنًا من الزمان. وإذا كان القياس بالأثر الباقي كوحدة قياس فإن الإسلام أثبت معتقدات اعتنقها البشر حتى اليوم... على الرغم من هزائم المسلمين.

وهزيمة الحضارة الإسلامية نفسها التي هي مزيج من حضارات شرقية هندية فارسية مصرية مطعّمة باليونانية أُعيد صياغتها داخل بوتقة الإسلام وعاشت شعوب منطقتنا الواسعة على الرغم من وجود أقليات دينية أخرى، هذه الحضارة التي استمرت قوية في مجملها نحو عشرة قرون قبل أن يعتريها الفتور.

ولا يزال الإسلام كتوجه عقائدي جاهزًا لإعادة صياغة أية حضارة إنسانية معاصرة أو مستقبلية إذا ما توافرت الظروف المناسبة مع التأكيد على عدم إمكان عودة التاريخ للوراء وتكرار صوره الحضارية السابقة، وإنما الممكن هو أن يعيش المواطن المسلم حضارة معاصرة تهدف إلى حياة أفضل في إطار التوجه الإسلامي.

وربما نجد داخل هذا الكتاب ما قد يوحي بأن صراع الشرق والغرب كان صراعًا دينيًا خالصًا، وهذا ليس صحيحًا تمامًا.. على الرغم من أن التعصب الديني لعب دورًا كبيرًا في معظم فترات الصراع الحضاري بين مجتمعات شرقية وأخرى غربية متنافسة من أجل السيطرة والاستغلال والرفاهية على حساب الغير. كما أن قضيتنا الأساسية أيضًا تتحدد في منهج حركة التاريخ وتحليل جزيئاته، بهدف الخروج من الإحباط العام الذي تعيشه أمتنا العربية والإسلامية إزاء الهيمنة الغربية، وهذا ليس مستحيلًا؛ فقد عاش الغرب نفسه مثل هذه الحال أو قريبًا منها، من إحباط عام وروح معنوية منكسرة من قبل في فترة ما.

وتأمل معي أيها القارئ العزيز ما جاء في كتاب المؤرخ المعاصر «كوينز بيرجر H.G.HOENIGS BERGER» عن التاريخ المبكر لأوروبا حيث يقول واصفًا المسلمين من خلال تلك الرسالة: «كتب السفير الهولندي في القسطنطينية إلى بلده في أواخر القرن السادس عشر يقول: في جانبهم موارد إمبراطورية ضخمة، وتمرس، وخبرة في القتال، واعتياد على تحقيق الانتصارات بفضل قوة الاحتمال والترابط والنظام والاقتصاد في النفقات التامة.

أما في جانبنا نحن، فنجد الفقر العام والترف الخاص والروح المنكسرة والتراخي والقصور في التدريب فهل يمكن أن نشك فيما تكون عليه النتائج؟».

انتهى النص.

On their side are the resources of a mighty empire wrote the imperial ambassador at Constantinople in 1560, thw Flemish humanist, Ghislain de Busbecq... experience and practice in fighting... habituation to civtory, endurance of toil unity, order, discipline, frugality and watchfulness. On our side is public poverty, private luxury... broken spirit, lack of endurance and training... Can we doubt what the result will bef16.

هذا الإحباط العام الأوروبي إزاء الصحوة العثمانية الإسلامية يتشابه مع حالنا اليوم أمام الغرب المنفرد بالهيمنة على العالم. فعلينا أن نعلم ونتعلم وندرس كيف وتحت أي ظروف تمكّن الغرب من الخروج من هذا الإحباط وهذه الروح المعنوية المنكسرة تدريجيًّا منذ القرن السادس عشر حتى تمكن من الهيمنة على العالم كله في نهايات القرن العشرين. هذا هو الموضوع العام الذي يجب أن ينشغل به المفكرون والباحثون وأقسام التاريخ بالجامعات بهدف المعرفة، ثم التبسيط لشعوبنا، لعلنا نضع أنفسنا على الطريق الصحيح، ولا يكن هدفنا تحقيق درجات علمية أو عمل بحوث توضع داخل الأدراج. ولا يمكن لأحد أن يَدَّعي سهولة الموضوع، وأن مجرد معرفة مسار التاريخ وظروف صناعة جزيئاته سيضعنا وحده على المسار الصحيح، ولكننا نزعم أن ذلك سوف يعطينا مؤشرات يمكن القياس عليها، وعلامات نهتدي بها، فالتاريخ ذو اتجاه واحد ولا يتكرر.

ولعل القارئ يتساءل: لماذا هذه القرون الثلاثة بالذات؟ أزعم أن عصر إحياء العلوم أو كما يسمى عصر النهضة بدأ في القرن السادس عشر مع الروح الوثابة

التي ظهرت في المدن الإيطالية أولًا ثم أوروبا كإرادة تغيير عامة بدت واضحة كل الوضوح في منتصف القرن السابع عشر، كما أن ذلك وافق تاريخ بَدْء الانحسار العام للإمبراطورية العثمانية كإرادة دولية، وقد بلغت أقصى اتساع لها في النصف الثاني من القرن السابع عشر عندما كان على فيينا (عاصمة النمسا) أن تذود عن حياتها أمام الحصار العثماني عام 1683م، ومنذ هذا التاريخ وهي في موقف الدفاع.

ومن المفيد لتوضيح فكرة قضيتنا الأساسية وما لها من أهمية قصوى، عرض ما كتبه المؤرخ نفسه تحت عنوان: (أوروبا وجيرانها وبقية العالم) في نفس الكتاب، فيقول حرفيًا:

«إن نقطة البداية لمسيرة التاريخ الأوروبي هو سقوط روما بيد القبائل الجرمانية المتبربرة ورغم ذلك الحادث المفجع فإنه خلال الألف والستمائة عام التي تعاقبت بعد ذلك انبسط الركام وانفرجت الغيوم مكونة وجودًا حضاريًا جديدًا ظلل القارة الأوروبية بأسرها، ثم وطد أقدامه في قارتي أمريكا واستراليا.. كما لم يلبث بشكل أو بآخر أن بسط سلطانه على بقية العالم، وخلال الألف عام الأولى ظلت القارة في موقف الدفاع ضد العرب المسلمين على امتداد حدودها على البحر المتوسط جنوبًا، وضد الملّاحين النرويجيين السكندنافيين شمالًا وغربًا، وفي مواجهة الغزوات المتعاقبة التي كانت تشنها القبائل الآسيوية المختلفة من الشرق مثل:

قبائل الهون في القرن الخامس إلى قبائل الآفار والهنفار والمغول ثم مؤخرًا الأتراك. ورغم الخسائر التي لحقت بالأوروبيين فقد ظل دفاعهم عن قلب أوروبا اللاتينية جامدًا لا يلين. أما ما فعله الأوروبيون بهؤلاء الغزاة فقد صدوا الهون والآفار وتشربوهم كما يتشرب النشاف المداد، وأدخلوا الفايكنج والهنفار في الدين المسيحي، وهضموهم مثلما يهضم الجسم الطعام. لكن الأوروبيين في المحاولتين الكبيرتين اللتين قاموا بهما لاستعادة الأقاليم التي استولى عليها المسلمون لم ينجحوا إلا في واحدة منهما؛ إذ استرد الأوروبيون شبه

جزيرة أيبريا وكذلك جزيرة البحر المتوسط الكبيرة (صقلية) بينما خابت المحاولة الكبيرة الأخرى، والتي هدف الصليبيون منها إلى استرداد بيت المقدس وإقامة دولة مسيحية على شواطئ البحر المتوسط الشرقية.

وقد كانت هذه الخيبة أشد نكبة أصابت أوروبا؛ إذ كان اللاتينيون المسيحيون قد قاموا بتوجيه ضربة قاتلة إلى الجزء الشرقي الباقي من الإمبراطورية الرومانية البيزنطية التي كانت تمثل العائق الأكبر الفعَّال ضد الإسلام في الجناح الشرقي لأوروبا. الأمر الذي سهل على الأتراك العثمانيين فيما بعد اختراق آسيا الصغرى وفتح القسطنطينية، والوصول سريعًا إلى كل شبه جزيرة البلقان التي لم تفلح أوروبا في استنقاذ أغلب البلقان من الأتراك إلا في القرن الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين فيما عدا القسطنطينية وآسيا الصغرى. لكن النظرة المسيحية لاستئناف الغزو لم تعد منذ ذلك الحين (القرن الثامن عشر وما بعده) القوة الرئيسة المحركة؛ فإن تركيا ذاتها لم تلبث أن شاكلت أوروبا وتشبهت بها بصورة تدريجية. إلى جانب ذلك فقد حدث خلال القرن الخامس عشر - وبينما كان الأوروبيون لا يزالون في موقف الدفاع ضد الإسلام في البحر المتوسط والبلقان - أن استطاعوا النفاد بنجاح خارج قارتهم الشبيهة بالقلعة المحاصرة. إذ أبحروا إلى أمريكا وحول إفريقيا إلى القارة الآسيوية شرقها وغربها ثم تمكنوا في القرون الأربعة التالية من استيطان القارة الأمريكية واستراليا، وفتح إمبراطورية الهند والهند الصينية وإندونيسيا، كما أعادوا فتح ما كان بقي من جبال الأورال في روسيا حتى المحيط الباسفيكي، وقاموا بتقسيم إفريقيا جميعها بين حفنة من دولهم الأوروبية، ثم بدون غزو فعلي أو استيطان تيسر لهم فرض تجارتهم على إمبراطورية الصين بل وحَمْل اليابان على فتح أبوابها للتجارة والتكنولوجيا الغربية». هذا ما ذكره المؤلف حرفيًّا في كتابه:

EARLY MODERN EUROPE 1500 - 1789

إن هذه الفقرة من هذا الكتاب على الرغم من روح الاستعلاء الواضحة بين

سطورها، دفعتني أكثر وشوقتني لتوضيح كيف وتحت أي ظروف حدث هذا عبر الفترات الزمنية، ومعرفة أهم العوامل المؤثرة في مسار التاريخ من بداية التاريخ الأوروبي المفترض حتى أوائل القرن الثامن كفترة أولى، وهي فترة دخول المسيحية لأوروبا والصراعات المذهبية الأولية، وتكوين الهوية الدينية التي اكتملت في بعض المجتمعات الأوروبية في الغرب اللاتيني ولم تكتمل في البعض الآخر. ثم الفترة الثانية حتى القرن الحادي عشر الميلادى، وهي فترة ازدهار الحضارة الإسلامية في شبه جزيرة أيبريا وجزر البحر المتوسط، وأثر ذلك على أحوال أوروبا الداخلية. ثم فترة التكتل الأوروبي لإحياء الإمبراطورية الرومانية المقدسة تحت أعلام كاثوليكية من القرن الثاني عشر إلى الخامس عشر، وما تخللها من حروب صليبية وردود أفعال إسلامية ومسيحية مهمة، مثل: سقوط القسطنطينية في أيدي الأتراك العثمانيين وإنهاء الوجود الإسلامي في شبه جزيرة أيبريا. ثم فترة عصر النهضة من القرن الخامس عشر حتى نهاية القرن السابع عشر، والصراع على طرق التجارة العالمية والانتعاش الاقتصادي الأوروبي، والكشوف الجغرافية المهمة، وتكوين إمبراطوريات الغرب فيما وراء البحار. ثم الفترة الأخيرة والهامة من القرن الثامن عشر حتى القرن العشرين وتصاعد السيطرة الأوروبية وتتالى الهزائم حتى هيمنة الغرب على العالم.

فمعرفة الكيفية والظروف هي القضية الأساسية التي يجب فهمها وتبسيطها لشباب أمتنا.

القسم الثاني: بدايات التاريخ الأوروبي الحديث

ما قبل سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية:

يتفق معظم المؤرخين على اعتبار انهيار الإمبراطورية الرومانية الغربية وسقوط عاصمتها روما بأيدي القبائل الجرمانية في القرن الخامس الميلادي (476م) هو بداية التاريخ الأوروبي، ويعني ذلك أن التاريخ الأوروبي يمتد ستة

عشر قرنًا من الزمان يمكن تقسيمها إلى حقب زمنية حسب أهمية العوامل المؤثرة على مسار التاريخ العالمي كما أسلفنا.

ولكن قبل هذا السقوط كانت هناك الإمبراطورية الرومانية العظيمة الشأن البالغة الاتساع؛ حيث قامت مدنية زاهرة بعلومها وآدابها وفنونها وقانونها الروماني الذي مازال يُدرس حتى اليوم. لكنهم كانوا يقسمون العالم إلى: رومانيين وغير رومانيين. وما ينطبق على الرومان ليس من حق الآخرين؛ فهم سادة العالم، بذخ، وترف، وشرف، وتقاليد، ونظم إدارة، ونظم حكم، كونت الأساس النظري لحكم الدول الأوروبية حتى وقت قريب. وكانوا وثنيين وغير متدينين.

وإذا كان الإغريق السابقون عليهم في التاريخ الإنساني أرباب العلوم والفنون والمبادئ والحكمة والمنطق، والمدينة الفاضلة وأصحاب الإلياذة وآلهة الأوليمب؛ فقد كان الرومان أرباب التشريع والإدارة والنظام.

وقد انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى شرقية وغربية، ظلت الإمبراطورية الشرقية - والتي عمرت بعد شقيقتها ألف عام أخرى - ذات صبغة هيلينية مقدونية السمات، وسوف نتعرض لذلك فيما بعد.

ظهور المسيحية في الإمبراطورية الرومانية:

جاءت المسيحية السمحاء من الشرق إلى روما على أيدي الرسولين: بطرس، وبولس المؤمنين بعقيدة سماوية، فاضطهدت أبشع ما يكون الاضطهاد في الإمبراطورية الرومانية وولاياتها وخاصة مصر. ولابدّ أن نشير إلى أن أول إمبراطور أوقف اضطهاد المسيحيين هو قسطنطين (306 - 337م) على الرغم من أنه لم يعتنق المسيحية إلا وهو على فراش الموت.

وكانت المسيحية قد وصلت إلى أوروبا في عدة صور مذهبية مما سبَّب انقسامات دينية في شعوب أوروبا؛ أخطرها المذهب الآريوسي السكندري، فهو

أول من أثار الجدل حول طبيعة المسيح، وقد انتشر هذا المذهب في الشعوب الأقل تحضرًا في شرق أوروبا وجنوب فرنسا وإسبانيا، ولكن روما الكاثوليكية - في رعاية جثماني القديسيين: بطرس وبولس- تمكنت في عام 323م في مجمع نيقية من اعتبار هذا المذهب هرطقة يجب محاربتها.

وكانت الإمبراطورية في عصورها المتأخرة تعاني بسبب غارات الهون وقبائل الآفار والهنفار حتى سقطت على يد القبائل الجرمانية شبه البربرية.

وخلال القرون الثلاثة التالية لسقوط روما كانت أوروبا الغربية في حالة تشبه الفوضى تحت سيطرة القبائل الجرمانية الأقل تحضرًا من الرومان الذين ذهبت دولتهم، ولكن هذا لم يمنع قيام أسر حاكمة جرمانية الأصل رومانية الولاء ومتعصبة للمذهب الكاثوليكي المدعوم من البابوية في روما. وقد تمثل ذلك في قيام مملكة الفرنجة الميروفنجيين (480 - 716م)في وسط أوروبا. كما أسس القوط الغربيون الذين كانوا على المذهب الأريوسي ممالك لهم في شمال إيطاليا وجنوب فرنسا.

وفي عام 507م هزمهم الفرنجة الميروفنجيين وتم طردهم إلى إسبانيا، حيث تحولوا فيما بعد إلى الكاثوليكية، وأجبروا سكان جزيرة أيبريا (إسبانيا والبرتغال) على اعتناق الكاثوليكية قبل الفتح الإسلامي بمائة وأربعة وعشرين عامًا فقط قبل تأصل العقيدة الكاثوليكية في وجدان الشعب الأيبيري، وربما ساعد ذلك الفتح العربي.

الإمبراطورية البيزنطية:

ظلت الإمبراطورية الرومانية البيزنطية قوة دولية يتعاقب على حكمها أباطرة يسيطرون على كنيستها الشرقية بخلاف الحال في روما، حيث نافست الكنيسة السلطة الزمنية بل وسيطرت عليها رَدْحًا من الزمن. وقد ظلت الإمبراطورية البيزنطية قوية في مجمل فتراتها ومتماسكة رغم فقدها معظم أملاكها في الشرق حتى القرن الثالث عشر الميلادي؛ حيث بدأت في الانحلال

والضعف ثم سقطت نهائيًا على يد الأتراك العثمانيين عام 1453م.

أما في الماضي البعيد، وقبل ظهور الإسلام بقليل، فكان الصراع الدولي على أشده بين الإمبراطورية البيزنطية المسيحية والإمبراطورية الفارسية. وقد حدث أن غزا الفرس ولايات الإمبراطورية في الشام. ولكن الإمبراطور هرقل استعاد ما سبق فقده عام 630م، وفي أواخر عهد هذا الإمبراطور العظيم حاول عقد مصالحة بين المذاهب المسيحية لكنه فشل، ثم ظهر المسلمون كقوة صاعدة تهدد أطراف الإمبراطورية في مصر والشام وتدعوه شخصيًا للإسلام. وفي عام 641م توفي هرقل، ثم تعاقب على عرش الإمبراطورية بعده أباطرة ليسوا على مستوى الأحداث الجارية في ذلك الوقت الذي تداعت أحداثه سريعًا بقضاء المسلمين على الإمبراطورية الفارسية تمامًا، واقتطاع أجزاء من أملاك الإمبراطورية البيزنطية في مصر والشام وشمال إفريقيا في سنوات قليلة. وقد شهد البلاط البيزنطي في أواخر القرن السابع الميلادي فترة من الفتن والاغتيالات للأباطرة، وسادت حالة من الفوضى حتى تولى الإمبراطور الشاب ليو الأيسوري الذي دافع عن القسطنطينية نفسها ضد حصار المسلمين عام 717م. وكانت القسطنطينية منارة العالم: حضارة، وثقافة. وتعد الإمبراطورية البيزنطية متصلة التراث نسبيًا بالمقارنة بأوروبا اللاتينية. واستمر هذا الوجه المضيء لها نحو خمسة قرون إن لم يكن أكثر بعد سقوط روما. كما كان تراثها الثقافي من أهم المصادر التي نهلت منها الأمة الإسلامية الصاعدة في حركة ترجمة كبيرة في القرن التاسع الميلادي.

بقية الشعوب الأوروبية حتى القرن الثامن الميلادي:

كانت بقية أوروبا: روس، ومجريين، وبلقانيين، وصقالبة، عديمي الهوية الدينية أو السياسية، ويمكننا القول من دون مبالغة إنهم كانوا نصف وثنيين ونصف مسيحيين، وأن الجزء المسيحي المترسب في وجدان هذه الشعوب كان آريوسيًا غير واضح المعالم. فقد كانت قبائل الآفار غير المتحضرة قبائل على الفطرة تعيش على السلب والنهب قبل أن يقضي عليهم الإمبراطور شارلمان

في أواخر القرن الثامن الميلادي. ولم تقم كيانات سياسية مهمة على غرار تلك التي قامت في أوروبا اللاتينية في ظل هوية دينية كاثوليكية قوية. ولهذا فمن الأخطاء الشائعة لدى المؤرخين الأوروبيين إعطاء شارل مارتل - والذي انتصر على المسلمين في معركة بلاط الشهداء جنوب فرنسا 732م- أهمية كبيرة باعتباره البطل الذي أوقف انتشار الإسلام في الغرب؛ فالصحيح أن الإمبراطور ليو الأيسوري أكثر أهمية في هذا الموضوع، ليس بسبب الدفاع عن القسطنطينية عام 717م ضد الأمويين.. ولكن لأنه منع ما كان سوف يحدث حتمًا بعد سقوط القسطنطينية في هذا الوقت المبكر على أيدي المسلمين المتحمسين لنشر عقيدتهم بين شعوب ليس لها هوية سياسية أو دينية، الأمر الذي كان سيجعل انتشار الإسلام سهلًا للغاية. أما في الغرب وبافتراض انتصار المسلمين في بلاط الشهداء، فقد كان أمام انتشار الإسلام في فرنسا صعوبات جمة؛ حيث كانت شعوب دولة الفرنجة في فرنسا ذات هوية سياسية محددة، علاوة على هوية دينية كاثوليكية كاملة النمو.

القسم الثالث: ظهور العالم الإسلامي كقوة صاعدة في القرن الثامن الميلادي

الموجة الأولى للتوسع الإسلامي:

انطلق المسلمون في أسرع زحف عرفه التاريخ فاتحين أجزاء كبيرة من العالم القديم، فخلال ما يقرب من قرن ملكوا الإمبراطورية الفارسية كلها، وتوغلوا في شرقها حتى نهر السند، وغرب الصين، ومعظم أملاك الإمبراطورية الرومانية البيزنطية، وكل دولة القوط الغربية في شبه جزيرة أيبريا.

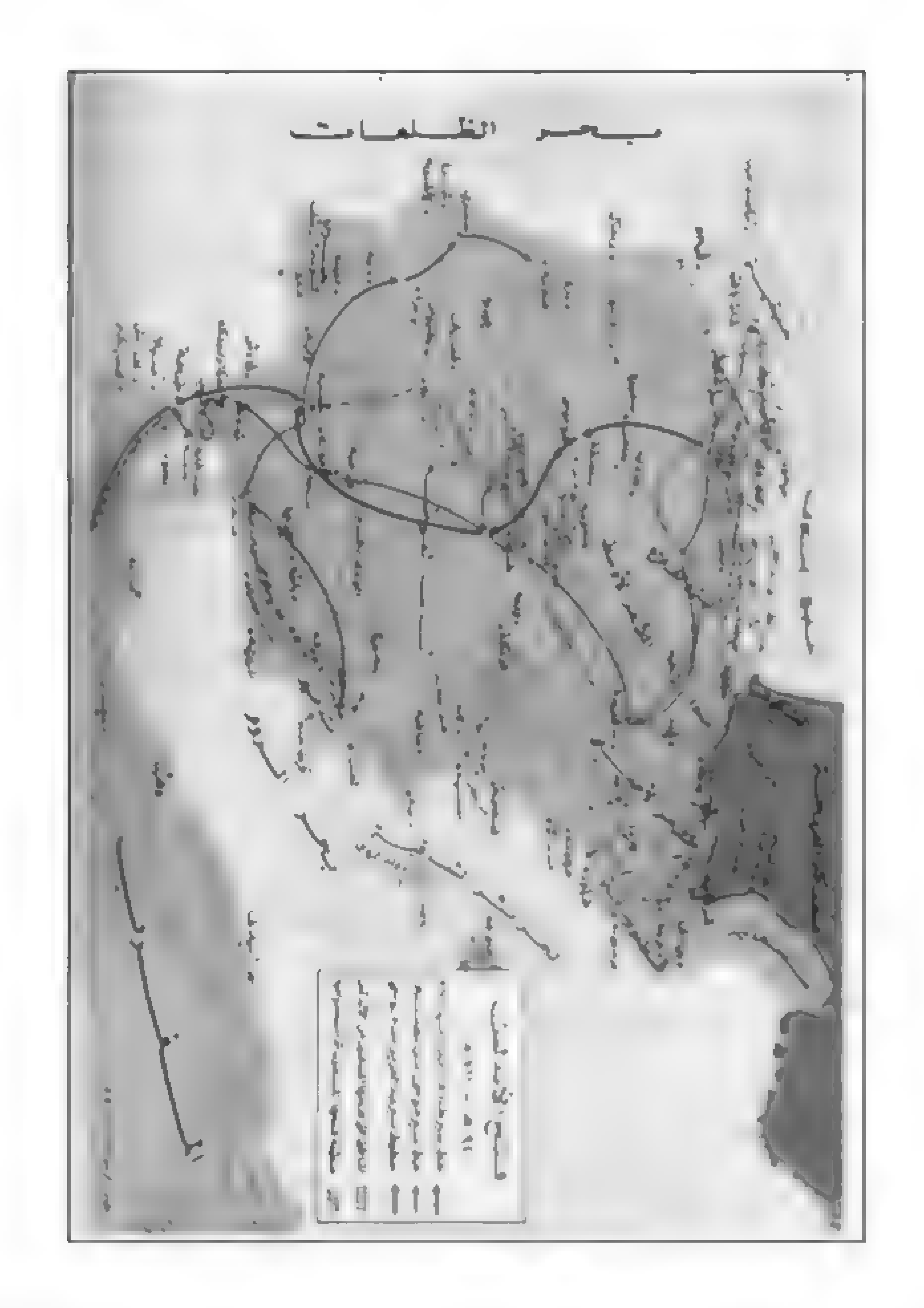
ومن المهم التأكيد على أن التوسع الإسلامي لم يكن بالضرورة بالفتح العسكري كموجات التوسع في إفريقيا وجنوب آسيا. وقد حدث التوسع الإسلامي في أربع موجات، قاد الجنس العربي الموجة الأولى، أما باقي الموجات التي شملت

الهند وإفريقيا المدارية والاستوائية وآسيا الصغرى وجنوب شرقى آسيا، فكانت على يد أجناس أخرى. وما يعنينا في هذا الفصل هو حركة التوسع الأولى التي خرجت من المدينة في السنة الحادية عشرة للهجرة، سبتمبر 622م، وانتهت في 23 من ذي الحجة 232 ه، يوليو 847م. وقد انتهت بانتهاء العصر العباسي الأول بوفاة الخليفة الواثق بالله ابن المعتصم. وتغطي هذه الفترة: عصر الخلافة الراشدة، والدولة الأموية، والدولة العباسية الأولى. والبعض يسمي هذه الفترة فترة الدولة العامة أو المركزية التي تحكم من غرب الصين إلى شمال إسبانيا إلى المحيط الأطلسي وجزر البحر المتوسط. واستمر ذلك تقريبًا حتى سقوط الدولة الأموية في الشرق 132 ه، 749م.

ولابدّ من الاعتراف بأن الدولة الأموية العربية هي التي حملت لواء الإسلام لأطراف الأرض، ولا يدانيها في ذلك أي دولة أخرى مهما بلغت فتوحاتها، فقوة الانتشار السريع لراية الإسلام كانت عربية خالصة. وقد احتك العرب بأمم أخرى ذات تراث حضاري مختلف، وقد انبهر العرب بما لدى الآخرين من معرفة وحضارة. ولم يكن لدى العربي إلا الإسلام الذي أعطاهم الثقة بالنفس والاعتزاز الذي يواجهون به الأمم الأخرى ذات التراث الأكثر عراقة.

وكانت الدولة الأموية في أول عهدها على درجة كبيرة من البداوة والسذاجة في المدنية، ولكنها تطورت في أواخر عهدها. وكان العرب يعاملون الآخرين بحذر واستعلاء. وبدأت في الدولة الأموية في أواخر أيامها حركة علمية ودينية وبعض ترجمات فردية، كانت مقصورة على العلوم العلمية من دون العلوم العقلية. أما الانفتاح الحقيقي لحفظ التراث الإنساني في كافة الميادين، فقد حدث في العصر العباسي.

ويمكننا القول إن العصر العباسي الأول كان عصر إحياء العلوم التي حفظت للبشرية تراثها القديم، حتى كان أواخر القرن الثامن الميلادي أطلت فيه على العالم تباشير حضارة إسلامية متضمنة علومَ وفلسفة ورياضات الهند، وأدوات وعلوم فارس، وحكمة وفلسفة اليونان.



القوى الدولية حتى نهاية القرن الثامن الميلادي:

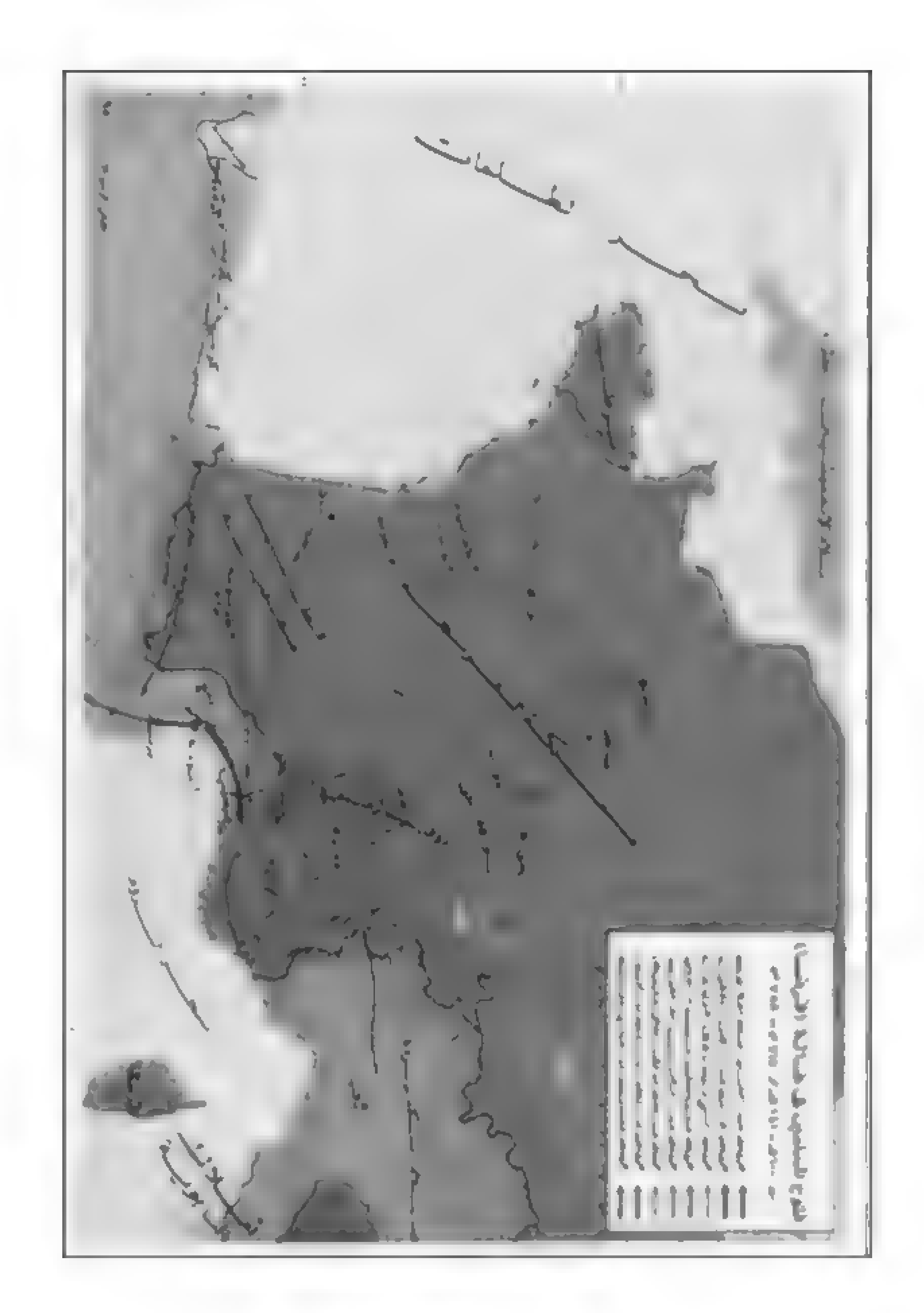
كانت أكبر القوى السياسية هي الدولة العباسية التي تواجه الإمبراطورية البيزنطية في الشرق وإمبراطورية شارلمان، وتواجهها الدولة الأموية في شبه جزيرة أيبريا. وأهم أحداث القرن الثامن تتمثل في وصول المد الإسلامي إلى أقصى مداه في العالم المسيحي آنئذ، فقد حاصر الأمويون القسطنطينية عام 717م. ولم يفلحوا في فتحها، كذلك توقفوا في فرنسا عقب موقعه بلاط الشهداء عام 732م. وما لبث المسلمون أن تخلوا عن فكرة التوسع في فرنسا بعد تواجد دام أكثر من أربعين عاما، وانسحبوا منها مكتفين بشبه جزيرة أيبريا.

أما العالم المسيحي فكانت الإمبراطورية البيزنطية على احتكاك دائم بالخلافة العباسية في لعبة توازن القوى التي كانت تدار بحكمة واقتدار أحيانًا عندما

تكـون رءوس الحكـم علـى مسـتوى عـالٍ مـن الفهم السـياسي، مثـل: عـهد الإمبراطور نقفور في بيزنطة، وهارون الرشيد في بغداد، والخليفة الأموي عبد الرحمن الداخل في قرطبة، والإمبراطور شارلمان في أوروبا اللاتينية. كانت الإمبراطورية البيزنطية تشابه الخلافة العباسية في أن رأس الحكم في كليهما يسيطر على السلطة الدينية والزمنية أو يملكهما معًا، كما في حالة الخلافة العباسية. أما في الغرب اللاتيني فكانت السلطة الزمنية خاضعة أحيانًا للسلطة الدينية، ومتمردة عليها أحيانًا أخرى.

وبنـهاية القـرن الثـامن، تمكّن البابا «ليو الثالث» من دعم فكرة الإمبراطوريـة الرومانية المقدسة، وجسّد هذا في ليلة عيد الميلاد عام 800م، عندما توج بيده شارلمان إمبراطورًا للإمبراطورية الرومانية المقدسة.

ويذكر التاريخ في هذه الحقبة من الزمن تبادل السفارات بين شارلمان وهارون الرشيد، وعلاقتهما الودية كمحور إسلامي - مسيحي موجه ضد محور إسلامي - مسيحي آخـر، مكوّن مـن: الإمبراطوريـة البيزنطيـة، والخلافـة الأمويـة فـي الأندلس.



التأثير المتبادل بين العالم الإسلامي والعالم المسيحي:

تأثر العالم الإسلامي في الشرق بالإمبراطورية البيزنطية مقتبسًا منها الكثير من نظم الإدارة، علاوة على حركة الترجمة العلمية. أما من الناحية العقائدية فكان التأثير المتبادل بين العالم المسيحي والعالم الإسلامي أكثر وضوحًا، خاصة في الغرب اللاتينى. فقد ظهرت في الغرب اللاتيني حركات دينية تأثرت بالإسلام، فعلى سبيل المثال ظهرت في سبتمانيا (جنوب غرب فرنسا) حركة تدعو إلي إنكار الاعتراف أمام القس، كذلك حركة أخرى تدعو إلى تحطيم الصلبان والصور والتماثيل الدينية. وقد أصدر الإمبراطور الروماني «ليو الثالث» أمرًا عام 726م يحرِّم فيه تقديس الصور والتماثيل، وأعقبه بأمر آخر عام 730م يعتبر الإتيان بهذه الأفعال وثنية خالصة. وكذلك كان قسطنطين الخامس وليو الرابع، على حين كان البابا جريجوري الثاني والثالث وجرمانيوس بطريرك القسطنطينية والإمبراطورة إيريني من مؤيدي الصور

والتماثيل. وجرى بين هذه الطوائف نزاع شديد لا محل لتفصيله. وهناك مثال آخر هو كلوديوس أسقف تورين عام 828م، والذي ولد ونشأ في الأندلس الإسلامية، وكان يحرق الصور والصلبان.

أما تأثير الثقافة النصرانية على العالم الإسلامي، فقد تسرب منها الشيء الكثير في العصر العباسي والأندلسي، فعلى سبيل المثال نجد أن ذلك إجمالًا في الشروح والقصص التفصيلية لما ورد في القرآن الكريم عن الأنبياء - قد جاء عن طريق النصارى من الموالي الذين أسلموا، وكذلك نصارى العرب من قبائل تغلب ونجران الذين كانوا لا يزالون متأثرين بثقافتهم الدينية المسيحية التي تحوي الكثير من القصص التفصيلية في نفس الموضوع، كذلك أدخلت أقوال من الأناجيل على أنها أحاديث للرسول -صلى الله عليه وسلم- فمثلًا من المعروف أن تفضيل الفقراء على الأغنياء شديد الوضوح في الثقافة الدينية المسيحية، وهناك حديث منسوب للرسول -صلى الله عليه وسلم- يقول: «يدخل فقراء أمتي الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام» مثال آخر لحديث آخر منسوب إليه - صلى الله عليه وسلم- يقول: «كونوا بلهاء كالحمام» مما يشبه ما جاء في إنجيل متَّى حيث يقول: «ها أنا أرسلكم وسط ذئاب فكونوا حكماء كالحيات وبسطاء كالحمام...».

وغير ذلك كثير منه مما وضع عن غير قصد كناتج لامتزاج الثقافات، ومنه ما دُسّ بغرض شرير؛ لإحداث بلبلة باستغلال مناخ الحرية الدينية في العصر العباسي والأندلسي، وقد كانت الممالك الإسلامية تعجُّ بأهل الكتاب، فقد بلغ عدد اليهود كما قدَّره الرحالة بنيامين اليهودي عام 1165م نحو ثلاثمائة ألف نسمة، وكان ببغداد وحدها خمسة عشر ألفًا، وهذا بالطبع بخلاف الإسرائيليات التي دسَّها اليهود في التراث الإسلامي.

القسم الرابع: أوروبا والعالم الإسلامي حتى القرن الحادي عشر

الحركة الدينية والسياسية في أوروبا:

استمر البابوات في روما يدفعون بحركة التبشير بالمسيحية الكاثوليكية في الاتجاه الشرقي من أوروبا بعد أن تم تأصُّلها في فرنسا. فوصلت المسيحية إلى ألمانيا في القرن الثامن الميلادي، ولم تصطدم البعوث التبشيرية بأي عقبة ثقافية تراثية، فقد كان المبشرون يقومون بعملهم بين قوم على الفطرة، لا يعرفون من اللغة اللاتينية أو الثقافة الرومانية القديمة وآدابها إلا ما يتعلمونه على أيدي المبشرين. والحقيقة أن الفضل كل الفضل يرجع للبابوات؛ فهم الذين حالوا بين الهون والمدنية الرومانية في إيطاليا، وهم الذين حموا روما من اللمبارديين، وبدا الكرسي البابوي كأنه منارة مضيئة وسط عاصفة من الإغارات البربرية. وكان لوجود جثماني القديسين الرسولين: بولس، ومرقص أثر بالغ في اعتبار روما مدينة محروسة مميزة، حيث سيُبعث هذان الرسولان من قبرهما في روما ليقفا أمام المسيح. ومن هنا كانت الكنيسة الغربية في روما راسخة الوجود في وجدان الكاثوليكيين الذين زاد حماسهم الديني مؤكدين قوة الهوية الدينية الكاثوليكية للعديد من شعوب أوروبا، مما سبب ظهور كيانات سياسية خاضعة للكنيسة. وفي سبيل ذلك قام الإمبراطور شارلمان بحملات بلغ عددها ثلاثًا وخمسين حملة، وجهها في جميع الاتجاهات بما في ذلك إسبانيا الأموية التي فشل فيها. وقد شملت حملاته العسكرية بلاد الدانيين - السلافيين الآفار - السكسون اللمبارديين. ومن نتائج أعماله أن تمكّن فعلًا من إدخال السكسون في المسيحية، أما الآفار فقد قضى عليهم تمامًا وشتت شملهم. وامتد النفوذ الفرنجي حاملا في طياته بذور الحضارة اللاتينية شرقًا صوب الأراضي التي هي الآن بولندا -بوهيميا- النمسا - المجر، وظهرت ألمانيا ككيان سياسي خاضع للبابا وأساقفته، وقد خرج من هذا الكيان السياسي أباطرة عظام للإمبراطورية الرومانية المقدسة فيما بعد.

الإمبراطورية الرومانية المقدسة:

إن فكرة بَعْث الحضارة الرومانية اللاتينية بعد ربطها بالمسيحية الكاثوليكية بين شعوب غير رومانية، وجعلهم يتعصبون للإمبراطورية الرومانية المقدسة- أمر قد صنعه البابوات بحكمة واقتدار خارق؛ لأنه من المعروف أنه حتى أواخر القرن الرابع الميلادي كانت الإمبراطورية الرومانية لا تزال على وثنيتها. وخلال قرن واحد ظهر القديس أوجستين بعد انهيار الإمبراطورية الرومانية يبشر الناس بقرب نهاية الدنيا؛ لأنه ليس بعد الإمبراطورية الرومانية إلا المسيح الدجال!! هكذا.. وقد حاول شارلمان النهوض بالعالم المسيحي اللاتيني، فأصدر أوامره للأسقفيات والأديرة بتعلم القراءة والكتابة، كما حث على كتابة الكتب المقدسة بصورة واضحة يسهل قراءتها. فكان شارلمان يعتقد أن الكتب المقدسة فيها كل شيء لهدي الإنسان ومفاتيح الحق، ولكن إمبراطورية شارلمان لم تستمر بعد وفاته، وعاد الظلام يخيم على أوروبا اللاتينية قرنين كاملين، فقد تدهورت البابوية خلال هذين القرنين حيث لم تكن البابوية منزهة عن الشبهات. وظلت أوروبا مسرحًا للشهوات الجامحة والأطماع والخرافات، فكان الحماس الديني تعصبًا جاهلًا، ودخلت الكنيسة في صراع ضد السلطة الزمنية ملوكًا وأباطرة، مما أفقد البابوية كثيرًا من الهيبة خلال هذا الصراع، رغم استمرار حركة التبشير. وقد أقنع البابوات الشعوب المسيحية بأن المسلمين وثنيون معتدون، وأشاعوا الكثير من الصفات المنحطة عنهم مثل الهراطقه الآريوسيين الذين تم القضاء عليهم. وقد نجح البابوات خلال القرن الحادي عشر في خلق رأى عام أوروبي لاتيني، ينادي بالجهاد المقدس ضد الوثنيين المسلمين وإحياء الإمبراطورية الرومانية المقدسة.

أهل الشمال السويديون - الفايكنج (دانيون ونرويجيون):

قام السويديون بتهديد الإمبراطورية البيزنطية خلال القرن التاسع والعاشر أربع مرات بأساطيلهم القوية. وكانت بيزنطة بحكمتها تارة، وبقوتها تارة أخرى، تتعامل معهم حتى تمكنت من احتوائهم كمرتزقة يعملون لحسابها. أما

الفايكنج فقد اتجهوا إلى غرب أوروبا يسلبون وينهبون الكنائس خاصة في انجلترا وإيرلندا وفرنسا. وكانت غاراتهم للتخريب والهدم حتى دخلوا المسيحية مع باقي أهل الشمال، وقد دخلوها من باب المسيحية الرومانية اللاتينية في أواخر القرن العاشر الميلادي. حتى إن أحد ملوكهم العظام «كانوت الإسكندنافي» حرص بعد تملكه انجلترا على أن يبدو سكسونيًّا أكثر من السكسون ولاتينيًّا أكثر من البابا. وأعقب الفايكنج النورمان من أهل الشمال، وكانت لهم قوة بحْرية أيضًا استغلها البابوات في القرن الحادي عشر في تخليص إيطاليا من الوجود البيزنطي، كما استرد النورمان جزيرة صقلية من المسلمين في منتصف القرن الحادي عشر.

الإمبراطورية البيزنطية:

كانت بيزنطة متألقة في القرنين التاسع والعاشر وجزء من الحادي عشر تحت حكم أباطرة مقدونيين (867 - 1059) مثل نقفور فوكاس. وقد توفرت لهذه الإمبراطورية طبقة حاذقة من الموظفين، وإدارة مالية، ونظام قضائي، وحنكة ودبلوماسية عظيمة في التعامل مع الشعوب الأخرى. وكانت علاقة القسطنطينية بروما تحكمها عقد دينية ترجع للقرن الثاني الميلادي؛ حيث كان اللاتينيون يحتقرون البيزنطيين، وكان هناك شاعر روماني ساخر تخصص في الانتقاص من قدر الإغريق القدماء بالهجاء المقذع (روما كانت عاصمة أقوى كيان سياسي في القرن الثاني الميلادي) واستمرت هذه الحال حتى بعد سقوط روما. أما البيزنطيون بعد سقوط روما فكانوا يعتقدون أنهم ليسوا ورثة الإغريق فحسب بل ورثة الإمبراطورية الرومانية أيضًا، بينما الفرنجة والنورمان والألمان هم فروع من شجرة البرابرة. كما اعتبروا إمبراطورية شارلمان اغتصابًا وقحًا من الغرب اللاتيني. هذا بالإضافة إلى الخلافات الكنسية، وقد انقطعت العلاقات تمامًا بين بيزنطة وروما عام 1053م.

أما بيزنطة في نظر الغرب اللاتيني، فقد كانت ذات صفتين متباينتين:

الأولى: إنها دولة مسيحية تواجه أعداء غير مسيحيين، ومن ثمّ يمكن مساعدتها.

والثانية: إنها دولة ملونة بالهرطقة متحدية لروما معادية لكل حركة تبشيرية كاثوليكية في الجنوب الشرقي من أوروبا. وقد ذهب النورمان إلى الرأي القائل بأن أسهل طريقة للتفاهم مع بيزنطة هي خَلْع الإمبراطور وفتح القسطنطينية. وقد تحقق ذلك فعلا فيما بعد عندما تحولت الحملة الصليبية الرابعة عن غرضها الصليبي ونهبت القسطنطينية عام 1204م، وظلت تحت الحكم اللاتيني خمسين عامًا.

والفرق الجوهري بين الإمبراطورية البيزنطية والغرب اللاتيني يتلخص في الآتى:

(أ) خضوع الكنيسة للإمبراطورية، فلم تكن مركز قوة مناوئة للسلطة، واحتفظت بهيمنتها الدينية فقط وتقاليدها الكنسية، وقد نتج عن ذلك تعصب ديني أقل، وسياسة واقعية عقلانية.

(ب) تواصل التراث بدرجة أكبر من الغرب اللاتيني الذي تردى في ظلمات الجهالة قرونًا بعد سقوط روما.

(جـ) توفر جهاز دولة، وطبقات حاذقة من الموظفين، ونظام قضائى، وحنكة دبلوماسية تهيأت بكثرة الاحتكاك مع جيرانها المتحضرين، مثل: إمبراطورية فارس حتى القرن السابع، ثم الخلافة العباسية فيما بعد.

تدهور الإمبراطورية البيزنطية:

بدأ التدهور الفعلي للإمبراطورية في أواخر القرن الحادي عشر بعد هزيمتهم هزيمة نكراء على يد السلاجقة الأتراك المتعصبين عام 1071م. ويقول المؤرخ هـ. فشر: (كثيرًا ما غُلِبَ البيزنطيون على أيدي أعدائهم المسلمين وغير المسلمين.. ولكنهم لم يُهزموا يومًا كهزيمتهم في ملاذكرد شمالي بحيرة وان

بأرمينية عام 1071م، إذ كانت الإمبراطورية تعتمد كل الاعتماد على أقاليمها الآسيوية التي ولت عنها إلى المسلمين بعد هذه الواقعة، فمن تلك الأقاليم كان خيرة جندها وملاحيها المهرة العاملين في الأسطول). وقد وقع الإمبراطور رومانوس أسيرًا في هذه المعركة. ثم عاشت الإمبراطورية ثلاثة قرون أخرى يغلب عليها الاضمحلال. وقد ساهم الغرب اللاتيني في ذلك حتى سقطت تمامًا في منتصف القرن الخامس عشر على أيدي العثمانيين 1453م.

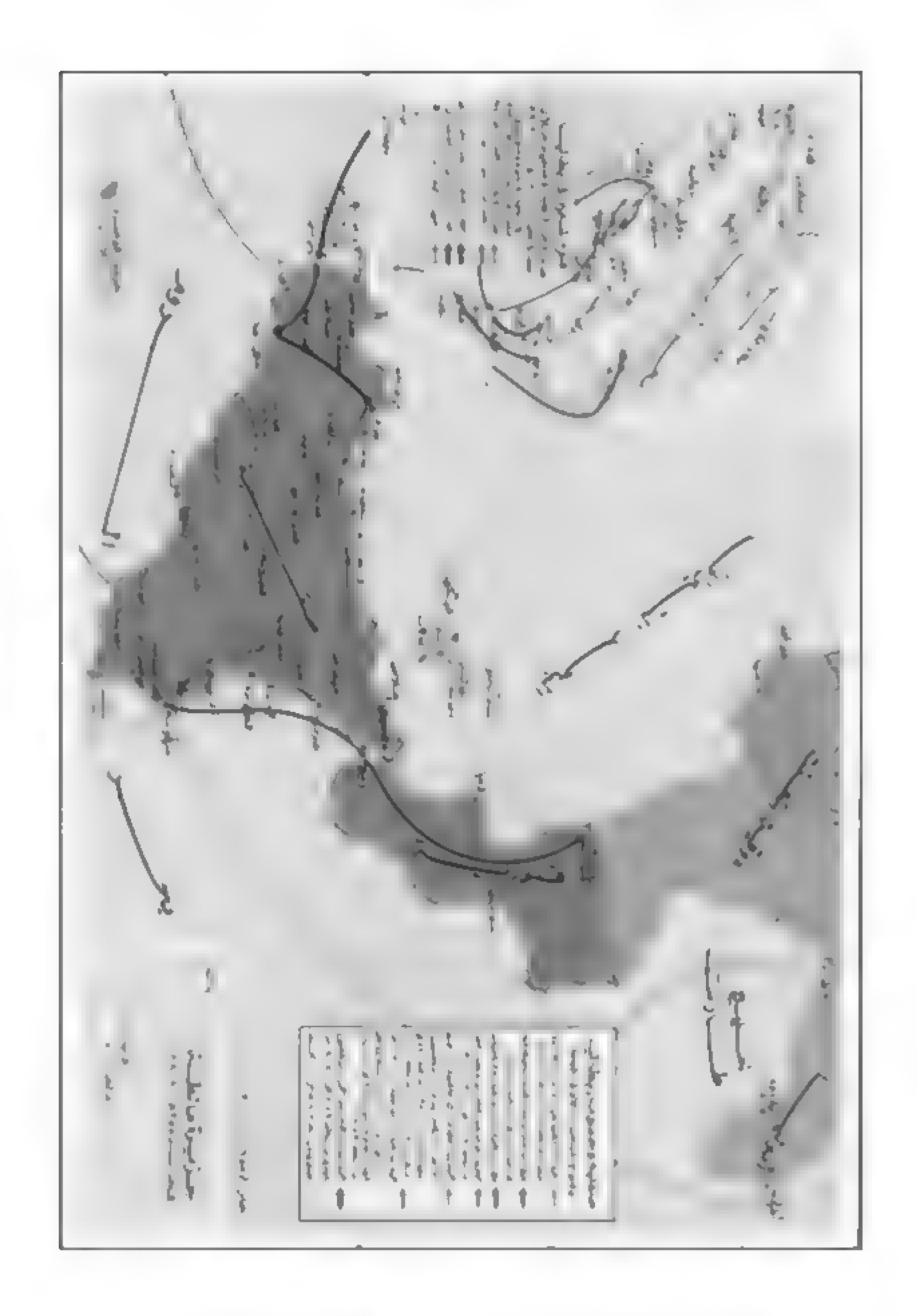
الحالة الاقتصادية والاجتماعية في أوروبا حتى القرن الحادي عشر:

كان القرن التاسع، والعاشر، وجزء من الحادي عشر عصر تدهور اقتصادي واجتماعي بصفة عامة، وكان النظام الاجتماعي يعتمد على خدمة العسكريين وولاء الفرسان إلى أمرائهم مقابل إقطاعيات يحوزونها. كما يعتمد على خدمة العمل التي يقدمها الزراع لأسيادهم مقابل الحيازات التي يسمح للفلاحين باستغلالها، وقد ظل هذا النظام سائدًا بعد هذا العصر ربما حتى الثورة الفرنسية.

وكانت أوروبا بعد المحاولة الإصلاحية للإمبراطور شارلمان مشغولة بصدّ الغارات من كل اتجاه، مما سبب هجرة الفلاحين للحقول خوفًا من الانتهاب. وضعفت البابوية في تلك الفترة وفقدت الكثير من الهيبة حتى إن روما نفسها قد تعرضت للنهب في القرن العاشر الميلادي. ولكن في القرن الحادي عشر بدأت موجات التهديد في الانحسار، وبدأت المدن تنمو وعدد السكان يزداد، وعاد الفلاحون إلى حقولهم، ونشطت الدعوة للجهاد المقدس بجهود البابوات الذين استعادوا قدرًا كبيرًا مما فقدوه من هيبتهم التي ضعفت لدرجة أن اضطر معها البابا يوحنا الثامن 872 - 882م إلى دفع الجزية لمدة عامين للمسلمين.

العالم الإسلامي حتى القرن الحادي عشر:

كان العالم الإسلامي في الأندلس يعيش عصره الذهبي مسيطرا على شبه الجزيرة الأيبيرية فيما عدا جيوب في أقصى الشمال، والشمال الغربي صارت فيما بعد ممالك مسيحية قوية. أما في الشرق فكانت بغداد مدينة العباسيين الجديدة بالغة الثراء والاتساع. وإلى جانب العواصم (بغداد وقرطبة) ازدهرت المدن الإسلامية بصفة عامة. وإجمالًا كان العالم الإسلامي هو الجانب الأقوى عسكريًّا وحضاريًّا. وكان البحر المتوسط بحيرة عربية نشطت فيه التجارة نشاطًا كبيرًا. وكان الغِني واليسار الطابع العام للمدن الإسلامية، فعلى سبيل المثال كان سكان قرطبة أكثر من مليون نسمة يسكن العامة فيها 113 ألف مبنى، أما الخاصة فدورهم كانت ستين ألفًا، وبها 1600 فندق و453 حانة، وكانت مقسمة إلى واحد وعشرين حيًّا، يسكن الخاصة في ثلاثة أحياء وهي الرصافة، والزهراء، والزاهرة، وشوارع هذه المدينة مرصوفة بالحصى ومضاءة ليلا بالسراج بأطوال تصل إلى 16 كم، وكانت المياه تجري إلى المنازل في شبكة عامة من الرصاص. أما في بغداد فقد ذكر ابن خلدون أن دَخْل الدولة العباسية السنوي أيام الرشيد كان 7015 قنطارًا والقنطار في حسابه عشرة آلاف دينار، فيكون الدخل سبعين مليونًا وخمسين ألف دينار، وهو رقم ضخم في ذلك الزمان.



النشاط البحْري الإسلامي:

ظهور دولة الأغالبة «المغرب الأوسط» 800 - 909م، وهي دولة بحْرية بالدرجة الأولى. فقد فتحوا صقلية عام 827م. ومالطة.. وجنوب إيطاليا، ووصل أسطولهم البحْري في حملات منتظمة حتى مصب نهر البو في شمال إيطاليا عام 838م. بل إنهم دخلوا روما نفسها في 22 أغسطس 846م ونهبوها. كما قام غزاة البحر المسلمون بالنزول في دلتا نهر الراون المعروفة باسم Comargue وأنشئوا قاعدة عسكرية ثانية يشنون منها غارات في فرنسا وشمال إيطاليا وسويسرا. وفيما بين عام 891 - 894 تمكن غزاة البحر من الأندلسيين من النزول في خلية سان تروبيز Saint Tropez في جنوب فرنسا، وتحصنوا في جبل فرانكتنويم Fraxintum، وأنشئوا قواعد لهم في جبال الألب، وتوغلوا في سويسرا في سان جالن Saint Galen عام 943م، وقد حاول إخراجهم من هذه المنطقة توجو ملك إيطاليا بالتعاون مع إمبراطور بيزنطة رومانيوس ولكنهما

فشلا. واستمر المسلمون هناك حتى عام 972م عندما أخرجهم الإمبراطور أوتو الأول. ولكن هذه السيادة البحْرية تقلصت في منتصف القرن الحادي عشر بظهور البورمان كقوة في جنوب إيطاليا، عندما استنجد بهم أحد ملوك الطوائف بالأندلس في تنازعه على حكم جزيرة صقلية (محمد بن إبراهيم القادر بالله) فأقبل ملك النورمان إلى صقلية واستولى على معاقلها. وأبقى حكامها المسلمين، لكن ابن هذا الملك «روجر الثاني» أعلن نفسه ملكًا على صقلية، وكان متسامحًا مع المسلمين. ومن الطريف أن بلاط هذا الملك كان إسلامي الشكل والتقاليد، وكان نصف جيشه من النورمان والنصف الآخر من المسلمين، وقد أحاط نفسه بعلماء بيزنطة وعلماء المسلمين الذي كان أشهرهم عالم الجغرافية الشهير الشريف الإدريسي (صاحب أول خريطة للعالم المعروف آنئذ على عكس الشائع أنه بطليموس) وقد رسمها على طبق من الفضة.

أما في الأندلس فقد سقطت الخلافة الأموية في أوائل القرن الحادي عشر 1009م. وبدأ حكم ملوك الطوائف المتنازعين، مما هيأ الفرص لملوك ليون وقشتالة مثل ألفونسو السادس لاستخلاص طليطلة عاصمة القوط القديمة عام 1085م، مما رفع الروح المعنوية للعالم المسيحي كله، ودعا البابا أوربان الثاني لتوجيه حملات لاستخلاص بيت المقدس من المسلمين في نهاية القرن الحادي عشر عام 1095م.

الحالة الفكرية والثقافية في العالم الإسلامي:

شهدت القرون الهجرية الثلاثة (الثاني والثالث والرابع)... نهضة فكرية إسلامية، تمثلت في استحداث عدة مبادئ ترشد الإبداع الإنساني:

الأول: فصل الفلسفة عن العلوم الطبيعية.

والثاني: إرساء مبادئ المذهب النقدي، **والثالث:** ظهور التعليم المدني بجانب التعليم الديني، الأمر الذي لم يكن موجودًا من قبل بالإضافة إلى إبراز أهميته، تلك الأهمية التي اعتمدت عليها النهضة الأوروبية بعد خمسة قرون تالية.

كيف كان ذلك وما الدليل عليه؟

كان أول من فصل علم الطب عن الفلسفة هو الطبيب الشهير ابن زهر الإشبيلي، وله أبحاث في معالجة الجرب بالكبريت وأزمات الربو، وألَّفَ كتابًا اسمه «التيسير في المداواة والتدبير» ظل مرجعًا من أهم المراجع الطبية في أوروبا حتى القرن السادس عشر، وكان كتابه هذا من أوله لآخره موضوعيًّا بالنسبة للطب... والطب وحده.

أما في العلوم الإنسانية فنتكلم عن الإمام ابن حزم (384-456هـ) كرائد من رواد التاريخ المؤسس على المنهجية العلمية، وهو أول من أدرك أن للتاريخ تفسيرًا وأن وراء جزيئات أحداث التاريخ عوامل تؤثر في حركته، وهو اكتشاف مهم لم تعرفه أوروبا إلا في عصر النهضة. وابن حزم مفكر اجتماعي تربوي راعٍ لأسس بناء الأمة ورقيها؛ فقد سبق عصره بإدخال الحِرَف المهنية وأساليب الزراعة في برامج التعليم. ودعنا نتأمل النص التالي من رسائل ابن حزم في القرن الحادي عشر، يقول:



الإمام ابن حزم

(العيش لايكون إلا بتفاهم ضرورة، والتفاهم لا يكون إلا من عاقل مميز، ولا سبيل إلى أن يبلغ السن إلا بتربية كما أن التفاهم لا يكون إلا بتعليم، ولابدّ كذلك في جميع الصناعات.. من آلات حرب والعمل بها، وآلات نسيج والعمل بها، والطب وسائر العلوم والصناعات لا يكون إلا بتعليم ابتداء. وكل ما عُلِّم فهو علم فيدخل في ذلك علم التجارة والخياطة والتدبير الفني والفلاحة وتدبير

الشجر والبناء وغير ذلك... هذه لغة الإمام ابن حزم.. رحمة الله).

من المعروف أن أبا الطب القديم جالينوس الإغريقي السكندري ومن بعده ابن سينا. وقد لقب ابن سيناء بالشيخ الرئيس. ثم جاء ابن النفيس الدمشقي مكتشف الدورة الدموية للإنسان قبل سيرفيرس البرتغالي بثلاثمائة عام يعارض السابقين ومنهم الشيخ الرئيس ابن سيناء في بعض الموضوعات بأدب جمٍّ ولكن في شجاعة، فيقول:

«إننا نعتمد على ما يقتضي النظر المحقق والبحث المستقيم ولا علينا وافق ذلك رأى من تقدمنا أو خالفهم». قيل هذا الكلام قبل عصر النهضة الأوروبية بعدة قرون.

وقد نشطت حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية في هذه الفترة، وعلى سبيل المثال لا الحصر نجد كتاب الطبيب الزهراوي وهو في 400.000 كلمة، ترجم الجزء الأول منه قسطنطين الإفريقي إلى اللاتينية عام 1087م، وظهرت الترجمة الكاملة له 1127م. ولا داعي للخوض في أعلام العلماء الذين ظهروا تباعًا، فيكفي أن تعرف أن ضاحية كاملة من ضواحي قرطبة، وهي الزهراء، كانت متخصصة في الطب؛ فكان بها خمسون مستشفى ومكتبتها بها 250 ألف مخطوطة متخصصة في الطب. وعلى سبيل المثال أيضًا، ألَّف الطبيب الزهراوي موسوعة طبية في ثلاثين مقالة بها وصف ورسم وصور مائتي آلة جراحية أكثرها من اختراعه مثل جفت الولادة المستخدم حتى الآن بعد تطويره.

ولم يكن المشرق الإسلامي بأقل منه في الأندلس الزاهر.. وإليك بعض تراث الخوارزمي كمثال:

1 - كتاب صورة الأرض، وهو نسخة وحيدة بالعربية محفوظة في مكتبة جامعة استراسبورج بفرنسا.

2 - كتاب تحديد زوايا السمت، نسخة وحيدة في إسطنبول.

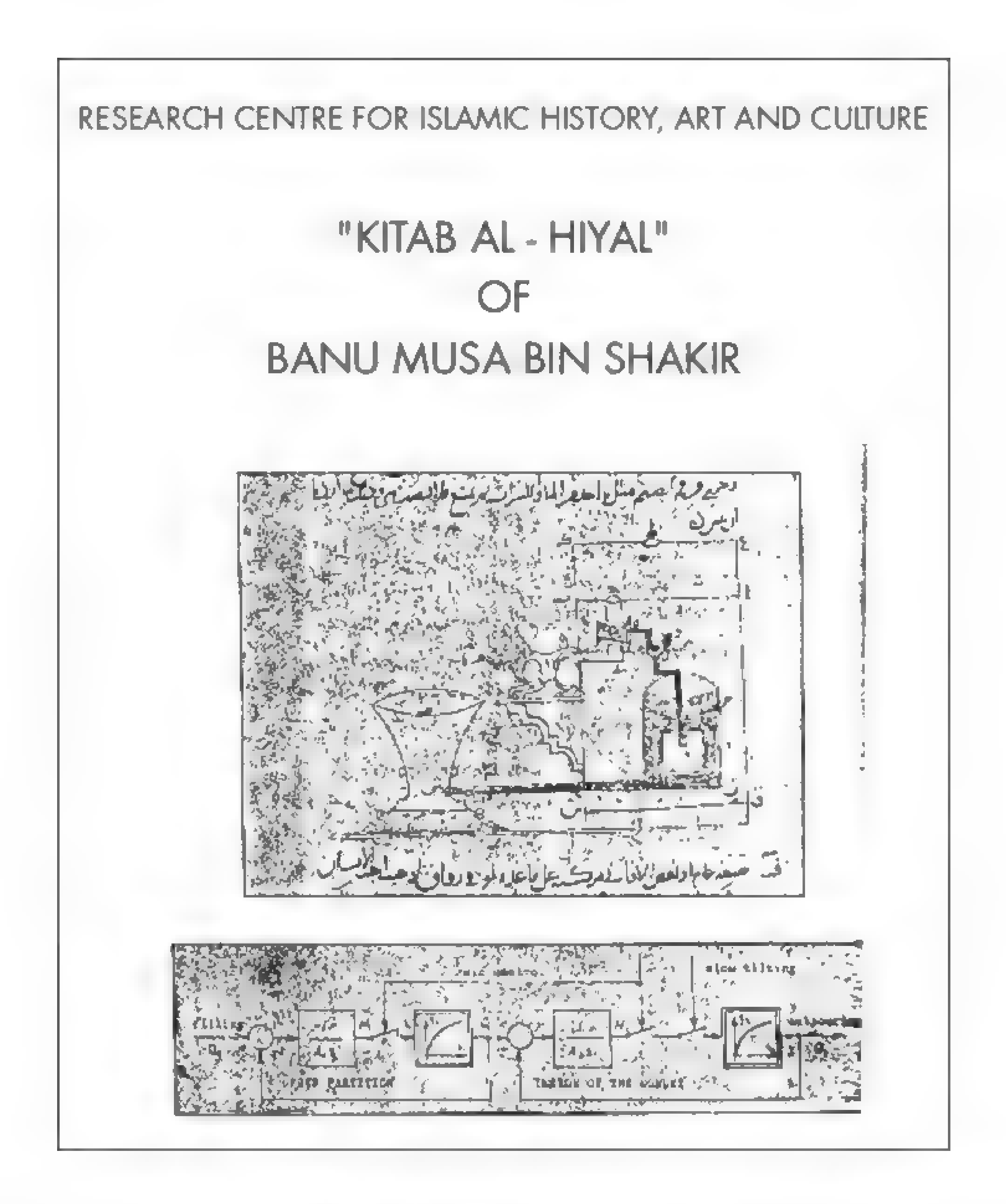
3 - كتاب الساعات الشمسية، نسخة وحيدة في إسطنبول.

4 - النظام العشري في الحساب.

5 - كتاب الجبر والمقابلة، ونسخته الأصلية بالاتحاد السوفييتى.

وقد ترجمت معظم كتبه إن لم يكن كلها إلى اللاتينية.

أما في مصر في العهد الفاطمي، فكان ابن يونس المصري مكتشف حركة البندول، وصانع أول ساعة دقاقة تعمل بحركة البندول، وصحَّح الجداول الفلكية للسابقين. كما ذكرت ذلك المراجع المعتمدة والموثقة، وقد اخترت مثالًا لأحد الكتب التي أدهشتني ورأيت أن أحاول إشراك القارئ العزيز في دهشتي إن استطعت، ألا وهو كتاب «الحيل» لأحمد بن موسى بن شاكر، وهو ثالث ثلاثة إخوة كلهم علماء معروفون تاريخيًّا بأبناء موسى (عاشوا في القرن التاسع الميلادي) وهذا الكتاب يتضمن سبعين تصميمًا لأجهزة الأواني السحرية، وخمسة عشر جهازًا للتحكم الذاتي، وسبع نوافير ماء، وثلاثة مصابيح زيت، ونظام رافع ميكانيكى. وتعتمد طرق العمل على مبادئ الضغط الايروستاتيكي والهيدروستاتيكي. ولا يزال بعضها يلبي متطلبات الميكانيكا، والتحكم الذاتي في العصر الحالي (من دون مبالغة) ويقدم الكتاب النماذج والرسوم التقنية، ونظم الضبط والإدارة، وبالأخص التحكم التلقائي. وقد تناول (الدكتور أتيلا بيير) الكتاب بالتحليل مع شرحه شرحًا معاصرًا.



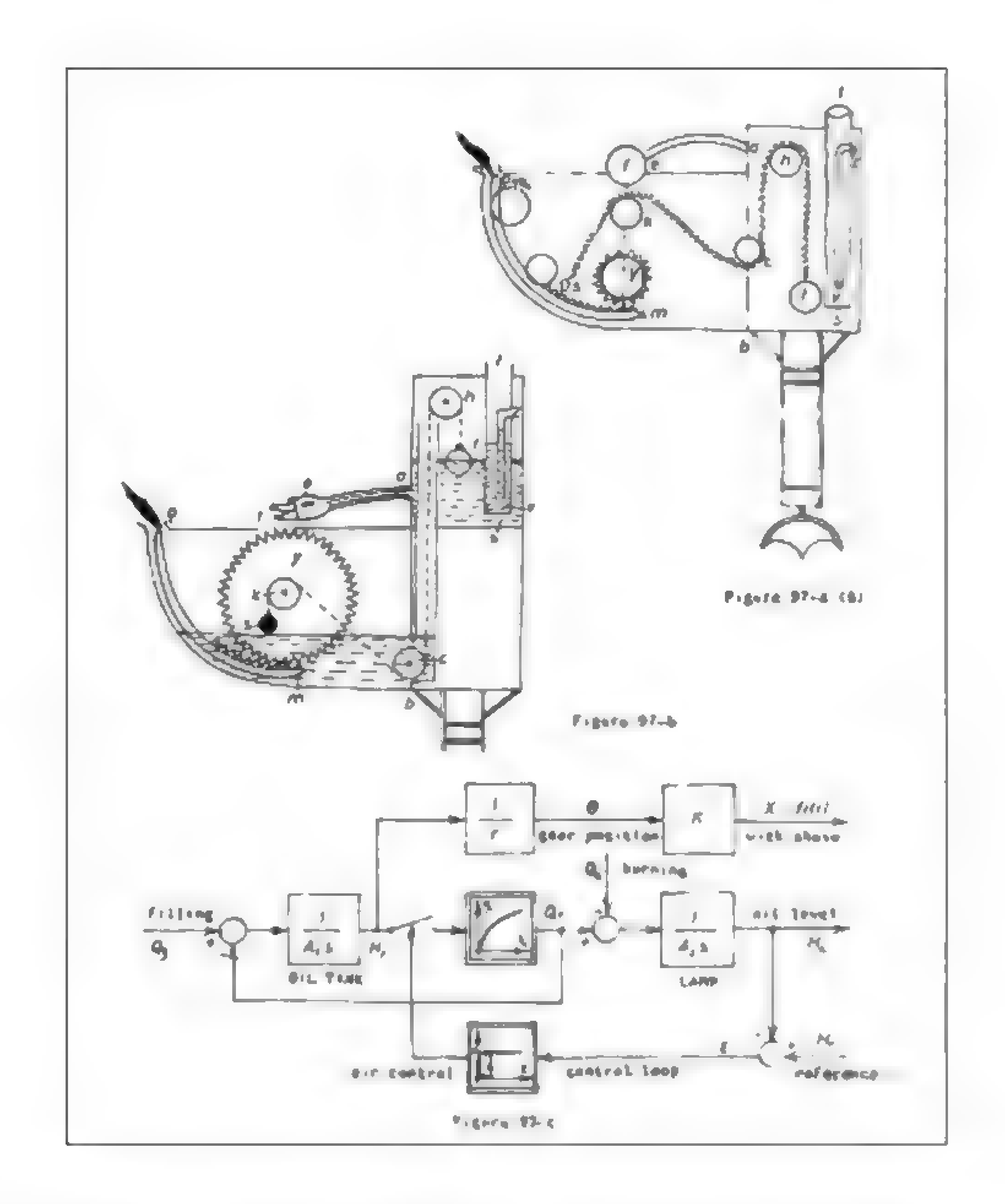
Miswk 97a An Oil Lamp in Which the Wick is Automaticaally Regulatated and the Oil Level is Automatically Controlled (Figure 97-a)

Here, the oil level control of the Moder 95 and the automatically regulated wick mechanism of the Model 96 are applied together in the same model. Since the original figure is inadequate a reconstruction attempt is given in Figure 97-b. The oil is poured through the hole I into the tank behind the lamp. the inpoured oil passing the air obstacle v-z flows into the oil tank and from there into the lamp vessel going through a swan head a-e stretching over the oil lamp. The oil level of the vessel is automatically controlled by an air pipe (also from which the wick regulating chain goes through). The flow of the oil into the lamp vessel stops when the end c of the air pipe is blocked by the oil.

The burned quantity of oil is automatically refilled by the tank oil flowing through the swan head (see Model 95).

The wick is regulated by the float existing in the oil tank. The position of the float is transmitted by the pulleys h-e-k and the counter weight s to the gear axel y-k. As in the Model 96 the gear y moves the wick towards the outlet hole when the level of oil in the tank decreases.

As seen in Figure 97-c the block diagram of the system is formed by the combination of the previous system block diagrams. In the work it is also stated that this system can be used as a time piece. Amechanism connected to the float lets a marble ball fall every hour, so that the time is then determined by the number of the fallen marbles.



والكتاب موجود في مكتبة متحف سراي طوب قابي بإسطنبول تحت رقم A7374. ومن يتأمل هذا الكتاب يمكنه القول إن تكنولوجيا عصر النهضة الأوروبية تدين له بالكثير.

وقد عاصر الإخوة العلماء «أبناء موسى» - زمن الخلفاء العباسيين - المأمون الذي كلفهم بأول مهمة في شبابهم، وهي تدقيق ما جاء في كتب القدماء عن محيط الأرض وهو 25000 ميل، وقاموا بتجارب ميدانية أثبتوا فيها أن المحيط 24.000 ميل وهو رقم قريب جدًّا من الحقيقة،كما عاصروا المعتصم والواثق.. وقد بلغ نشاطهم أَوْجَه في عهد المتوكل 847-861م.

خلاصة القول أن هذه القرون الثلاثة كانت عصر سيادة الفكر والعلم العربي الإسلامي للعالم كله، كما كان عصر السيطرة التجارية والعسكرية أيضًا، وعصر الترف والازدهار للمدن الإسلامية.

وفي المقابل، كان الغرب اللاتيني الذي بدأ في الانتعاش الاقتصادي في أواخر القرن الحادي عشر وتحت تأثير التعصب الديني، يدعو للعنف والجهاد المقدس ضد المسلمين، ولقد بدأت الدعوة إلى الجهاد بعد ورود أخبار انتصارات الأتراك السلاجقة على الإمبراطورية البيزنطية وأسْر الإمبراطور روماتوس 1071م، كذلك ورود أنباء أول انتصارات مسيحية في إسبانيا على ملوك الطوائف 1057م بعد سقوط الخلافة الأموية في أوائل القرن الحادي عشر.

القسم الخامس: الحروب الصليبية والظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية للأطراف المتصارعة

ظهور فكرة الحروب الصليبية

تُعد الحروب الصليبية من أهم أجزاء التاريخ المشترك بين أوروبا والعالم الإسلامي - بتوجيه من البابوية في روما بغرض استعادة بيت المقدس في الشام- وقد بدأت هذه الحروب في نهاية القرن الحادي عشر، واستمرت في عنف وضراوة حتى القرن الخامس عشر ثم أخذت ألوانًا أخرى من الصراع في رأى البعض حتى القرن السابع عشر.

وأول من فكّر في هذه الحملات العسكرية هو البابا جريجوري السابع مستغلًا استغاثة الإمبراطورية البيزنطية بعد موقعة ملاذكرد التي هزت العالم المسيحي كله. وقد تزامن ذلك تقريبًا مع محاولة ألفونسو السادس ملك ليون وقشتالة استخلاص بعض الأراضي في إسبانيا من أيدي ملوك الطوائف، وتمكنه فعلا من استخلاص طليطلة عام 1085م. ومنذ ذلك التاريخ أخذ الصراع في إسبانيا صفة الحرب العامة الدينية المتعصبة، ووضع المقاتلون لأول مرة فيها شارة الصليب على صدورهم ودروعهم، وأصبحت كل مجموعة عسكرية من هؤلاء تُسمى قوة صليبية cruzada.

وفي عام 1095 دعا البابا أوربان الثاني لتجهيز الحملات العسكرية وتوجيهها

إلى قلب العالم الإسلامي لاستخلاص بيت المقدس، وبلغ عدد هذه الحملات خمس عشرة حملة، منها سبع حملات قوية ضخمة انتهت بالحملة السابعة على مصر بقيادة الملك لويس التاسع التي أُسِر فيها. كان الملك لويس التاسع متدينًا، شجاعًا، وكان يطلق عليه «لويس التقي» ولكنه بدد جيشه تمامًا في معركة المنصورة، وفرَّ كثير من جنوده إلى القرى المصرية المحيطة بالمنصورة مستجيرين بالفلاحين. وربما يعرف الكثيرون أن بعضًا من القرى حول المنصورة تظهر على وجوه أبنائها الكثير من الصفات الخِلْقية الأوروبية كالعيون الملونة، واصفرار الشعر، وبياض البشرة بدرجة ملفتة، المهم كانت هذه الحملة نكبة شديدة على أوروبا التي افتدت الملك التقي بفدية كبيرة أقسم بعدها ألّا يعود لمحاربة المسلمين أبدا، وكان ذلك في مايو 1250م، ولكنه حنث في قسمه ووجَّه حملة صليبية ثامنة إلى تونس متحاشيًا مواجهة دولة المماليك القوية في مصر، ظنًّا منه أن تونس ستكون صيدًا سهلًا، وقد عاونه في الحملة الثامنة أخوه شارل ملك صقلية، ولكن المقاومة الإسلامية كانت عكس ما توقع، فقد واجه قوات الحفصيين وهُزم ومات عام 1270م.

ولما كانت تلك الحملات السبع الكبيرة معروفة للجميع وتُدرَّس بالمدارس فسوف نمر عليها مرورًا سريعًا؛ فالحملتان الأوليان لقيتا استجابة من ملوك أوروبا فاقت ما كان يتصوره البابا أوربان الثاني، **ففي الحملة الأولى** اخترقت القوات الصليبية القسطنطينية وهزموا السلاجقة الأتراك عام 1097م. واستولوا على أنطاكية ثم دخلت القدس عام 1099، وارتكبت بها مذبحة فظيعة قتل فيها سبعون ألفًا من سكانها المسلمين والمسيحيين. **أما الحملة الثانية** بقيادة لويس السابع ملك فرنسا وكونراد الثاني ملك ألمانيا، فقد حاولت فتح دمشق وباءت بالفشل.

أثار سقوط القدس وأنباء المذبحة المروعة مشاعر المسلمين ومخاوفهم، حتى إن الجماهير في بغداد هاجمت قصر الخليفة العباسي لإعلان الجهاد. وأخيرًا تحرك المسلمون وكان أولهم مودود التركي أتابك الموصل، فاقتحم إمارة الرُّها

وأسر عددًا من الصليبيين. كان ذلك فاتحة حركة رد الفعل الإسلامي والتجمع لحرب الفرنجة، وظهر السلطان صلاح الدين الأيوبي الذي حرر القدس بعد معركة حطين الشهيرة في يونيو عام 1187م. وكان لذلك دوي عالميٌّ كبير خلَّد اسم صلاح الدين في التاريخ، وتحظى سيرته حتى الآن بالاحترام الشديد سواء في التاريخ الأوروبي أو الإسلامي. **ثم جاءت الحملة الثالثة بقيادة ملوك أوروبا:** ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا، وفيليب أغسطس ملك فرنسا، فريدريك بربروسا إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة. انتهت هذه الحملة بصلح الرملة مع صلاح الدين، هذا الصلح الذي يقضي بترك شريط ساحلي يمتد من صور إلى يافا للصليبيين مع السماح لهم بالحج لبيت المقدس الذي ظل في يد المسلمين. **أما الحملة الرابعة** فقد خرجت عن هدفها ولم تصل إلى الشرق، وإنما انتهت بالاستيلاء على القسطنطينية وإقامة دولة لاتينية فيها لمدة خمسين عامًا.

أما الحملة الخامسة، فكان هدفها مصر، نزلت في دمياط في نوفمبر 1219م ولكنها فشلت ورحلت قواتها عام 1221م. أما الحملة السادسة فكانت بقيادة إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة فريدريك الثاني الذي أبحر لسواحل الشام لكنه سرعان ما عاد بحجة أنه لم يتحمل دوار البحر في حين أن أسطوله وجنوده كانوا قد وصلوا فعلًا لسواحل الشام، وقد أغضب هذا التصرف البابا الذي حرَّمه وطرده من الكنيسة. ورغم ذلك فقد عاد الإمبراطور في صيف 1228م - وهو طريد الكنيسة - على رأس حملة قصد بها بيت المقدس. وكان السلطان الكامل الأيوبي حينئذ في نزاع مع أخيه الناصر والي دمشق، لذلك سارع بالتفاوض مع فريدريك وتنازل له عن بيت المقدس. ولكن الغريب أن البابوية رفضت نتائج هذه الحملة بحجة أن فرسان الصليب ذهبوا لبلاد الشام لحرب المسلمين، لا للتفاوض معهم، والأكثر غرابة أن البابا أعلن عن عزمه على إرسال حملة صليبية ضد أملاك فريدريك الثاني الزنديق، الملحد.

ولم يمض وقت طويل حتى تمكن الأيوبيون من استعادة بيت المقدس وكل ما

كان السلطان الكامل قد تنازل عنه للصليبيين. أما الحملة السابعة والثامنة فقد سبق ذكرهما عند ذكر لويس التاسع ملك فرنسا.

احتضار الوجود الصليبي:

لم ينقطع البابوات عن تغذية فكرة العدوان المسلح على بلاد المسلمين. وقد حدثت غارة شديدة على الإسكندرية تحت ستار الصليب في عام 1360م. ثم بعد ظهور العثمانيين كدولة توجهت حملة صليبية هدفها الدولة العثمانية الناشئة ولكنها هزمت هزيمة منكرة عام 1396م، وانهزم الصليبيون مرة أخرى عام 1444م عند فازنا على سواحل البحر الأسود. ونشط فرسان القديس يوحنا في جزيرة رودوس. وأقاموا بها دولة إفرنجية وظلت الفكرة الصليبية موجودة تظهر فيما قام به ملوك أوروبا من العدوان على شواطئ بلاد المسلمين، مثل حملات الأمير هنري الملاح البرتغالي على المغرب فيما بعد.

أما في الشرق فقد تم تصفية الوجود الصليبي في عهد السلطان الأشرف خليل بعد استيلائه على عكا في مايو 1291م، أما رودوس وقبرص فقد حررهما السلطان الأشرف شعبان والسلطان سيف الدين جقمق عامي 1426م، 1444م، وقد ظلت الجزيرتان تابعتين لمصر المملوكية حتى انتقلت ملكيتهما للدولة العثمانية عام 1517م. ومعنى ذلك أن الحروب الصليبية استمرت حتى منتصف القرن الخامس عشر، وإن كان الوجود الصليبي في الشام قد انتهى في نهاية القرن الثالث عشر.

حركة الاسترداد في إسبانيا:

بعد سقوط طليطلة في عام 1085م، عبر المرابطون من المغرب إلى الأندلس لنجدته وانتصروا على ألفونس السادس ملك قشتالة في موقعة الزلاقة (أكتوبر 1086م)، وفي عام 1089م عزل المرابطون ملوك الطوائف وأصبحت الأندلس جزءًا من دولة المرابطين في المغرب. وقد حافظ المرابطون على ما ورثوه من

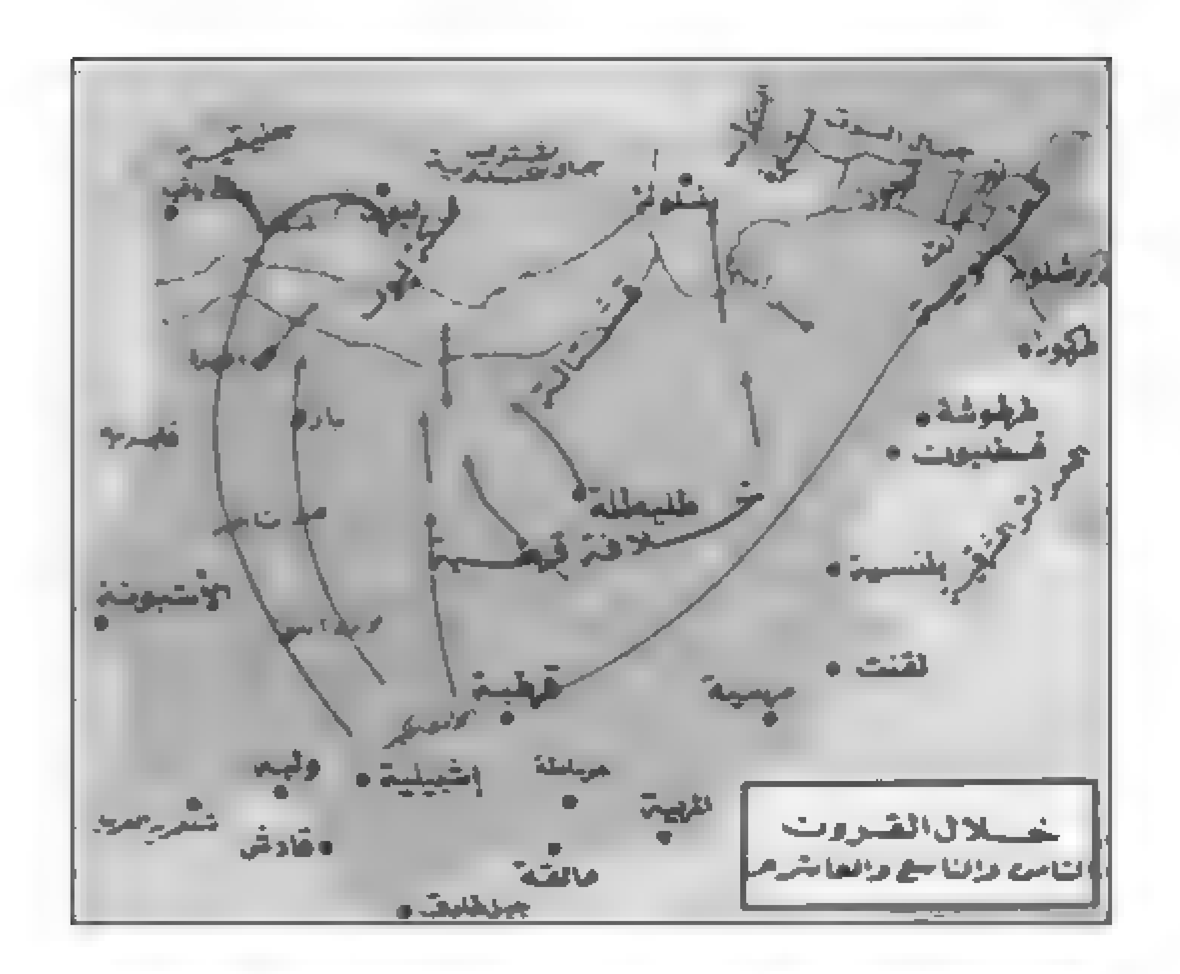
الأندلس وتمكنوا من وقف حركة الاسترداد. وفي عهد دولة الموحدين تم توجيه حرب صليبية بمباركة البابا، وقادها ملك مملكة الأرجون عام 1248م وقد اتحدت فيها معظم الممالك المسيحية في شبه جزيرة أيبريا، وانتهت بسقوط العاصمة الإسلامية قرطبة 1236م. ثم أخذت قواعد المسلمين في الأندلس تتهاوى تحت ضربات صليبية بالغة التعصب حتى استطاع ابن الأحمر تأسيس مملكة غرناطة، وأوقف هذا التدهور من أوائل القرن الثالث عشر حتى نهاية القرن الخامس عشر.

وقد حكمت أسرة ابن الأحمر 268 عامًا، وكان شعارها «لا غالب إلا الله» نراه منقوشًا بطرق زخرفية وبصورة مكررة في قلعة الحمراء التي أنشأها ابن الأحمر في غرناطة التي تعاقب على عرشها واحد وعشرون ملكًا، ورغم صغر المملكة فإنها كانت مملكة قوية توافرت للأسرة الحاكمة فيها الحنكة السياسية مما جعلها تعمر وتعقد اتفاقيات مع الممالك المسيحية وكأنها واحدة منهم؛ فقد ساعد ابن الأحمر بقوة من جيشه ملك قشتالة وليون، واستطاع أن يسترد الجزيرة الخضراء وحصن جبل طارق ليؤمّن اتصاله بالمغرب. وقد هبطت حدة التعصب الديني بنهاية القرن الثالث عشر.

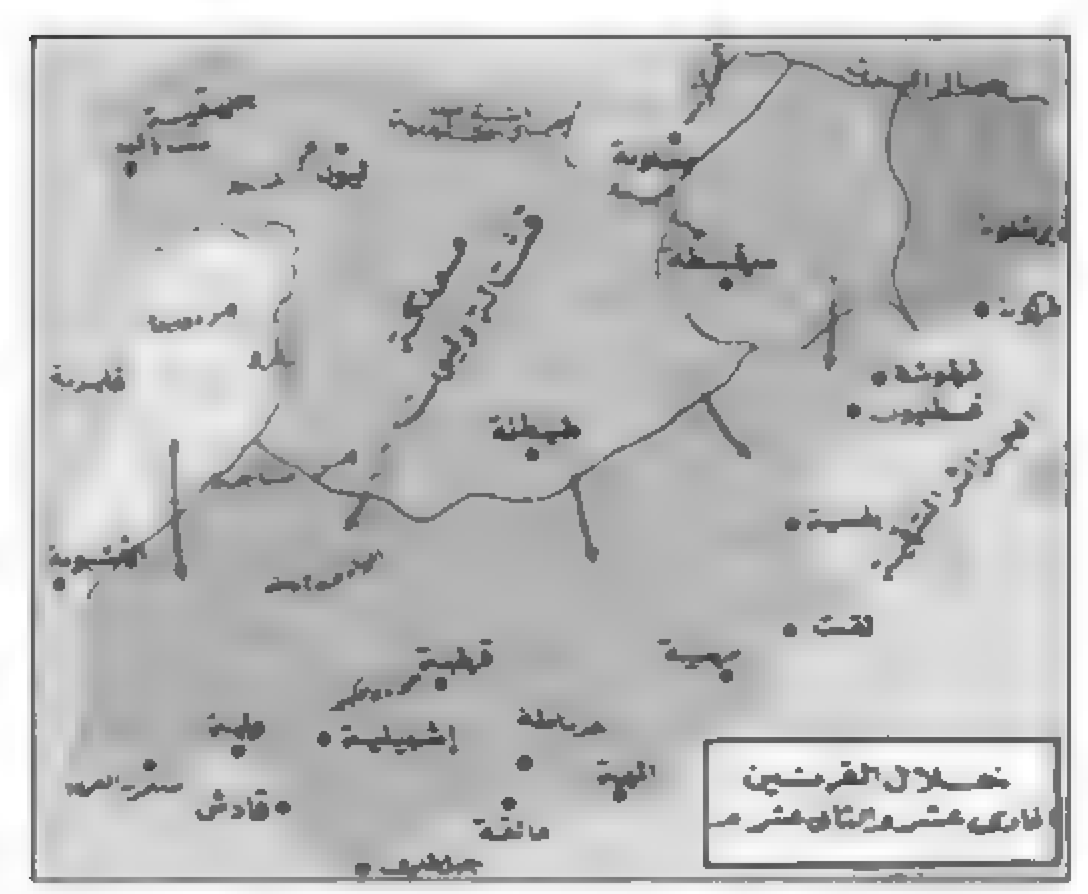
ونلاحظ أن حركة الاسترداد بلغت ذروتها وحققت معظم مكاسبها في أثناء الحروب الصليبية في الشرق.وقد أثر فشل الحروب الصليبية على حركة الاسترداد التي توقفت تقريبًا مدة 268 عامًا.

ومن الطريف أن ألفونسو العاشر طلب معاونة ابن الأحمر عندما اختلف مع ابنه شانجو الرابع الذي نازعه في الحكم، مما جعل الفونسو يهرب من ابنه، ويلجأ فعلًا إلى ابن الأحمر. وأعظم ما خلفته هذه الأسرة هي قلعة الحمراء التي تُعد قصورها من أعظم آيات الفن الرفيع.

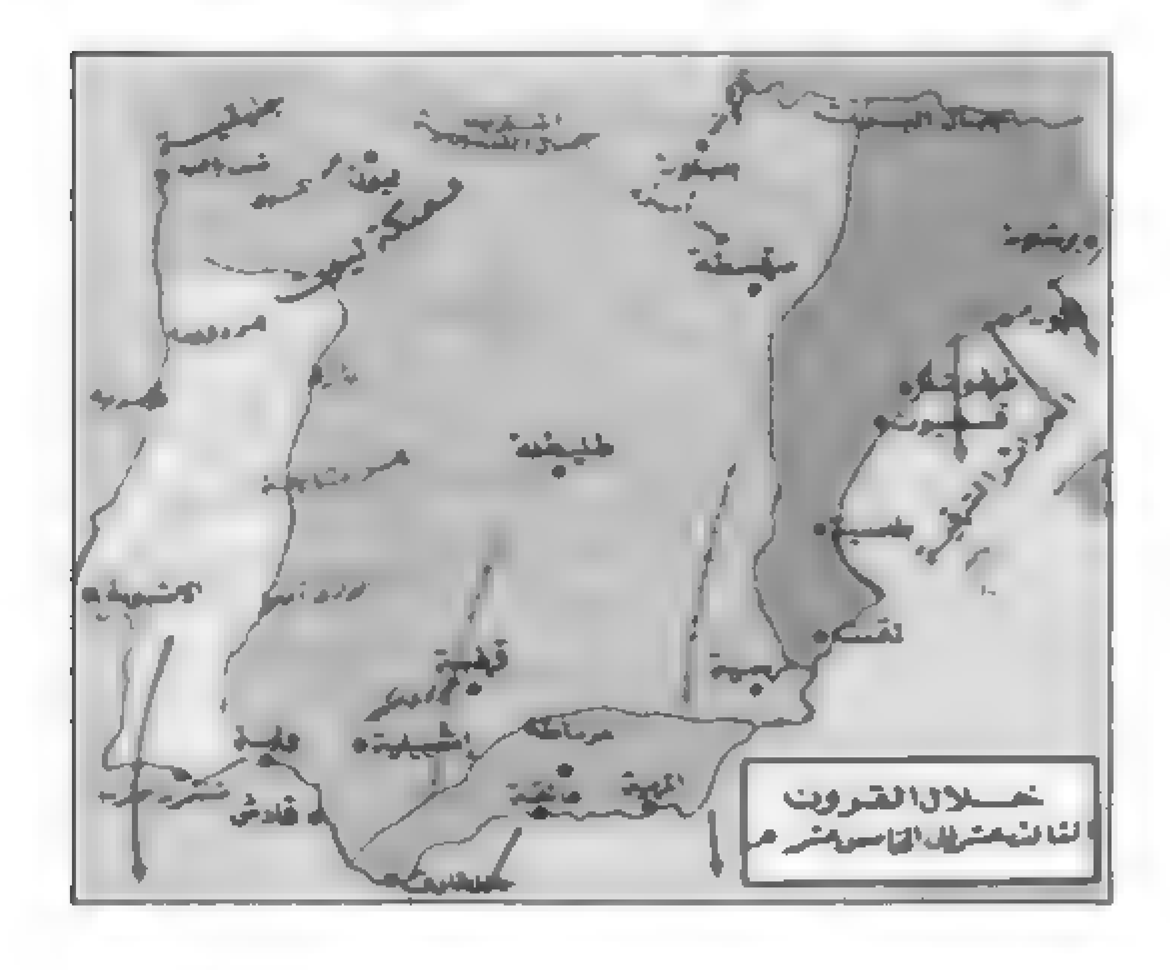
الأندلس خلال القرون من الثامن حتى الخامس عشر:



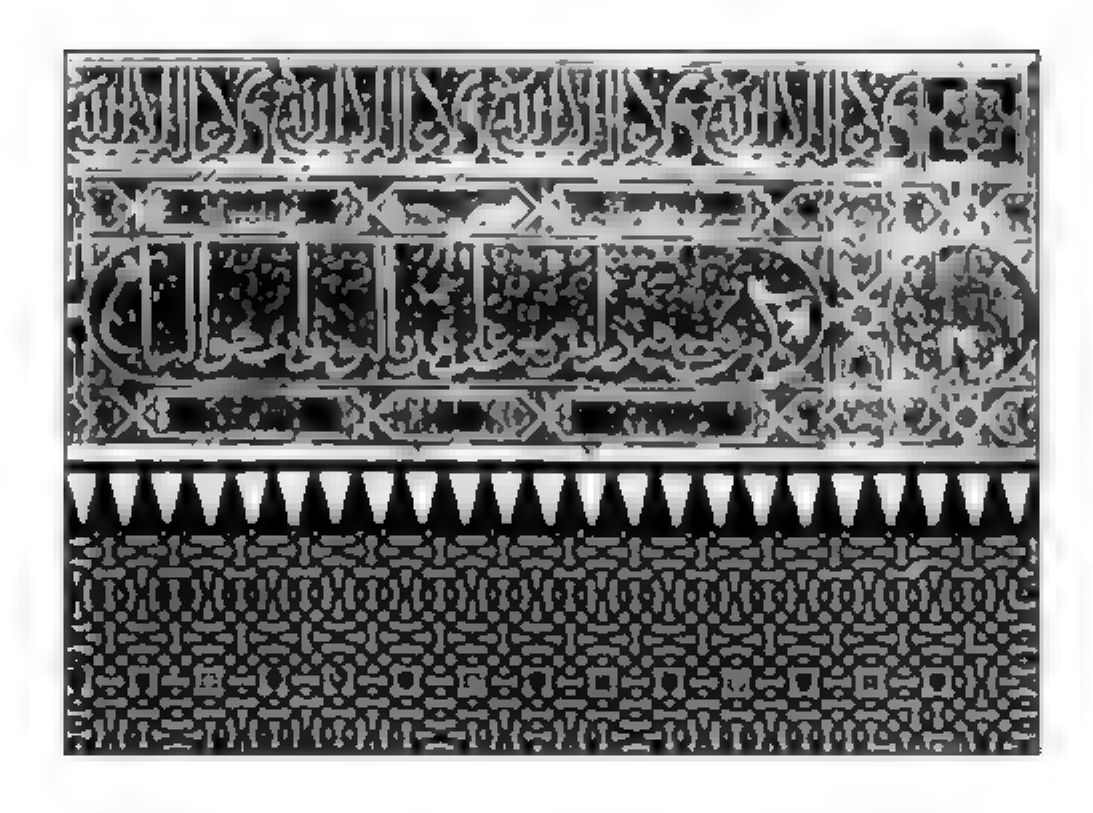
خلال القرون
طليطلة
قرطبة
إشبيلية
قادش
مالقة
بلنسية
لقنت



خلال القرنين
طليطلة
إشبيلية
قادش
مالقة
لقنت



خلال القرون
طليطلة
قرطبة
قادش



A fragment of the pocm by Ben Zamrak in the decoration of the Room of the Tuo Sisters.

west side has now lost almost all its ornamentation and was named after the decoration on the vault, of which there are only a few scant traces. On the opposite side, three porticoes, corresponding to two square rooms which intercommunicate through wide arches, give access from the courtyard to the Sala de los Reyes. It is covered with cupolas decorated with scroll-like figures and is called the Sala de los Reyes because of the paintings decorating the rooves of the open alcoves at the back of the rooms, which are suspected of representing Nazari monarchs. Two great twin flagstones covering the floor named this room Las Dos Hermanas (The Two Sisters), which

Room of the Abencerrajes



نافورة قلعة الحمراء

ثم سقطت غرناطة بمعاهدة مع فرناندو وإيزابيلا ملوك قشتالة وليون في 2 يناير 1492م.

نشط الأساقفة في تنصير المسلمين الذين عرفوا بعد ذلك بالموريسكيين Los Morisco. وقد ثار المسلمون عدة مرات كان آخرها عام 1609م، فمثلًا ثاروا في عام 1568م، وحدثت محاولة إنزال بحْري إسلامي من الجزائر العثمانية ولكنها فشلت. ويبدو أن الثورة كانت مخططة مع الإنزال البحْري، الأمر الذي استوجب صدور أمر بالطرد لجميع بقايا المسلمين إن لم يتنصروا، وفي عام 1614م، تم طرد آخر مسلم أصر على إسلامه من إسبانيا إلى المغرب؛ أي في أوائل القرن السابع عشر.

موقف المغرب العربي من الصراع الدائر:

كان بالشمال الإفريقي أربع دول إسلامية متصارعة: الموحدية، والمرينيون (بنو مرين)، الزناتية، والحفصية. وقد أدى ذلك النزاع بينهم إلى إضعافهم جميعًا.

وطالت أيام (بنو مرين) حتى 1550م، وقد عاونوا ابن الأحمر في الأندلس بعبورهم لنجدته عام 1268م، وانتصروا على قوات قشتالة في 8 سبتمبر 1286م. لكنه بعد نحو ثلاثة وخمسين عاما انتصر ألفونسو الحادي عشر وحلفاؤه على بني الأحمر وحلفائه من بني مرين وبني وطاس عام 1339م، وقد حكم بنو وطاس المغرب الأقصى حتى 1550م، ثم أعقبهم الأشراف السعديون، وقد سيطر العثمانيون فيما بعد على شمال إفريقيا عدا المغرب الأقصى الذي يحكمه السعديون الذين لم يتعاونوا مع العثمانيين بحجة عدم الاعتراف بالسلطان العثماني خليفة للمسلمين؛ لأنه غير قرشي النسب مثلهم، وذلك يعكس نظرة ضيقة لا تناسب طبيعة الصراع العالمي في ذلك الوقت، وخاصة أن محاولات الجزائر العثمانية في صراعها البحْري مع الأوروبيين ومحاولة مساندة ثوار الأندلس المسلمين كانت تستدعي تعاون الدولتين العثمانية والسعدية.

ظهور العثمانيين:

في أوائل القرن الرابع عشر 1326م، تكونت (دولة إسلامية) على أنقاض دولة السلاجقة الأتراك التي استنزفت الإمبراطورية البيزنطية، وسيطر العثمانيون على الركن الشمالي الغربي من آسيا الصغرى، وعبروا بحر إيجه، ونزلوا على الساحل اليوناني 1354م، ثم اقتطعوا اليونان كلها عام 1339م، وأوغلوا شمالًا وغربًا واستولوا على صوفيا عاصمة البلغار 1386م وأصبحت ولاية الصرب تابعة لسلطان الأتراك العثمانيين، وقد نهضت المجر وبولندا لمقاومة العثمانيين في حملة صليبية هزمها العثمانيون 1444 - 1448م. وتمكن السلطان محمد الفاتح من فتح القسطنطينية في عام 1453م منهيًا الإمبراطورية الرومانية الشرقية التي عمرت أكثر من ألف عام بعد سقوط روما. هزَّ هذا الحدث أوروبا وأشعل الأمل في الشعوب الإسلامية، وخاصة في المغرب العربي الذي كان يعاني هجمات الصليبيين على شواطئه. وقد قام محمد الفاتح بالعبور إلى إترانتو على الساحل الإيطالي عازمًا فتح روما نفسها، ولكنه توفي وانسحب

الأتراك العثمانيون عائدين.

وبنهاية القرن الخامس عشر، كان العالم الإسلامي المشتبك في صراعه مع الغرب اللاتيني يتكون من: الدولة العثمانية القوة الصاعدة في آسيا الصغرى وأوروبا الشرقية، والدولة المملوكية القوية في مصر والشام، ويتبعها جزيرتا قبرص ورودس في شرق البحر المتوسط، ودولة بني وطاس في المغرب الأقصى، والدولة الحفصية في طرابلس والجزائر والمغرب الأوسط.

الحالة الاجتماعية والاقتصادية في مصر والشام في أثناء الحروب الصليبية

كانت الحروب الصليبية صدمة لكلا الفريقين المتصارعين. وربما كانت إفادة أوروبا منها أكبر من إفادة العالم الإسلامي فقد رفعت الحروب الصليبية والانتصارات الأولى سلطان البابوية في أوائل القرن الثالث عشر إلى درجة عالية في عهد أونسنت الثالث؛ حيث ترسخت فعلا وعملا فكرة أن السلطة المطلقة يجب أن تكون للبابوية وأن من حق البابا أن يختار الملوك، والأباطرة وَفْقًا لمشيئته. ولكن بنهاية القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر ضعفت البابوية وظهرت الأفكار العلمانية المناوئة، فقد غرر البابوات بملوك وشعوب أوروبا في حروب الوثنيين المسلمين المتبربرين الذين تبين من الاحتكاك بهم أنهم غير وثنيين وغير متبربرين. وعلى مدار ما يقرب من قرنين ونصف تخللها قتال ومفاوضات واحتكاك عن قرب نتج عنه تشكك كبير في ادعاءات البابوية حتى تستمر سيطرتهم على شعوب وملوك أوروبا. ويمكننا القول إن الحروب الصليبية كانت سببا مباشرًا في الصراع بين السلطة الدينية والسلطة الزمنية في أوروبا. ولم يمض قرن من الزمان حتى أطل فجر بواكير عصر النهضة، وعلى سبيل المثال وجه أونسنت الثالث الحملة الصليبية الرابعة فانحرفت عن غرضها واستولت على القسطنطينية، ويقال إن البنادقة هم السبب في ذلك لتحقيق أرباح طائلة؛ إذ خرجت البندقية منها بالاستيلاء على أهم الثغور

البحْرية المسيطرة على طرق التجارة في شبه جزيرة القرم وجزر كريت وبعض جزر الأرخبيل إلى جانب تشكيلها إدارة تجارية فرضت سيطرتها على الإمبراطورية البيزنطية المهزومة. وفي نهاية القرن قويت فكرة أنه ليس من الضروري أن يخضع الملك للبابا لكي يحظى بالجنة في الآخرة، ورأى الكثيرون أن البابوية تتعسف في حرمان الملوك والأباطرة. وانتهى الأمر بأن خطف ملك فرنسا فيليب الجميل البابا يونيفاس. أتى به أسيرا إلى فرنسا عام 1299م، وبعد ست سنوات انتُخب الكاردينال برتان دي جوت (كليمنت الخامس) 1305م بمساعدة فرنسا، واتخذ مقره بمدينة آفنون الفرنسية.

أما في الشرق فقد اندلعت الحروب الصليبية والملوك والأمراء المسلمون في فرقة وتنازع، وترف، ولهو. ففاجأتهم حمية وتعصب الأوروبيين المسيحيين، فحدث هلع وذعر.. ومضى وقت طويل لاستنهاض الهمم؛ والحق يقال إن الأيوبيين قد بذلوا جهدًا كبيرًا في ذلك لإثارة الحمية الدينية التي كانت سببًا في الانتصار في النهاية. ولكن الواضح أن التعاون بين ملوك المسلمين كان أقل من تعاون خصومهم؛ فقد استنجد صلاح الدين بملوك المغرب العربي مستشهدًا بما يرتكبه الصليبيون، ولكن ملوك المغرب لم يستجيبوا له. وكان اعتماد الأيوبيين في الحرب على العنصرالكردي والتركي.. وكان ذلك يتطلب نفقة كبيرة انعكست على كثرة الضرائب والمكوس فبلغت الحال بمصر والشام مبلغًا كبيرًا من السوء بسبب تخريب المدن، وهجر الحقول وتعطل الصناعة، وقد ابتليت مصر أكثر من مرة خلال الحروب الصليبية بالمجاعات التي كانت تودي بحياة الآلاف من المواطنين علاوة على بعض الأمراض الوافدة من أوروبا مثل الطاعون والحميات. كل هذه المصائب تركت على الناس روح الحزن والاستسلام واللجوء إلى الله يدعونه أن يكشف الضر، ولكن الأيوبيين حاربوا رجال الدين وشجعوا شعارات الجهاد بالنفس والمال، وكان الأدب والثقافة عمومًا يتأرجحان مع سير المعارك. ولطول هذه الحروب حدث اختلاط شديد -وخاصة في الشام- بين الصليبيين والمسلمين مما أفاد الطرفين، فلم يبخل بعض الكُتاب المسلمين من ذِكر بعض مناقب الصليبيين مثل ابن جبير، وشاع

الكثير من القصص. وكان لظهور نساء الفرنجة في ساحات القتال أثر على المسلمين. وانعكس ذلك على الأدب حيث نرى البعض يهاجم سفور النساء وتبرجهن، في حين أن بعضًا آخر مدحوا صمودهن في الحرب وقتالهن وتحملهن المسئولية.

أما الناحية الاجتماعية، فلم يَعْتَرِهَا الكثير من التغير؛ فالأمراء والسلاطين، ومن حولهم مجتمع الصفوة من العلماء ورجال البلاط وكبار التجار يسيّرون أمور الدولة، والشعوب تدفع الضرائب، وتزرع وتسمع قصص الحروب الصليبية وقصص الملوك وقليلًا ما يتذمرون. نشطت التجارة والصناعة في القرن الرابع عشر بعد انتهاء الحروب الصليبية الكبيرة، وانتشرت الوكالات الكبيرة في المدن. أما الصناعات فكان لكل صنعة شيخ، ولها درجات من الحرفية وكان لشيخ الصناعة مركز اجتماعي؛ لأنه يمثل كل أفراد المهنة. أما الجيوش فكان عمادها كما ذكرنا سابقًا العنصر الكردي والتركي في مصر والشام. ولم تشترك الشعوب في العمليات الحربية إلا في بعض المعارك مثل معركة المنصورة، وكذلك في دمياط، وقد كانت مصر والشام في عهد الدولة المملوكية من أغنى الأقطار الإسلامية، وكان للدولة كثير من الصِّلات التجارية مع أوروبا وخاصة مع البندقية. فقد كان يمر بمصر أحد طرق التجارة العالمية الكبرى، من الهند إلى البحر الأحمر إلى السويس، فالقاهرة ثم موانيء البحر المتوسط. كما كان يمر بالشام الطريق العالمي الآخر الذي يصل الهند برًّا عبر بادية الشام ثم نفوذها إلى أوروبا.

الحركة العلمية:

توقفت الحركة العلمية في أثناء الحروب الصليبية في فتراتها الأولى لمدة قرن تقريبًا، ولكنها عادت لشأنها القديم خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر وحتى الخامس عشر؛ فقد ظهر أبو الحسن علي ابن النفيس في دمشق في أواخر القرن الثالث عشر الذي اكتشف الدورة الدموية وألَّف كتاب شرح القانون. كذلك خليفة ابن أبي المحاسن الحلبي 1256م الذي ألَّف كتاب الكافي

في طب العيون وإجراء عملية الكتراكت، كذلك صلاح الدين بن يوسف من حماة 1296م الذي ألّف كتابًا في طب العيون وأسماه «نور العيون». كما ظهر الشيخ أبو الفدا الذي ألّف «المختصر تاريخ البشر»، وهو كتاب في الجغرافيا والتاريخ، وهو من حماة أيضًا (1273 - 1331م) وكثيرون غيرهم من مصر والعراق.

وفي أوائل القرن الخامس عشر ظهر العلّامة العالمي - كما يعترفون به حتى الآن - ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع بلا منازع، والمؤرخ المنهجي المتوفى عام 1406م. وفي أواخر القرن الخامس عشر ظهر أحمد بن ماجد النجدي الذي ألّف موجزًا في الملاحة النظرية والعملية، وهو الذي قاد سفينة فاسكو دجاما من إفريقيا إلى الهند وليته ما فعل!؛ فقد كان اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح وبالًا على العالم الإسلامي ظهر أثره في القرن السادس عشر، وخاصة بالنسبة لمصر والشام، وكان له أثر كبير في التدهور الاقتصادي والاجتماعي فيهما، علاوة على العزلة التي فرضها تحول طرق التجارة العالمية وخاصة بعد تحول مصر والشام في أوائل القرن السادس عشر إلى ولايات عثمانية.

التعليم:

أخذت مصر بنظام المدارس النظامية المختصة منذ العهد الأيوبي. وأول من أنشأ المدارس المنتظمة الوزير السلجوقي نظام الملك. وسار على هذا النهج الأيوبيون ومن بعدهم المماليك، وقد ساعد على ذلك في العصر المملوكي فرار كثير من العلماء والمدرسين من بغداد بعد دمارها على يد المغول، الأمر الذي تكرر في نهاية القرن الخامس عشر بالنسبة لعلماء الأندلس بعد سقوط غرناطة.

التجارة والصناعة:

تخللت الحروب الصليبية الطويلة هدنات طويلة الأمد، جرى في أثنائها اتصالات تجارية وشخصية بين المعسكرين: الإسلامي والصليبي مما أفاد

الأحوال الاقتصادية للطرفين، فمثلًا كان في ميناء الإسكندرية في شتاء سنة (1187 - 1188م) في أَوْج مجد صلاح الدين الأيوبي سبع وثلاثون سفينة تجارية قادمة من الجمهوريات الإيطالية (جنوة - وبيزا - والبندقية) وغيرها من الدول الأوروبية. ومن المعروف أن أعداد السفن تكون أقل ما يمكن في الشتاء. ومعنى ذلك أن عدد السفن على مدار العام أكبر بكثير من هذا الرقم. ورغم محاولة البابوية منع التعامل مع المسلمين، وخاصة بالنسبة للمواد الاستراتيجية كالحديد والأسلحة والأخشاب، والتهديد بحرمان أي شخص يخالف ذلك من الكنيسة - فإن كثيرين، وخاصة من التجار البنادقة، احتجوا على ذلك فخفف البابا الحظر عام 1215م ليكون بالنسبة للأسلحة فقط. وفي هذه السنة بالذات اجتاز الإسكندرية ثلاثة آلاف تاجر غربي لاتينى. وارتبطت الجمهوريات الإيطالية بمصر والشام في اتفاقيات تجارية عديدة قام بها السفراء. كما أن التجار الأجانب كانوا يقيمون في فنادق خاصة بهم؛ إذ كان للبنادقة في الإسكندرية فندقان FONDACI وكذلك دمشق والشام، وقد قامت الصناعة في مصر على المنتجات الزراعية أساسًا ثم على المواد الخام المستوردة مثل المصنوعات الحديدية التي تنتجها تنيس، ودلاص. كما أن المنسوجات الحريرية كانت تعتمد على حرير الشام، وكان النسيج يعد من أهم الصناعات، كذلك استخراج الزيوت والصابون وصناعة السكر. أما في الشام فكانت صناعة النسيج القيم والسجاجيد. وقد تعلم الأوروبيون صناعة الأقمشة الفاخرة من الشرق، فمثلًا قماش الموسيلين المعروف حاليًا اسمه مشتق من الموصل.

وفي باريس على أيام فيليب الجميل أُنشئت أولى مصانع السجاد الشرقي، وكذلك الصباغة وتثبيت الألوان باستخدام الشبة. وعرفت البندقية صناعة الزجاج الملون. ومن الشرق تعلم اللاتين صناعة الورق والحلوى والمنسوجات الكتانية. وأول من أدخل صناعة السكر في أوروبا الإمبراطور فريدريك الثاني وذلك سنة 1239م؛ حيث جاء بالصنَّاع من الشرق وأنزلهم بصقلية، وأستمر الحال في نقل التكنولوچيا الشرقية إلى الغرب في القرن الثالث عشر والرابع

عشر، عصري بواكير النهضة الأوروبية.

الأحوال الاجتماعية:

زخرت القاهرة بالدور الضخمة، والمنازل الرحبة، والأسواق الممتدة. وكان معظم مبانيها بالآجر، وجوامعها ومدارسها أرضها مفروشة بالرخام، والجدران بالكلس ناصع البياض. والدور مرتفعة حتى أربعة طوابق أحيانًا مع الاهتمام بالصرف الصحي، فقد كان أرباب الدور يحرصون على حفر المرحاض حتى يصل إلى المياه الجوفية فلا يحتاج إلى الكسح. وكانت القاهرة ومعظم المدن الإسلامية مليئة بالحمامات الفاخرة. وكان لوظيفة المحتسب أهمية خاصة في تنظيم الحياة الاجتماعية في مصر والشام، فمن مسئولياته مثلًا مراعاة ما ينبغي أن تكون عليه الأسواق في الارتفاع والاتساع، وأن يكون بجانبي السوق إفريزان يمشي عليهما الناس، كذلك مراقبة بروز مصاطب الدكاكين على نسق الشارع، وتوزيع دكاكين الحرف بما يناسب طبيعة الحرفة، فمن كانت صناعته تحتاج إلى استخدام النار كالحدَّاد والخبَّاز يجب أن تكون بعيدة عن محلات البزازين (الملابس). كذلك كانت مراقبة الأسعار إحدى مهامه الأساسية.

أوروبا في أثناء الحروب الصليبية:

كانت أوروبا أثناء الحروب الصليبية الكبرى تعاني في الداخل صراعًا بين السلطات الزمنية والبابوية. وقد شغلت كثيرًا بصراع الإمبراطور الألماني فريدريك باربروسا والبابا. وقد انتهك الجيش الألماني حرمة كنيسة القديس بطرس ولاذ البابا إسكندر الثالث بالفرار. غير أن مقاومة مدينة ميلان القوية للجيش الإمبراطوري جعلت الخصوم يتفاوضون عام 1177م. والجدير بالذكر أن الحكم في ألمانيا كان بالانتخاب بين الرؤساء القبليين، أما في إيطاليا فكان الجمهوريون لا يحترمون كثيرًا الإمبراطور الألماني مما أثر فيما بعد في خَلْق النهضة الأوروبية؛ فقد ظهر اسمان ملآ تاريخ ألمانيا وإيطاليا ألا وهما: أسرة الجولفيين، وأسرة الهوهنشتاوفن أو الجبلنيين. وصار الاسم الأول يطلق على

كل دوقيات سكسونيا في شمال ألمانيا، والآخر على دوقيات الجنوب الغربي، كما صار اسم الجولفيين مرادفًا لأنصار البابا، والجبلينيين مرادفًا لأنصار الإمبراطور. وقد امتد تأثير هذين الاسمين إلى ميادين الشعر السياسي، فكان دانتي مؤلف الكوميديا الإلهية من الجبلينيين كما أن بترارك كان من الجولفيين، واستمر هذا التقسيم الحزبي حتى أوائل القرن السادس عشر عندما استولى لويس الثاني عشر ملك فرنسا على مدينة ميلان. وكانت حروب صار فيها الفرنسيون ومؤيدوهم من الإيطاليين يمثلون حزب الجولفيين، كما صار الإمبراطور مكسيمليان ومؤيدوه من حزب الجبلينيين. وحتى المدن الإيطالية فبعضها وقف مع البابوية والبعض مع الإمبراطور. وانشغلت شعوب أوروبا بسؤال حول مسألة «السمو» أيهما أسمى الإمبراطور أم البابوية؟ وكأنها قضية شعبية. ينبغي أن تلاحظ هنا أن مثل هذه الحالة لم تحدث في العالم الإسلامي حتى عندما كانت الخلافة العباسية في العصر العباسي الثاني صورية، وكان الأمر بيد الملوك المحليين، فقد اكتفى الخليفة العباسي بالرئاسة الروحية وكان يخطب له في المساجد إلى جوار الملك أو السلطان. كما أن وجود نوع من الانتخاب للأباطرة من أمراء القبائل أمر لم يعرفه أيضًا العالم الإسلامي، كذلك المدن الجمهورية. مما وسع اشتراك الشعوب الأوروبية في صراعات السلطة، وكأنها مدعوة لتحديد موقفها، الأمر الذي لم يحدث بصورة ظاهرة في العالم الإسلامي.

وربما كان التحزب الأول خلال الحروب الصليبية هو الذي وجّه الاهتمام لدراسة القانون والمنطق واللاهوت وما تبع ذلك من ظهور تجمعات من المتعلمين أشبه ما تكون بالنقابات في بولونيا وغيرها من المدن الإيطالية. كما تكونت نقابة للمدرسين في باريس. وقد أثر الفقه الروماني بعد إحيائه في جميع أوروبا وبدرجة أقل في انجلترا؛ حيث لم يتلق الإنجليز المشتغلون بالقانون علومهم في الجامعات التي كانت تدرس القانون المدني والقانون الكنسي، بل ابتدع الإنجليز مدارس مِهْنية، وأسموها دار الحقوق وقد لصق الاسم بهذه المدارس منذ القرن الرابع عشر Inns of Court.

وقد اتفق المتعلمون أو اصطلحوا على أن تكون اللغة اللاتينية هي لغتهم في غرب أوروبا، وبدأ إنشاء الجامعات، حتى يمكننا القول إنه ما من مدينة إيطالية في القرن الخامس عشر إلا كان بها جامعة، هذا علاوة على الجامعات القديمة في باريس وأكسفورد وكمبردج التي انشئت في القرن الحادي عشر والثاني عشر والرابع عشر على الترتيب. وعقب انتهاء الحروب الصليبية الكبيرة وفي أواخرها حدثت حركة كبيرة لإحياء العلوم بأعمال الترجمة من اليونانية إلى اللاتينية، وحركة أكبر للترجمة من العربية إلى اللاتينية، خاصة في مجالات: الطب، والكيمياء والرياضة. ولمعت أسماء كتب بعينها مثل: كتاب الحيوان للجاحظ، والقانون لابن سينا، وكتب زهر الإشبيلي في الطب، ورسالات ابن رشد في الفلسفة، والخوارزمي في الرياضيات، وابن الهيثم في نظريات الضوء، وأخيرًا ابن خلدون في القرن الخامس عشر وغير ذلك.

ولأن معظم هذه الترجمات حدثت في أثناء سيادة روح التعصب الديني الذي أثر على حيدة العلماء، فقد لجأ الكثير- ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا- من المترجمين إلى إنكار الإبداعات الإسلامية، خاصة أن علماء المسلمين في كتبهم كانوا يذكرون من أخذوا عنهم من اليونان، فكان الأوروبيون يسقطون أسماء العلماء المسلمين وينسبون ما ينقلونه ويترجمونه إلى من ذكره المسلمون من الإغريق وغيرهم بدافع التعصب. وقد أدى ذلك فيما بعد إلى انتهاء العلوم في غالب الأحيان إلى سلسلة أوروبية رومانية إغريقية. وقد كان عملهم هذا تزييفًا مشينًا للتراث الإنساني الذي خلفه المسلمون وأضافوا إليه الكثير. ولولا أمانتهم العلمية لغاب عن التراث الكثير من أسماء الأقدمين.

كان ذلك في أثناء القرنين الثالث عشر والرابع عشر، حيث زاد عدد المتعلمين إلى حَدٍّ ما، ثم جاءت بواكير عصر النهضة في القرن الخامس عشر والسادس عشر فوجدت سندًا تستند إليه وتضيف إليه بناء جديدًا.

الفصل الثاني: عصر النهضة الأوروبية

- القسم الأول: ظروف بواكير عصر النهضة والإصلاح الديني في أوروبا.
- القسم الثاني: أوروبا والعالم في القرنين السادس عشر والسابع عشر.
- القسم الثالث: أوروبا اللاتينية في عصر النهضة.
- القسم الرابع: الثورة الصناعية في أوروبا.
- القسم الخامس: الاستعمار الأوروبي في القرن التاسع عشر.

القسم الأول: ظروف بواكير عصر النهضة والإصلاح الديني في أوروبا

يُعد القرنان الرابع عشر والخامس عشر بداية حركة إحياء العلوم التي مهدت لعصر النهضة، حيث برزت على يد بترارك الشاعر الإنساني الإيطالي فكرة أن ثمة عصرًا حديثًا قادم عقب عصر وسيط، وقد استطاع بترارك الذي كان يرى أن البربرية قائمة مستمرة منذ شرعت الإمبراطورية الرومانية في قتال البرابرة، واستطاع بحسه المرهف- أن يستشرف تباشير عصر جديد، فقال:

(إن نوم الغفلة هذا لن يدوم إلى الأبد فعندما تتبدد طبقات الظلام تستطيع ذرياتنا أن تعود ثانية إلى ذلك التألق النقي السالف). وهو يقصد هنا مجد الإمبراطورية الرومانية المقدسة. ولا ننسى أنه كان من حزب البابوات متشبعًا بأفكارهم.

ولابدّ من الإشارة إلى وجود خلافات في الرأي حول تحديد نهاية العصور الوسطى في أوروبا التي ظلت النظرة إليها على أنها عصور مظلمة فترة كبيرة إلا أن هذه النظرة قد تغيرت بعد فهم ومعرفة الإنجازات الثقافية في هذه المرحلة، ولذلك اختلف المؤرخون في تحديد نهايتها؛ فالبعض يعتقد أن نهاية القرن الثالث عشر قدمت لمرحلة جديدة من القرن الرابع عشر وحتى الثامن

عشر فيما يسمى بمجتمع ما بعد الاقطاع وانتهاء السيطرة الدينية للكنيسة، والبعض يعتقد أنها تمتد حتى القرن السابع عشر حيث بدأت الثورة العلمية، وآخرون يرون أن الإصلاح الديني هو بداية العصور الحديثة. غير أن غالبية المؤرخين يرون أن أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر قد شهدت تغيرات حاسمة على المستوى الداخلي في أوروبا وعلى المستوى العالمي، فالإصلاح الديني 1483م، وطَرْد المسلمين من إسبانيا يناير 1492م، واكتشاف طريق الهند عن طريق الدوران حول إفريقيا 1498م، واكتشاف أمريكا بواسطة الإسبان أكتوبر 1492م، وهي تغيرات حاسمة، لذلك يمكننا القول إن العصور الوسطى انتهت في أوائل القرن الرابع عشر، ثم بدأت مرحلة بواكير البو الإعداد لعصر النهضة حتى نهاية القرن الخامس عشر ثم عصر النهضة «الرينسانس» من القرن السادس عشر حتى نهاية القرن الثامن عشر، ثم العصر الحديث عصر الثورة الصناعية الكبرى من نهاية القرن الثامن عشر حتى الآن.

ففي أوائل القرن الرابع عشر، ضعفت البابوية أمام الأفكار المناوئة لها وأصبحت تابعة للسلطة الزمنية، مما أتاح فرصة لإحياء العلوم حتى نهاية القرن الخامس عشر، لذلك يمكننا الادعاء بأن الحروب الصليبية الكبيرة قد أنهت العصور الوسطى في أوروبا وزعزعت مركز البابوية، وأتاحت الفرصة لظهور الأفكار العلمانية مع حركة إحياء العلوم.

تغير المدارك الثقافية:

كان الأوروبيون طوال العصور الوسطى ينظرون إلى الماضي بإحساس غامر بالحنين إلى عالم اليونان والرومان الكلاسيكي المفقود. وكان هذا الحلم من أهم العناصر الديناميكية الخلَّاقة في الثقافة الأوروبية؛ فقد قامت أكثر من محاولة للنهضة في القرن التاسع ثم مرة أخرى في القرن الثالث عشر. ثم شهد القرن السادس عشر ازدهار الفن المعماري والتصويري وظهور عباقرة مثل جورج فازاري الإيطالي (1511 - 1574م) الذي ترجم سير الفنانين الإيطاليين،

وكان يدعي أن مرحلة النهضة الفنية بدأت بأعمال المعماري بروفللستشي (1377 - 1446م) والمصور ماسيشيو (1401 - 1428م).

أما الإنجاز العلمي الكبير في القرن السادس عشر، فكان موضوع دوران الأرض حول الشمس للعالم كوبر نيكوس، وفي مجال الموسيقى اقترب التدوين الموسيقي من صورته الحديثة التي يُكتب بها الآن.

كما قام الفنانون الإيطاليون في القرن الخامس عشر بتصوير رسم المنظور بإبراز الموجودات بشكلها كما يبدو لعين الرائى إذا ما نظر إليها من زاوية بعينها. وأهم الابتكارات ذات الأثر هو اختراع آلة الطباعة في منتصف القرن الخامس عشر، واستثمارها في القرن السادس عشر، واستخدام تكنيك الكليشيهات في إعادة طبع الصور، ويُعد ذلك ثورة في مجال المعلومات؛ حيث أمكن نقل المعرفة والأفكار إلى عدد أكبر بكثير من ذي قبل.

البنية السياسية الأوروبية قبيل عام 1500م:

لم يكن استعادة الوحدة السياسية لأوروبا كما كانت في عصر الإمبراطورية الرومانية ممكنًا رغم وجود بعض الوحدات السياسية الكبيرة إلى حد ما، مما أتاح لملوك هذه الفترات تعزيز بلادهم بإيجاد عدد كاف من الرجال المهرة داخل حدودها، وتحسين نظم الحكم، ودفاعاتهم الحربية. ولكن الاختلاف الثقافي والسياسي ظل قائمًا بين كيانات أوروبا السياسية الكبيرة وحائلًا دون الوحدة السياسية.

الحالة الاقتصادية:

ابتداء من عام 1500م دخلت أوروبا عهدًا من النماء إذ غدت عدوى الطاعون أقل حدوثًا، وأخذ السكان يتزايدون وخاصة في المدن، واتسعت التجارة، واغتنى أصحاب السفن وأصحاب المصارف. وقد جاء هذا النمو عقب الانكماش الاقتصادي في نهاية العصور الوسطى (1300-1400م) ومع التحسن البطىء

فـي طـرق الزراعـة واسـتحداث آلات أجـود ومهارات اسـتطاع الأوروبـيون استخدامها بصورة أفضل، وقد أدى ذلك إلى إنتاج مصنوعات أكثر وأحسن، أهمها، بناء السفن السريعة والكبيرة، وتنظيم التجارة، والمعاملات المالية على نحو أكثر دقة. وقد قلَّل ذلك من تكلفة النقل. كما تعرف التجار على إمساك الدفاتر، وتحـرير الحـوالات وقـد سـاعد ذلك مختلف أنحاء القارة في القدرة تدريجيًّا على أن تجد داخل حدودها معظم ما تحتاجه من كفايات. كما أن استخدام اللغة اللاتينية كلغة مشتركة بين المثقفين ساعد على وجود الروابط الدولية بين صفوة المحترفين.



Map 2.1 Europe in the 16th century, showing composite states

وقد أدى ذلك إلى إنهاء النظام الإقطاعي الذي قام على ملكية الأرض وخدمة المـالك، وحـل محله علاقـات قائمـة علـى العقـود والنقـود أو علـى التحويـل

والوكالة، وهي علاقات أكثر مرونة وقابلية للتكيف من العلاقات الإقطاعية القديمة.

الصراع الكنسي:

تمكنت البابوية في روما من إقامة تنظيم مستقل عن الإمبراطورية المقيمة في القسطنطينية تدعمها مجموعة من الأفكار التي تصون الكنيسة من تدخل القوى العلمانية. وذلك بخلاف الكنيسة الشرقية الخاضعة للإمبراطور، وكذلك الكنيسة الروسية التي اعتنقت المسيحية على يد الكنيسة اليونانية، وسادت فيها نفس تقاليد الكنيسة البيزنطية.

أما في الغرب فقد حدثت صراعات هائلة بين البابوية والسلطة الزمنية، ودفعت هذه الصراعات كلا الطرفين: الكنيسة، والدولة إلى تبرير مزاعم التقدم والاستعلاء التي كان يدَّعيها كل طرف في مواجهة الآخر، والتي كانت تصاغ بطريقة منطقية عقلانية. وكان يُبذل في ذلك جهد كبير ودقة ملموسة. وكان هذا تطورًا فريدًا من نوعه في العالم سواء بالنسبة للعالم المسيحي الآخر (البيزنطي) أو العالم الإسلامي، وقد نتج عن ذلك تقدم التحليل العقلي تقدمًا كبيرًا حتى على المستوى الشعبي. وكان هذا أحد أعمدة النهضة الأوروبية اللاتينية.

وفي عام 1453م، عندما سقطت الإمبراطورية الرومانية الشرقية فُتحت القسطنطينية على يد السلطان الفاتح محمد الثاني وأحدث هذا الأمر صدى مدويًّا في كل أوروبا، وبعد ذلك بسنوات قليلة عبر نفس السلطان الفاتح إلى الساحل الإيطالي في إترانتو معلنًا عزمه على فتح روما ولكن وفاته حالت دون ذلك. ولم ينس الأوروبيون أن البابوات هم الذين أضعفوا القسطنطينية وخربوها في أثناء الحملة الصليبية الرابعة بتوجيه من البابا أنوسنت الثالث واحتلوها خمسين عامًا. وماذا كانت نتيجة الحروب الصليبية عندما أسلمت الملوك والشعوب الأوروبية زمامها للكنيسة؟ أليس الفشل وخراب البلاد باسم

الدين! كانت هذه وجهة نظر العلمانيين الذين كانوا يصارعون السلطة الدينية ويعملون على التحرر منها تمامًا. وأظن أن سقوط القسطنطينية قد أثار فكرتين بارزتين:

الأولى: تذكير الأوروبيين بالتهديد الإسلامي في غرب القارة الذي ما زالت بقاياه موجودة في مملكة بني الأحمر في غرناطة، فزادت الحمية الدينية ضد المسلمين.

والثانية: هي أن قيادة السلطة فشلت في إدارة الصراع ضد الأعداء، وعليها أن تتنحى للعلمانيين.

وظهر مارتن لوثر 1483 - 1546م رافعًا شعار الحرية المسيحية، وهو شعار مهذب للدعوة للتحرر من قيود البابوية، وكان أهم إنجازات مارتن لوثر ترجمة الإنجيل إلى الألمانية التي تعد الخلق الحقيقي للغة الألمانية الأدبية. وقد شرح لوثر معتقداته الدينية المناقضة للكنيسة الكاثوليكية والمتحدية لبابا روما. وقد ارتبطت حركة الإصلاح الديني بالمصالح السياسية والاقتصادية فقد كان بعض الأمراء والمدن الألمانية يزكون روح العداء ضد روما من أجل علمنة أملاك الكنيسة أو لقهر أعدائهم السياسيين. وقد ظهرت حركة إصلاح ديني مضادة «للبروتستنت» المذهب الجديد المتحرر، وهي حركة إصلاح ديني كاثوليكي أفلحت في إنقاذ الكنيسة الكاثوليكية من التفكك الذي كان يهددها. وقد أضافت هذه الحركات ديناميكية أكبر وتفاعلات أوسع، شاركت فيها شعوب أوروبا جمعاء رغم الفظائع والضحايا التي سببها الإصلاح الديني وإنهاء عصر الخرافات. ولم ينسَ الأوروبيون ما حدث للعلامة جاليليو، وكيف عاملته الكنيسة عندما أعلن رأيه عن دوران الأرض، وكيف جثا على ركبتيه منكرًا ما قال وتائبًا عنه.

وهناك ما هو أفظع من ذلك فلم يكن الطريق للتحولات الاجتماعية في المجتمع الأوروبي مفروشًا بالورد بل من خلال مقاومة عنيفة من رجال الدين، ورجال

السياسة؛ فقد عانى الكُتَّاب والشعراء والفلاسفة والفنانون في بواكير عصر النهضة، في القرن الخامس عشر، اضطهادًا مريرًا على أيدى المتعصبين، فعلى سبيل المثال ظهر في مدينة فلورنسا بإيطاليا راهب قوي التأثير وشديد التزمت وله جمهور كبير من العامة وأنصاف المتعلمين اسمه «جيرولا سافونا رولا» أخذ ينَدِّد بالمفكرين والفنانين ويكفرهم، ويأمر أتباعه من الدهماء المفتونين به فيهاجمون البيوت ويصادرون التحف واللوحات والكتب الأدبية الفلسفية كمؤلفات أفلاطون وأرسطو وروايات بوكاشيو وقصائد بترارك، ويجعلونها أكوامًا في الساحات العامة والميادين ويشعلون فيها النيران. وقد حَرَّمَ هذا الراهب الموسيقى، والرقص، والغناء، وخصص فرقة من أتباعه للتجسس على المواطنين وكشف عوراتهم ومعاقبة المخطئ منهم من وجهة نظره خاصة النساء المتبرجات أيضًا حسب تقديره، فكن يُجلدن في الميادين والأسواق. ومن الغريب والطريف أيضًا أنه أنشأ بنكًا لإقراض الناس بلا فوائد سماه بنك التقوى. وما زال في الشرق مَن يكرر صورة هذا الراهب في نهاية القرن العشرين، وكأن المتعصبين المرضى الموجودين في كل الأديان تخطر لهم نفس الأفكار، لا لشيء إلا للتسلط على الغير باسم الدين والتقوى.

ولم تستمر هذه المقاومة بهذا العنف كثيرًا أمام التحولات الكبيرة، وإن كانت لم تختف تمامًا؛ فقبيل الثورة الفرنسية في القرن الثامن عشر تم إحراق رسائل فولتير الفلسفية، كذلك صادرت الحكومة الفرنسية مؤلفات جان جاك روسو في التربية، بل إنها أمرت بالقبض عليه؛ مما دفعه للهرب إلى انجلترا.

الإصلاح الديني:

إن التراث الديني جزء مهم من حضارة الإنسان.. ولكن قد يحدث أحيانًا خلل في حجم هذا الجزء المهم جدًا بالنسبة للأجزاء المكوِّنة لحضارة الإنسان سواء بالزيادة أو النقصان، وينعكس ذلك دائمًا بالسلب على المجتمع الذي يعيش هذا الخلل. ففي أوروبا وقبل الإصلاح الديني كان هذا الجزء يملأ حياة الإنسان العادي بنسبة كبيره جدًا، فحدث التعصب والإرهاب الفكري والمادي وإثارة

المشاعر الدينية. وعادة ما يكون ذلك في عصور الاضمحلال، أما في عصور القوة فنجد الإيمان العميق مقرونًا بالتسامح، واحترام معتقدات الآخرين، ومثال ذلك عصر الخلافة الأموية في الأندلس حتى القرن الحادي عشر الميلادي. وثمة مشكلة كبرى يسببها التراث الديني (وليس الدين نفسه) عندما يبدو في بعض أجزائه متناقضًا في نظر الإنسان العادي، سواء كان هذا التناقض ظاهريًّا أو حقيقيًّا نتيجة شوائب مدسوسة على التراث الديني، فالإنسان العادي العميق الإيمان القليل الثقافة سوف يتوقف عند هذا التناقض لفترة قصيرة مبلبل الفكر ولكن ما يلبث أن ينفض يده من المسألة برمتها مفضلًا الانقياد لرأى الآخرين من رجال الدين غير المؤهلين الذين قد يحلو لهم تعقيد الأفكار وتضخيم الشروح والإضافات؛ ليؤكدوا أهميتهم في عيون العامة. وبتكرار ذلك يتعود الإنسان العادي على عدم احترام عقله رويدًا رويدًا، ويتحول إلى متفرج ليس بالنسبة للمسائل الدينية فحسب بل الدنيوية أيضًا. ولا أريد أن أدخل في هذا الموضوع الشائك وإنما أشير إلى أن شغل العقل العادي بكثير من المسائل الدينية يرهقه أولًا، ثم يصير الاستسلام صفة غالبة عليه. فإذا عدنا لنجاح حركة الإصلاح الديني في أوروبا التي مهدت لها حركة الإنسانيين في القرن الرابع عشر نجد أن الإصلاحيين ومشجعيهم تشبثوا بالعقل والمنطق وحرية الإنسان في محاجاة الكنيسة وسلطتها على الناس. وقد ردَّت الكنيسة بإصلاح ديني كاثوليكي مضاد، يتضمن بعض التراجع عن مكانتها السابقة، الأمر الذي سبَّب استمرارها ومنع هزيمتها تمامًا أمام الإصلاحيين. وفي أثناء ذلك الصراع قدم كل طرف أفضل ما عنده من أسانيد منطقية للشعب الأوروبي. ورغم كل التجاوزات والضحايا فإن الشعوب هي التي استفادت باعتيادها على التحليل العقلي الذي خوطبت به من كلا الطرفين. ووجد الإنسان العادي نفسه مشاركًا وليس متفرجًا. والحقيقة أن هذا الصراع لم يكن الدين نفسه داخلًا فيه وإنما كانت سلطة الكنيسة وسيطرتها محل النقد والجدل. وتحرير العقل من الهيمنة كان هو الهدف. ولك أن تتخيل أيها القارئ عندما انشغل عامة الناس في أثناء الصراع بين البابوات والملوك

في مسألة السمو أيهما أسمى من الآخر البابوية أم الإمبراطورية؟ التي يمكن ترجمتها إلى مسألة أخرى: الدين أم الدنيا، أو وجه آخر: هل نهتم بمشكلات الواقع المعاصر أم ننتظر مسئولية المسيح عندما يهبط؟.. وهكذا..

إن رجال الدين الكلاسيكيين بحكم دراساتهم الكهنوتية المغرقة في القدم كانوا يعيشون ما يقرءون من ثقافة، بل يكادون يتقمصون شخوص القديسين والرسل. وبلغ الأمر في عصور الظلام الأوروبي أنهم كانوا يعدون عدم الاستحمام فضيلة ودليلًا على الزهد، فقد جاء في تزكية أحد رجال الدين لأحد المناصب أنه لم يستحم في حياته إلا مرة واحدة. لذلك كانت وقفة الشعوب الأوروبية مع رجال الدين ضرورة لتحرير العقول والنفوس من الخرافة والسيطرة باسم الدين، خاصة عندما تتحول الدعوة الدينية لفرض صور معيشية في قرون سابقة. فتقليد السلف الصالح في أسلوب المعيشة أمر بالغ الخطر، حيث يجعل الإنسان يمشي في واقعه وعنقه ملوية إلى الوراء، وعادة ما يكون ذلك على حساب عمق الإيمان حيث ينشغل العقل الساذج بالشكل فقط دون الجوهر، فقد حدث في الغرب في العصور الوسطى أن كانت كل الأمور الدينية والدنيوية في أيدي الكنيسة متمثلة في البابا والقساوسة والرهبان. وذلك على عكس الكنيسة في الإمبراطورية الشرقية التي كانت تخضع للإمبراطور الذي يقيم في القسطنطينية.. وأدى استقلال بابوات روما إلى تمكنهم من إقامة تنظيم مستقل تدعمه مجموعة من الأفكار اللاهوتية التي تحمي الكنيسة من تدخل القوى الأخرى: أمنية أو علمانية. وفي عهد البابا أنوسنت الثالث (1198 - 1216م) بلغت البابوية أقصى قوتها حتى لقد قال هو إنه لا خلاص لإنسان في العالم ما لم يخضع للبابا، فأنا قيصر وأنا الإمبراطور الحقيقي صاحب السيادة على جميع أمراء الأرض.

إن استقلال الكنيسة عن كل السلطات، وطاعة الناس العمياء للكنيسة ورجالها، ونظرة الناس لها كشيء مقدس يعلو على النقد وسلطة العقل جعل الكنيسة تفرض سلطانها وتتدخل بين المرء وربه!، وتصادر الأفكار وتجارب العلم، وتقف

حجر عثرة في طريق التنمية والتقدم؛ كل ذلك من أجل حماية نفسها ومركزها، وحرصًا منها ومن رجالها على الثروات الهائلة التي كانت تستحوذ عليها بكل الوسائل، وكذلك على المناصب الهامة التي كانوا يشغلونها في الكنيسة أو الدولة. أما عن التدين فكان رجال الكنيسة أبعد ما يكونون عنه؛ لا يهتمون إلا بظواهره من دون جوهره ولبه، ولا يحثون الناس إلا على اقتناء مخلفات القديسين والرسل وصورهم والحج إلى مدافنهم، وتعذيب الناس لأجسادهم وتلاوة الأدعية في داخل الكنيسة باللغة اللاتينية التي كان يجهلها سواد الناس ولا يعرفون لها معنى، وكان فقراء الرهبان والقساوسة يعيشون عيشة الترف واللذات بفضل سيطرتهم على أملاك الكنيسة العظيمة، إلى جانب ما كانوا يجمعونه من بيع صكوك الغفران إلى الناس في مختلف الأمم الأوروبية. كانت تلك الصكوك في بادئ أمرهم عفوًا يمنح من البابا إلى المذنبين إذا ما اعترفوا بذنوبهم وندموا عليها فيرفع بذلك عقاب الكنيسة عن مشتري هذه الصكوك، ثم وجدت البابوية في عملية بيع الصكوك موردًا ضخمًا فتوسعت في بيعها، حتى أخذ الناس يعتقدون أنها تعفيهم من عقاب الكنيسة وعقاب الآخرة معًا، فصار الناس يشترونها من أجل موتاهم أيضًا كي تُغفر لهم ذنوبهم.

وفي أواخر القرون الوسطى، بدأت أوروبا تدخل في طور نهوض عظيم أدى إلى نشوء الحضارة الغربية التي ينعم الغرب بها الآن وإلى تكوين الدول الأوروبية التي لم تصبح أممًا مستقلة متميزة بعضها عن بعض إلا بعد أن نبذت الفكرة التي كانت تدعو في العصور المظلمة إلى جعل جميع الأقطار المسيحية دولة واحدة يسيطر عليها حاكمان: البابا والإمبراطور.

نشأت الحضارة الأوروبية الحديثة -كما أسلفنا- نتيجة لعصر النهضة (الرينسانس) وإن اختلفت آثار النهضة في البداية في شمال أوروبا عنها في الجنوب. وقد شجعت النهضة الناس على حرية النقد نتيجة لحركة إحياء العلوم، فاتجهت قوة النقد في جنوب أوروبا (إيطاليا) نحو نقد الآداب والفنون.. أما في الشمال التيوتوني (ألمانيا) فقد تناول النقد الأنظمة الدينية

والكنيسة؛ والسبب وراء ذلك هو أن المدنية الإيطالية أقدم من المسيحية. أما المدنية الشمالية فلم تأت إلا عن طريق المسيحية نفسها؛ لذلك انكبَّ الناس هناك على البحث عن أصول الدين ومراجعة كتب القديسين الأوائل؛ حتى يتبينوا حقائق دينهم وكشفوا فساد الكنيسة، ومخازي رجالها هادفين إلى العودة إلى مسيحية القرون الأولى عندما كانت الكنيسة لا تُعنى سوى بشئون العقيدة والدين. لذلك استولت الحركة البروتستنتية على عقول الناس قبل قلوبهم. وقد واكبت تلك الحركة سلسلة متكاملة من التحولات الاقتصادية، أفاد منها التجار ورجال المال الذين لم يكن بإمكانهم التعايش مع الطبقة الحاكمة الإقطاعية التي كانت تفرض الضرائب على التجار، وتتعاون مع الكنيسة على فرض أسعار ملائمة، وتحريم الفائدة على النقود باسم الربا؟ أما العامة فقد حققت عن طريق البروتستانتية إشباعًا كبيرًا لعواطفها الدينية والوطنية. وفي كتابات لوثر صدى لحب ألمانيا وتمجيدها وكراهية الأجانب؛ أي الإيطاليين فنراه يقول: «إن روما هي أخطر لص وأكبر سارق ظهر على سطح الأرض في الماضي أو المستقبل.. آه يا لبؤسنا نحن الألمان.. لقد خدعنا! ولدنا لنكون سادة ولكننا أجبرنا على أن نحني رقابنا تحت نير الطاعات، لقد حان الوقت لكي يكف الشعب التيوتوني المجيد عن أن يكون دمية في يد بابا روما». جاءت البروتستنتية لتدعم اللغة المشتركة والثقافة المشتركة والسلوك للجماعات ذات العصبية الواحدة التي نسميها أممًا، وحققت انفصالًا صريحًا وناجحًا عن الكنيسة الكاثوليكية، وصارت أحد المعالم الكبرى في تاريخ الغرب؛ إذ وقفت إلى جانب الحرية الفردية والحكم الذاتي الديمقراطي في حين كان الكاثوليك يقفون مع السلطة والامتيازات. وكان لوثر يصيح قائلًا: (مادام القسيس الكاثوليكي أصبح عقبة بين الإنسان والرب، فالواجب يقتضينا أن نتخلص من كل ما يشكل عقبة على هذا النحو، ليكن كل إنسان قسيس نفسه، وإنها لجرأة تبلغ حد الوقاحة حين يزعم أن الله العلي القدير يرضى بأن يتدخل جهاز تافه مثل الكنيسة في علاقته مع عباده.. علاوة على أن الله بسط نواياه ومقاصده واضحة في الكتاب المقدس الذي يستطيع كل إنسان أن يقرأه لنفسه

وبنفسه دون وساطة قسيس). وبهذا كانت البروتستنتية تستهدف إسعاد الفرد (ولكن وَفْق الأسلوب المسيحي بطبيعة الحال) بدلًا من استغراق الفرد في البحث عن تحقيق السعادة في السماء، وبذلك انتقلت الجهود للبحث عن الكمال على الأرض في مجال آخر هو الذي اصطلح على تسميته بـ «التنوير».



القسم الثاني: أوروبا والعالم في القرنين السادس عشر والسابع عشر

التحولات المهمة في القرنين السادس عشر والسابع عشر:

استقبلت أوروبا القرن السادس عشر بعد أن شعر الأوروبيون بأنهم ردّوا اللطمة لطمتين للعالم الإسلامي الذي صفعهم صفعة قوية بفتح القسطنطينية في منتصف القرن الماضي، أما اللطمتان فهما: طَرْد المسلمين من إسبانيا عام 1492م، واكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح عام 1498م لمحاربة التجارة الإسلامية، هذا علاوة على انتصار آخر لا علاقة له بالصراع التقليدي وهو اكتشاف القارة الأمريكية. وقد كان لهذا تأثير قوى في رفع الروح المعنوية، وروح المغامرة لدى الإسبان والرغبة في تعقب المسلمين المنهزمين حديثًا، وسرت روح صليبية جديدة بقيادة الأمير هنري الملاح الذي وهب حياته لمطاردة المسلمين على الساحل الإفريقي. والحقيقة أن ارتفاع الروح المعنوية العالية لدى الإسبان بما أنجزوه مؤخرًا أحدث نشاطًا ورغبة في المغامرة واقتحام الصعاب، فعندما تبتهج الشعوب وترتفع معنوياتها تتشوق لاستمرار النجاح. وقد حدث في هذه الفترة أن طوّر (مجرد تطوير) أحد المهنيين البرتغاليين في صناعة السفن هيكل السفن المستخدمة في ذلك الوقت؛ ليكون أكثر استطالة ورشاقة مما أعطاها سرعة أكبر وقدرة أكثر على المناورة؛ لتتفوق على الأنواع القديمة، علاوة على حملها عددًا أكثر من المدافع مما وفر للسفن البرتغالية سرعة وقدرة على المناورة مع زيادة كمية النيران. أحدث هذا التطور انقلابًا في عالم السفن البحْرية الشراعية. ولم تمض إلا أعوام قلائل إلا وكان الأسطول البرتغالي أقوى أسطول بحْري في العالم.



الملك الأشرف السلطان قنصوة الغوري
(1517 - 1501)

وباكتشاف أمريكا، أسس الإسبان والبرتغاليون إمبراطوريتين فيما وراء البحار

في العالم الجديد على أنقاض حضارتين كانتا على درجة أقل من التقدم؛ هما حضارتا: الأزدك، والأنكا من الهنود الحمر الأمريكيين. وكان التغلب عليهما سهلًا ووحشيًّا نظرًا للتفوق العسكري الكبير. أما انتصارات البرتغال في المحيط الهندي فكانت ترجع للتفوق في فنون الملاحة والقدرة على المناورة وعلى براعة وكفاءة المدفعية البحْرية. وقد حاول السلطان الغوري التصدي للبرتغاليين بحريًّا بالتعاون مع العثمانيين؛ فقد وصل البرتغاليون بأسطولهم إلى البحر الأحمر وعدن لقطع طرق التجارة الإسلامية المارة بمصر، وحاولوا عقد حلف مع الحبشة للتأثير على مصر وتحويل مجرى النيل، مما دفع السلطان الغوري إلى إرسال حملة بحْرية بقيادة أمير البحر حسين الكردي لمحاربة الأسطول البرتغالي واللحاق به وأنزل به فعلًا هزيمة كبيرة في صيف 1508م على شاطئ الهند الغربي قرب جاول Gaul، لكن هذا الأسطول نفسه هُزم في السنة التالية من الأسطول البرتغالي في معركة ديو البحْرية عام 1509 قرب سواحل الكوجورات. في هذه الفترة دبَّ الخلاف بين الدولة المملوكية في مصر والعثمانيين حول أسلوب مقاومة الإسبان والبرتغال بسبب رفض مصر الوقوف إلى جانب العثمانيين ضد الصفويين الشيعة، الأمر الذي انتهى بغزو العثمانيين لمصر عام 1517م، وإنهاء الدولة المملوكية المصرية، وانتقال مصر وممتلكاتها إلى الدولة العثمانية، وأصبحت مصر ولاية عثمانية. وقد أفاد ذلك البرتغال؛ حيث إن مصر المملوكية لم تكن دولة برية فقط كالدولة العثمانية في ذلك الوقت بل كانت لها خبرة بحْرية كبيرة. ومنذ ذلك الحين تصدت الدولة العثمانية منفردة للدفاع عن العالم الإسلامي، وبدأت في تكوين أسطول بحْري قوي لمنازلة البرتغال.

كان القرن السادس عشر عصر تكوين الإمبراطوريات، فمثلًا قام بابر سليل جنكيز خان من تركستان لفتح شمال الهند حيث أرسى حكم المغول هناك، كما أسس العثمانيون إمبراطورية ضخمة ضمت كل شبه جزيرة البلقان والشام ومصر والعراق، والجزيرة العربية، واليمن، وشمال إفريقيا عدا المغرب الأقصى، وبسطوا نفوذهم على البحر الأسود والقرم. وفي أواخر القرن السادس عشر قام

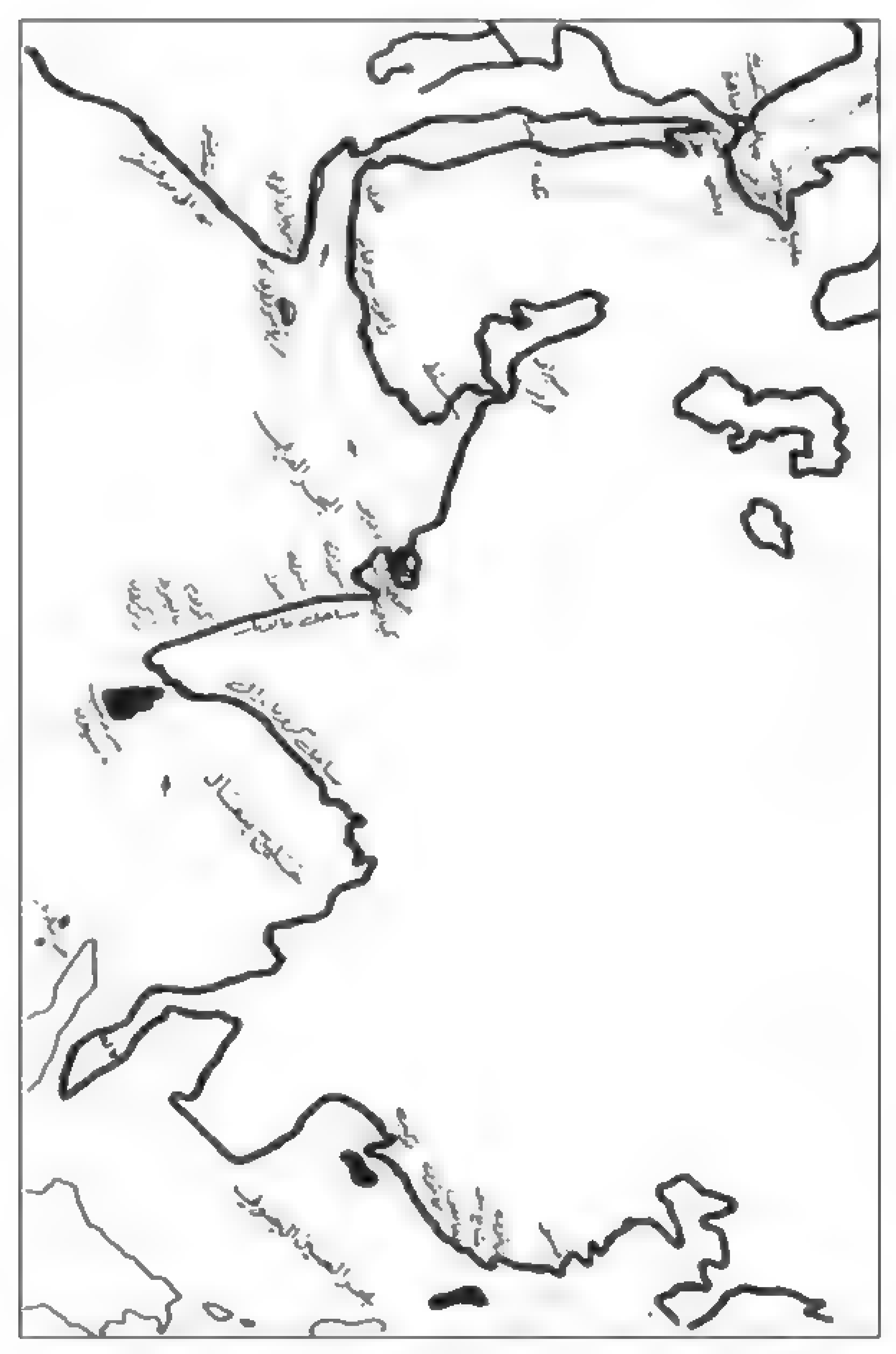
الروس بفتح وادي الفولجا حتى بحر قزوين. وبدءوا هجومهم الكبير من سيبريا إلى المحيط الباسفيكي. وفي الصين كانت أسرة منج قد كونت إمبراطورية ضمت الصين وفيتنام.

ولا يفوتنا أن نذكر أن التوسع الروسي كان في وادي الفولجا ضد التتار المسلمين.

وفي نهاية القرن السابع عشر، كانت القوى الأوروبية في تنافس واضح، وكانت السرعة التي يتم بها التقدم في أوروبا أكثر بكثير من سرعته في الحضارات الكبيرة الأخرى. كما أن حملات الاستكشاف الأوروبية أسهمت في نجاحات تكنيكية في مجال بناء السفن، والملاحة، والتنظيم السياسي، والتجاري، كما نشأت نظم تجارية دقيقة وإن كان أساسها العلاقات النفعية على عكس التجارة في العالم الإسلامي التي عجزت فيما بعد عن منافسة التجارة الأوروبية؛ لأن لها خصائص أخرى. فقد كان التجار المسلمون خاصة في إفريقيا وجنوب شرقي آسيا والهند هم الذين نشروا الدين الإسلامي وحببوه إلى السكان المحليين وصاهروهم إلى جانب ممارسة التجارة القائمة على النفع المتبادل، والخلق السمح في المعاملات. ومع اللين والتسامح ضعفت الحاجة للدقة؛ دقة التنظيم التجاري الصارم الذي تبنته أوروبا في عصر التحول الاقتصادي في القرن السادس عشر ولم تستطع العقلية الإسلامية التجارية والاقتصادية إدراك تغير لغة العصر في الاقتصاد، فجاءت محاولات التقدم دون المستوى اللازم لمنافسة الأوروبيين. وقد اتخذ الإسبان والبرتغاليون مواطئ أقدام على ساحل الهند وإفريقيا والجزيرة العربية والخليج العربي، وعقدوا اتفاقيات تجارية مع الحكام المحليين بهدف السيطرة التجارية، ولكنهم لم يحققوا نجاحًا كبيرًا مثل نجاحهم في إمبراطورياتهم فيما وراء البحار التي أنعشت أوروبا كلها بفضل الفضة من المكسيك وبيرو.. والحقيقة إن ما فعله الإسبان والبرتغاليون من أبناء الجيل المنتشي بفرحة النصر في الصراع ضد المسلمين غير المؤمنين بدين المسيح في شعوب القارة الجديدة -كان بشعًا؛ فقد ارتكبوا أبشع الجرائم

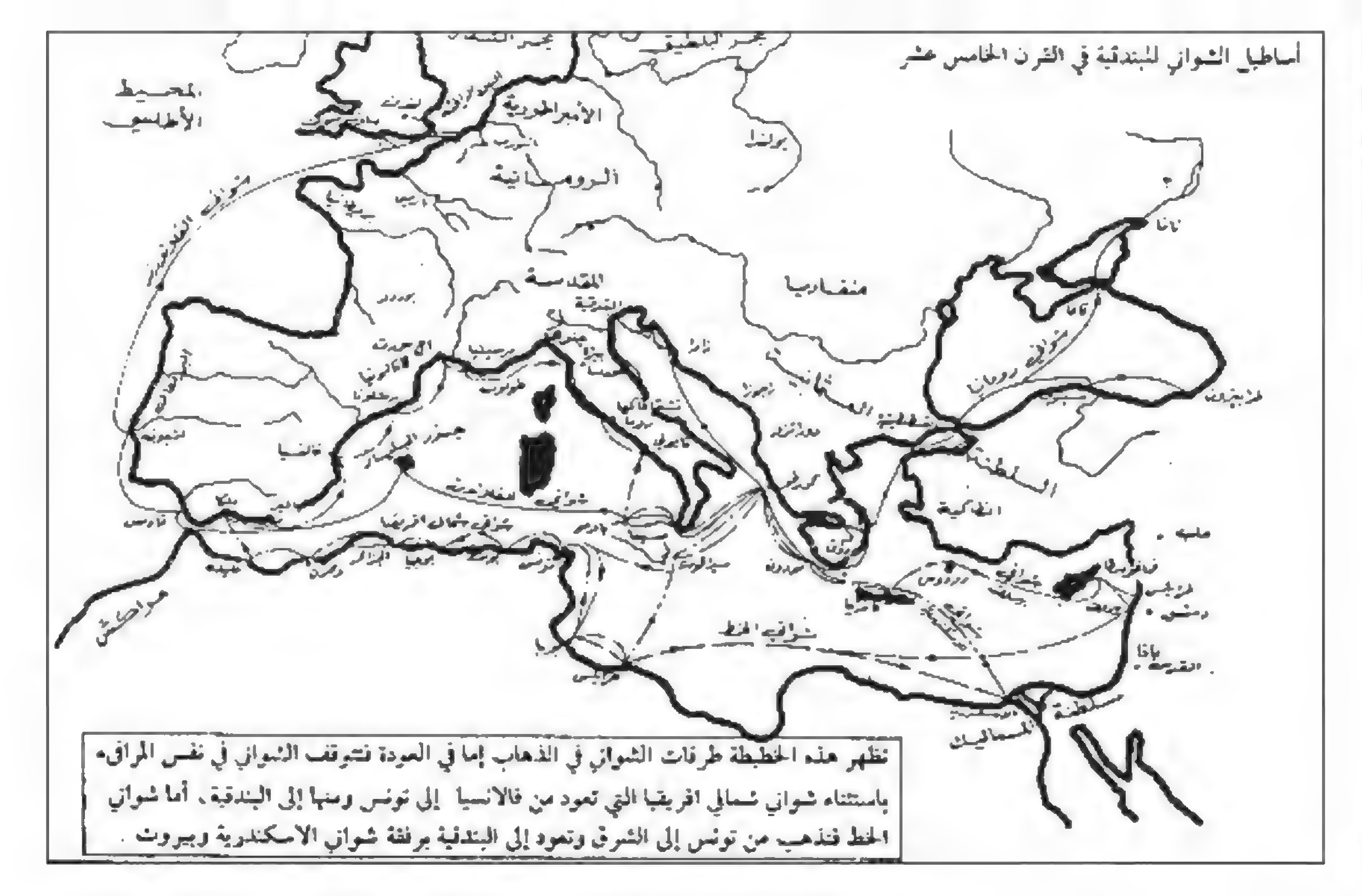
الإنسانية وعاملوا سكان أمريكا باعتبارهم وثنيين لا حقوق لهم وكانوا متعصبين، شأنهم شأن المسلمين المتعصبين للإسلام في الهند وإساءتهم معاملة الآخرين باسم الدين، وتعصب العثمانيين أحيانًا كدولة عسكرية تغلب عليها الصفة الدينية.

وقد انشغل العالم بالصراع العثماني البرتغالي طوال القرن السادس عشر والسابع عشر. ورغم طرد الاستعمار البرتغالي من العالم الإسلامي فإن طرق التجارة مع الشرق لم تعد كما كانت، مما أثر على الأحوال الاقتصادية تأثيرًا سلبيًا في مصر والشام.

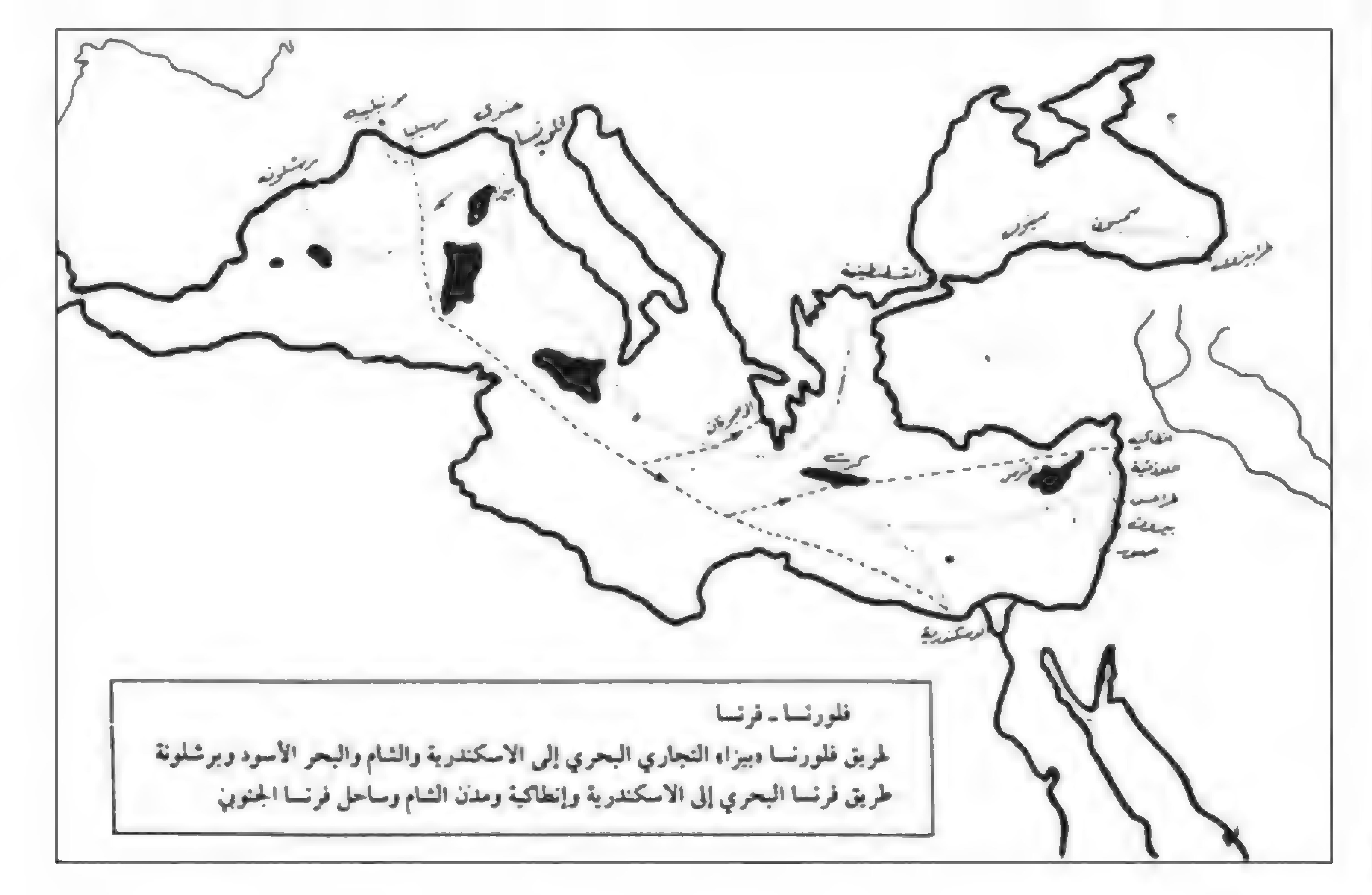


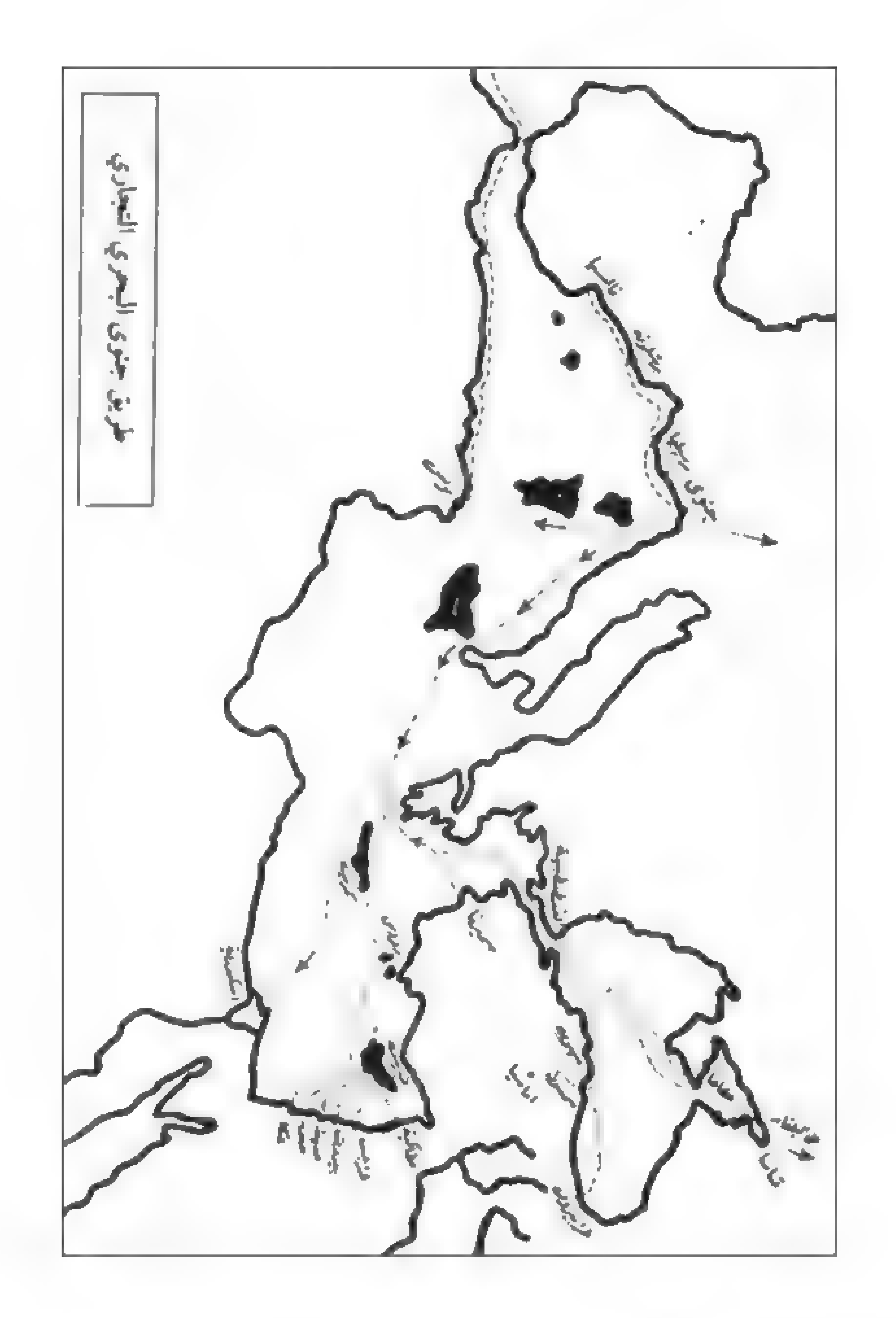
الطريق البحري الرابع من الصين والهند إلى الخليج الفارسي «العربي» ومراكزه التجارية

أساطيل الشواني للبندقية في القرن الخامس عشر



تظهر هذه الخطة طرقات الشواني في الذهاب إما في العودة فتتوقف الشواني في نفس المرافئ باستثناء شواني شمالي افريقيا التي تعود من فالانسيا إلى تونس ومنها إلى البندقية، أما شواني الخط فتذهب من تونس إلى الشرق وتعود إلى البندقية برفقة شواني الاسكندرية وبيروت.


فلورنسا ـ فرنسا
طريق فلورنسا وبيزاء التجاري البحري إلى الاسكندرية والشام والبحر الأسود وبرشلونة
طريق فرنسا البحري إلى الاسكندرية وإنطاكية ومدن الشام وساحل فرنسا الجنوبي
برشلونة
القسطنطينية
الاسكندرية
كريت
قبرص
اللاذقية
طرابزون



الحكومات الملكية الجديدة في القرن السادس والسابع عشر:

نجحت الحكومات الملكية في مواجهة سلطة النبلاء والأشراف بفضل التحولات الاجتماعية التي حدثت في المجتمع الأوروبي من تصفية للعلاقات الإقطاعية القديمة بين الأشراف والأتباع. كما أن الجيوش التقليدية من الفرسان الإقطاعيين ثبت فشلها أمام قوة المشاة المحترفة العالية التدريب. وكان للسويسريين ميزة الريادة في الاعتماد على هذا النوع. كما أن القلاع الإقطاعية القديمة قد انهارت أمام قوات نيران مدافع الحصار الجديدة، وبذلك حصل الملوك على ميزات كبيرة. وكان على الأشراف أن يتخلوا عن فكرة الاحتفاظ بالحكم الذاتي أو استقلالهم عن الملك.

وقد أقام الإسبان مجالس شورى ملئوها بوظائف تخصصية لتسيير شئون الدولة مثل الحروب والمالية، والمستعمرات الحديثة... إلخ. وكانت هذه المجالس خليطًا من القانونيين ورجال الإدارة المحترفين، وأعضاء من طبقة النبلاء. وقد اتبعت كل من فرنسا وانجلترا نفس النماذج الإسبانية التي هي في الحقيقة نماذج أندلسية إسلامية، حيث كان هناك كبير وزراء، ووزراء متخصصون. أما في الدولة العثمانية فكان الأمر مختلفًا وأكثر تعقيدًا؛ فالحكام العثمانيون اعتبروا سلطتهم سلطة مطلقة. ورغم أن السلطان لا يمكنه التشريع وَفْقًا لمبدأ أن الراعي والرعية خاضعان للشريعة الإسلامية؛ أي أن السلطة المطلقة لا تعتمد على نظرية استبدادية!!.. فإن سلطته المطلقة استقرت بفضل نظام الطاعة الواجبة الذي اتبعه العثمانيون ابتداء من تشكيل جيش ونظام للخدمة المدنية يتألف من أرقاء خصوصيين، ونظام الرق هذا مختلف تمامًا عن أي رق آخر في أوروبا أو فيما وراء البحار أو في أية جهة في العالم؛ ففي الوقت الذي كانت طاعة الأرقاء واجبة مثل العبيد فإنهم كانوا يحتلون مركزًا اجتماعيًّا عاليًا ومشرِّفًا، فقد كان في وسع هؤلاء الوصول إلى أعلى مناصب الدولة، أو أن يطمع أحدهم في طلب يد شقيقة السلطان أو كريمته. وكانت صفوة الجيش هي الإنكشارية (المشاة) والإسباهي (الفرسان)، أما بقية الجيش فكان مكونًا من أصحاب الإقطاعيات التي كانت أيضًا تختلف عن نظيرتها في الغرب في عدم التوريث، وإنما كانت تُوزع كمكافآت، لذلك كانت قوات الصفوة أو طبقة أصحاب الإقطاعيات مهتمة بالتوسع المستمر؛ حتى يتسنى للسلطان توفير إقطاعيات أكثر، فلما توقفت الفتوحات كان لابدّ من فرض ضرائب، وما يستتبع ذلك من ظلم وفساد على عكس الأيام الأولى للفتوحات العثمانية التي كان الفلاحون المسيحيون يرحبون أحيانًا بها. وفي نهاية القرن السادس عشر بدأت قوات الصفوة في التدخل في شئون الحكم، وفَقَدَ مبدأ الطاعة الواجبة احترامه، لدرجة أن الانكشارية اشتركت في قتل السلاطين للتخلص من هذا النظام الذي أُعلن عن فشله منذ القرن السابع عشر. أما العلاقات الاجتماعية فلم تتطور في اتجاه العدل الاجتماعي، وثبتت عند المفاهيم النظرية في التراث

الإسلامي ولم تتحول إلى واقع ملموس، كما أن أصحاب الفكر أو الرأى كانوا دائمًا يدافعون عن حق السلطان في أن يفعل بشعبه ما يشاء.

القسم الثالث: أوروبا اللاتينية في عصر النهضة

سبق أن أشرنا إلى حركة الإصلاح الديني التي امتدت حتى القرن السادس عشر، وسببت لأوروبا كلها آلامًا كآلام المخاض نتج عنها نجاحات كبيرة وآثار عظيمة رغم الحوادث الدامية والفظائع والرحيل الإجباري عبر المحيط إلى أمريكا، ورغم اختفاء النظام الإقطاعي القديم تقريبًا فأصبحت حيازات الفلاحين مصونة بالعرف والقانون، وصار الأمراء والملوك يهتمون بالمحافظة على حياة الفلاحين بصفتهم دافعي الضرائب والمجندين في جيوشهم - فإنهم كانوا مرهقين. وقد أدى ذلك إلى حدوث ثورة فلاحية كبيرة في القرن السادس عشر (1524-1525م) امتدت من الغابة السوداء إلى وسط وجنوب ألمانيا وأقاليم الألب، أما في انجلترا في القرن السادس عشر فقد كان مُلّاك الأراضي إما يزرعون ضياعهم بأنفسهم وإما يؤجرونها للفلاحين بعقود قصيرة الأجل مما جعلهم أقل إرهاقًا من زملائهم داخل القارة بسبب رقابة البرلمان الإنجليزي على فرض الضرائب.

النهضة العلمية في أوروبا اللاتينية:

مهد للحركة العلمية ظهور المذهب الإنساني أو جماعات الإنسانيين في القرن الرابع عشر، ففي الحقبة الأولى من عصر النهضة دفع حب الحقيقة والبحث عنها الناس في اتجاهها متحمسين ومتجردين. وكانوا أكثر اهتمامًا بالإنسان، ولم يبدءوا بما نسميه اليوم بالعلوم التطبيقية. ويهدف هذا المذهب من العودة بالإنسان إلى كرامته الفردية وإلى تحرير فكره وتوسيع علمه ومعارفه. وقد نشأت جماعة من أهل الفكر والشعر ضاقوا بما فرض عليهم رجال الدين والإقطاع من قيود في الفكر والعمل المزري بالإنسان. وكانت وسيلتهم في ذلك إحياء العلم القديم؛ علم الإغريق والرومان. وكان موطن هذه الحركة إيطاليا،

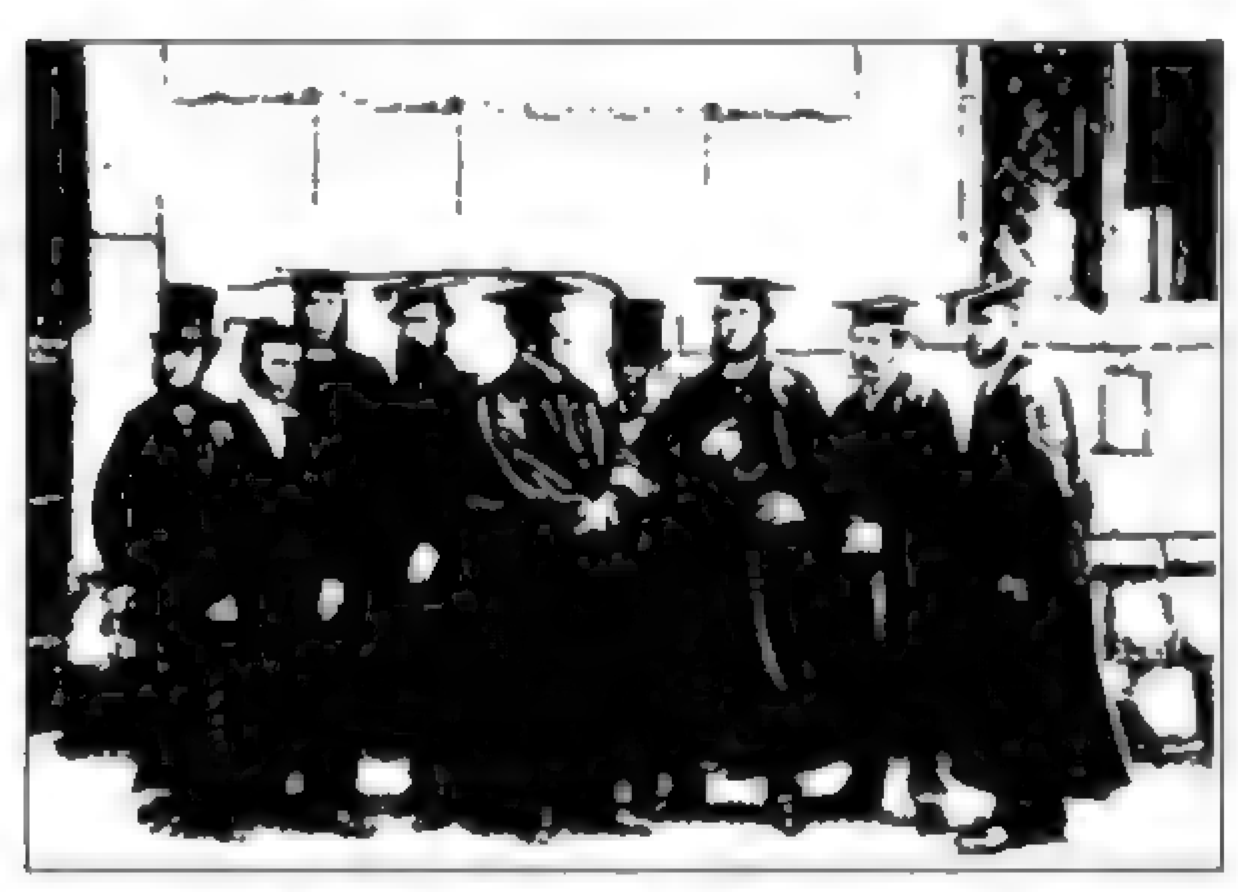
ومن رجالها: بترارك، ودانتي، وبوكاشيو، ولورنسو دي ميدتشي.

ساد القرن السادس عشر شعور غامر بإعادة اكتشاف الحياة أو كما يسمى عصر إحياء العلوم، وقد جاء هذا مواكبًا لاختراع آلة الطباعة التي كان لها أبلغ الأثر في نشر المعارف، وعم تلك الروح الوثابة التي اتسمت بها جمهوريات المدن الإيطالية. ويمكن القول إن العلم الحديث بدأ في الجامعات الإيطالية في القرن السادس عشر وانتعش فيها إلى منتصف القرن السابع عشر، ثم انتقل مركز النشاط إلى باريس ولندن. وكان القرنان السابع عشر والثامن عشر عصر الجمعيات العلمية لاسيما الجمعية الملكية بلندن 1660م، وأكاديمية العلوم في باريس 1666م، وكان الأب الروحي لهاتين الهيئتين العلامة الإنجليزي فرنسيس بيكون الكاتب والفيلسوف والمولود في لندن 1561م ومات 1626م، وهو صاحب القول بضرورة جمع الحقائق أولًا ثم التجريب قبل التفلسف ووضع النظريات. وفي إيطاليا تأسست أكاديمية دلينس عام 1612م وقد أثرت هذه الجمعيات والأكاديميات في روح البحث، غير أنه يمكن القول من دون مبالغة إن العلم ظل في أيدي الهواة حتى القرن التاسع عشر، ثم عاد الاعتماد في البحث العلمي على الجامعات.

الحركة الفنية في أوروبا:

واكبت حركة إحياء العلوم في عصر النهضة حركة مماثلة بالنسبة للفنون التشكيلية والتصوير والموسيقى منذ القرن الخامس عشر. وكانت البداية في الفنون التشكيلية والتصوير مستوحاة من القصص الديني. وقد ساعد على ذلك أن الكاثوليكية لا تعارض بشدة صنع التماثيل أو الرسم كما أن تشوق الأوروبيين للجذور الإغريقية والرومانية التي كان لها باع كبير في الفنون التشيكلية ساعد على ذلك الإحياء، وليس معنى هذا أنه لم تكن هناك مقاومة للفنون والرسم، خاصة بالنسبة للجسد العاري للإنسان، فقد ثار جدل مع ميخائيل أنجلو ورفائيل اللذين كانت دعواهما أن جسد الإنسان - كما خلقه الله - فيه نُبل وجمال فلمَ لا يتناوله الفن والإبداع؟





طلبة الجمعية الملكية بلندن 1650 م

وانتصر الفنانون على رجال الكنيسة المعترضين وتم رسم سقوف كنيسة سان بيتر بالصور المتعلقة بالقصص الديني، وانطلق الرسم والنحت متحررًا من القيود مضيفًا لقيمة التحرر بعدًا جديدًا، كما ساهمت الفنون في وصل التراث القديم بعصر النهضة، ذلك التراث الذي كان الأوروبيون يتشوقون إليه. وما إن جاء القرن التاسع عشر حتى كانت أوروبا كلها تزخر بالتماثيل ذات القيمة الجمالية في الميادين والحدائق العامة. ولا حاجة للتدليل على أن ذلك قد أسهم إيجابيًا في نهضة الشعوب إلى جانب ارتقاء الفنون الأخرى.

الموسيقى:

كانت الفترة ابتداء من 1600م - 1750م مرحلة متكاملة، ظهرت فيها الموسيقى كفن مستقل بذاته الأمر الذي لم يكن معروفًا من قبل، فقد ظلت الموسيقى فنًّا مساعدًا يشترك دائمًا مع الحركة والكلمة أو كليهما معًا. ولم يصبح ذلك واقعًا إلا عندما صمتت الأصوات واستمرت الآلات الموسيقية وحدها في أداء مفهوم له معنى. هذه الظاهرة البسيطة هي التي نقلت الموسيقى من فن مساعد إلى فن مستقل بذاته قادر على أن يولد مبادئه الخاصة به. فمن المعروف أن أغراض الموسيقى في المجتمع هي:

1 - أغراض دينية وشعائرية.
2 - حربية كالسير المنتظم (المارش والنشيد).
3 - درامية كالغناء الدرامي والإلقاء الملحمي.
4 - شعبية كالغناء والرقص لخدمة الترفيه والعمل.
5 - فنية وهي التي تضفي مغزى جديدًا ووظيفة جديدة على صور كاملة متقنة لأي من الجوانب الأربعة السابق ذكرها.

وقد بدأت بذور التطور في الموسيقى الغربية مع حركة الإصلاح الديني البروتستنتي؛ حيث اعتمد اللوثريون على الكورال في الغناء الديني، واستمر التطور مواكبًا حركة التغير الاجتماعي للشعوب، حيث تحول محور المجتمع من الدولة إلى الفرد، وكذلك أمكن نقد أي فكرة أو نظام سابق مع وجود رغبة متنامية عارمة في الانطلاق من القيود. وكما كانت هذه الأفكار مثيرة لرجل السياسة، كانت مثيرة للموسيقيين، وكان لها تأثير في إيجاد صيغ موسيقية جديدة. وقد ساعد على ذلك أن مكانة المؤلف الموسيقي باعتباره فردًا في المجتمع، تغيرت تلك المكانة بنفس السرعة التي تغيرت بها مكانة الأفراد. وفي نهاية القرن الثامن عشر كانت حفلات الأوبرا أمرًا مألوفًا في القارة الأوروبية. وقد تجاوبت المجتمعات الأوروبية مع التطور الموسيقي كفن مستقل بذاته يثير الإحساس بالجمال والذوق الرفيع، مما جعل الموسيقى لغة مشتركة للقارة

الأوروبية تكوّن قاعدة تفاهم مشترك مثلها مثل اللغة اللاتينية بيت المثقفين. وقد تبوأ الفنان الموسيقى مركزًا مرموقًا، وظهر في أوروبا آلاف من الموسيقيين مؤلفين، وعازفين، ولمعت أسماء عديدة مثل: موتسارت، وباخ، وبتهوفن.. (وبالطبع هذا الرقي لم يحدث فجأة.. فموتسارت مات معدمًا...) المهم أن الموسيقى بتتالي إبداعاتها عبرت عن موضوعات لم يسبق التعبير عنها من أحاسيس الغناء الحر لعامة الناس، لا كما كانت سابقا داخل قصور الأمراء والحكام. كما أن الموضوعات خرجت عن دائرة العلاقات الشخصية الضيقة في الحب والوصل والهجر. ولا نبالغ إذ نقول إن الموسيقى أصبحت فيما بعد القرن الثامن عشر ضرورة للإنسان المتحضر وليست ترفًا.

الرحلات إلى الشرق:

كان رجال الدين المسيحي في أوروبا اللاتينية هم أسبق أهل الغرب إلى زيارة الشرق للحج إلى الأماكن المقدسة في فلسطين، وتسجيل مشاهداتهم. وكانت كتب الرحلات مقتضبة تلتصق بالكتاب المقدس أشد ما يكون الالتصاق، فكانوا يتحدثون عن البحر الأحمر باعتباره البحر الذي عبره النبي موسى، ويتحدثون عن الأنهار الأربعة التي تنبع من الجنة... إلخ. ثم جاءت بواكير عصر النهضة فتغيرت النظرة إلى القصص المحدود أولًا ثم التدقيق فيما بعد في وصف الأشياء والبلاد والعادات والتقاليد، حدث ذلك في القرن السادس عشر؛ فقد قام ليونهارد رادنولف برحلة إلى الشام في الفترة (1573- 1576م) فوصف فنادق الأجانب ووصف الحياة العامة والخاصة للترك، ووصف حكومة الباشا في حلب وحياة الترف المتصلة ببلاطهم وحريتهم للأجانب وكيف أن المسيحيين الأجانب كانوا يُمنعون من دخول المدن الإسلامية على ظهور الجياد وكان عليهم أن يترجلوا عند أبوابها.

نشطت الرحلات إلى الشرق في القرن الثامن عشر نشاطًا كبيرًا خاصة في النصف الثاني بعد زوال هيبة الإمبراطورية العثمانية، ومثال ذلك رحلة كارستيف نيبور إلى البلاد العربية (1761 - 1767م) التي خرجت ضمن البعثة

الـدنماركية. وكـانت مـهمة البعثـة كما جـاءت فـي كتـاب عنـها للبـاحث ثوركيلوهاتزن عام 1956م، قال:

«أن نيبور تلقى في ديسمبر 1760م مكتوبًا يشتمل على 43 بندًا من خلالها حدّد خط سير البعثة ومهامها». ومما جاء في هذا البيان المطول كمهمة أولى تعلم اللغة العربية والجوْب في قلب البلاد وسواحلها، وأن على كل عضو أن يسجل يومياته، وأن يرسل من سجل اليوميات نسخة إلى الوطن كلما سنحت الفرصة لـذلك، كـذلك شراء المخطوطات. وينبغي علـى أعضاء البعثة أن يجيبوا عن الأسئلة التي وضعها الأستاذ ميشايلتن، وعلى الأعضاء رصد خطوط الطول والعرض لتكون أساسًا لرسم خريطة للمنطقة التي يجوبون فيها، وأن يتبينوا الاختـلاف بـين موسـم الجفـاف وموسـم الأمطـار، وأن ينتبـهوا لآثـار العصـور البائـدة، وعـدد السـكان، ودرجـة خصـوبة الأرض. وعلـى البعثـة بصـفة خاصة ملاحظـة المد والجزر بالبحر الأحمر، والعلاقـة بين المواليـد والوفيات، وعـدد النساء في الريف والمدن، والعلاقات بين الجنسين، وعلى الدكتور (فلان) أن يبحث في الأمراض بكل منطقة، وعلى الأستاذ (فلان) ملاحظة عادات وتقاليد النـاس، وعلـى الأسـتاذ (فـلان) أن يجمع عينـات حيوانيـة ونباتيـة، كذلـك علـى الرسم أن يعاون أعضاء البعثة عند طلبهم ذلك (انتهى).

ونلاحظ شدة اهتمام الغربيين بالشرق اهتمامًا يخدم التطلع للسيطرة عليه.

خط سير رحلة كارستيف نيبور:

بـدأ كارسـتيف خـط الرحلـة بالوصـول إلـى القسطنطينية ثـم التوجـه إلـى الإسكندرية ثم القاهرة ثم سيناء واجتاز البحر الأحمر إلى اليمن وقد مكثت البعثة في مصر من عام(1761 - 1762م). وكتاب الرحلة في حد ذاته مثير ومشوق، وبه وصف لمعاناة البعثة في المراكب الشراعية ولكن الروح الوثّابة والجدية في كل ما أنجزه أعضاء البعثة من عمل كان ظاهرًا. ومن خلال كتاب الرحلة يتضح جليًا أن أهدافها لم تكن لخدمة العلم والمعرفة فقط، وتظهر

الإشارة إلى ذلك عندما يصف كارستيف المرور في مضيق الدردنيل، يقول:

«وليس للقلاع المشرفة على الدردنيل من الأهمية ما قد يظن الإنسان فليست القلعة القائمة على الشاطئ الآسيوي إلا بناء مربعًا صغيرًا تحيطه الأسوار الضخمة والأبراج. والمدافع التي يشاهدها الإنسان هنا مدافع كبيرة جدًّا ولكنها موضوعة على الأرض مباشرة أو على عوارض. وقد أُتيح لي فحص بعضها عن كثب فتبينت أنها لم تستخدم من وقت طويل. والقناة عند الدردنيل ضيقة بحيث تصل طلقات المدافع من أحد شواطئها للآخر، ومجراها متعرج لا يمكن للإنسان أن يأمل في اجتيازه في ليلة كاملة حتى إذا كانت الرياح مواتية. هذا إلى جانب أن الأتراك يستطيعون وضع بطاريات مدفعية بتكاليف قليلة عند منعطفات القناة، ولهذا فإنه ليس من السهل على أسطول معاد أن ينفذ من القناة أو يهجم على القسطنطينية من ناحية الماء حتى مع فرض أنه سيجد الدعم من قوات برية تقضي على القلاع والبطاريات المقامة على القناة المذكورة وتؤمن رجوعه فإن البحر بين الدردنيل والقسطنطينية ملىء بالمناطق الضحلة التي تعرض الأسطول للخطر. أما إذا أرادت الدول المسيحية أن تنال من العاصمة التركية عن طريق البحر فأصوب السبل إلى ذلك هو منع الواردات عن طريق البحر الأسود وكذلك عن طريق الأرخبيل.. فإذا ما مُنعت الواردات فإن الغلاء سيستشري في العاصمة، وحينئذ لن تكون ثورة الرعية بعيدة الاحتمال كما هو معروف». (انتهى النص).

الثورة الفرنسية 1789 م:

تُعد الثورة الفرنسية من أهم الأحداث، لا في فرنسا وحدها، وإنما في تاريخ أوروبا بأسرها بل العالم أجمع. ففي فرنسا كانت الملكية واسعة النفوذ، مطلقة السلطان إلى حد كبير باعتبار أنها تستمد السلطة من الله. ومن ثَمَّ كان للملك مطلق التصرف في المال، وفي الحرية، وفي الحياة، بالإضافة إلى ما كان من تبذير الأموال في بناء الدور والقصور، وبقاء نظام الامتيازات الذي جعل الأشراف يستأثرون بأرفع مناصب الدولة، ويعفون من أعباء الضرائب إلا

القليل، فضلًا عن حقوق أخرى تختلف عن النظام الاقطاعي. بينما كان لا يزال للكنيسة أرض تبلغ خُمس أرض فرنسا تقريبًا، إلى جانب أموال الزكاة التي كانت تُفرض على العامة وحدهم. كان كل ذلك يصرف لا في معاونة الفقراء وإنما كان ينفقه رجال الكنيسة على أنفسهم ليعيشوا في ترف دونه ترف كبار الأشراف. وفي القرن الثامن عشر ظهرت في فرنسا طائفة من الكُتاب قوضت كتاباتهم دعائم النظام: فمونتسكيو كان يرى أن النظام الإنجليزي هو أرقى الأنظمة؛ لأنه يضمن الحرية السياسية لكل مواطن حيث تركزت سلطة الدولة في ثلاث هيئات مستقلة: تشريعية، وتنفيذية، وقضائية (نظرية فصل السلطات). أما فولتير فقد اتجهت كتاباته إلى الهدم حيث حمل على مفاسد الحكم المطلق، ووضع أساسًا لمجتمع حديث يهدف إلى المساواة والحرية، وكان لكتابه «العقد الاجتماعي» تأثير بالغ في نفوس الفرنسيين حتى لقب بـ «إنجيل الثورة». ثم جان جاك روسو وأفكاره عن الحرية، كما هاجم بعض الاقتصاديين الكبار النظام القائم.

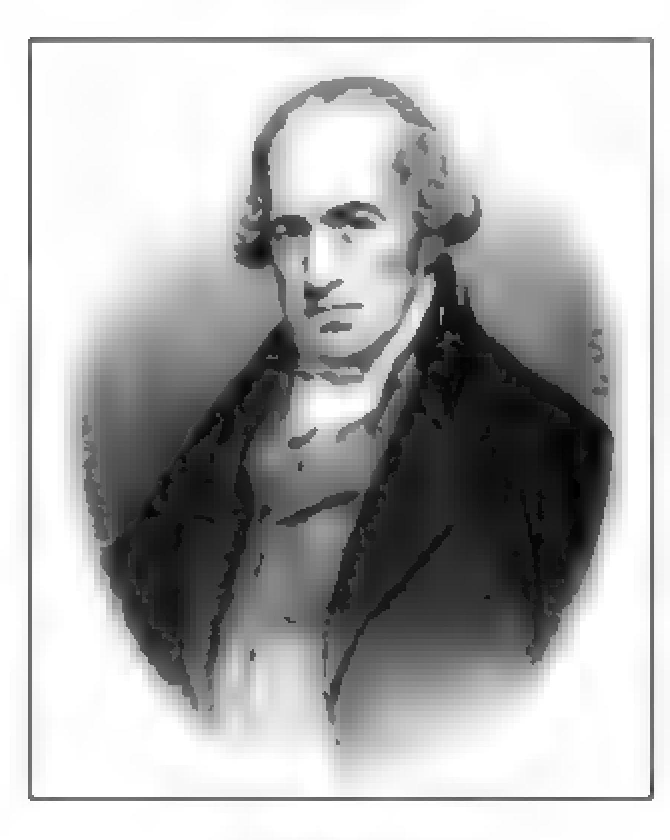
كانت نتيجة ذلك كله إعلان حقوق الإنسان على أساس تعاليم روسو، وإلغاء نظام الامتيازات، ووضع السلطة التشريعية في يد مجلس نيابي واحد... إلى غير ذلك من الإصلاحات. ثم انتهى الأمر بإعدام الملك وأسرته وإعلان الجمهورية.

القسم الرابع: الثورة الصناعية في أوروبا

لا خلاف في أن بداية الثورة الصناعية في نهاية القرن الثامن عشر بدأت في بريطانيا، ومن ثم فإن درجات التصنيع في الأمم الأوروبية كانت تُقوَّم وتقاس بالنسبة لدرجة التصنيع في بريطانيا باعتبارها رائدة التصنيع في القارة الأوروبية. وقد مهد لهذه الثورة تطوير أفران صهر الحديد باستخدام الفحم الحجري الموجود بكثرة في أوروبا وخاصة بريطانيا، ففي العصور الوسطى حتى القرن الثامن عشر كانت أفران صَهْر الحديد باستخدام الفحم النباتي سهل الاشتعال، وكانت هذه الأفران تسمى الـ Plast Furneces، وبتطوير هذه الأفران

باستخدام الفحم الحجري قفزت صناعة الصلب قفزة كبيرة بَدْءًا من صناعة الفأس إلى تدريع السفن وصناعة المدافع خاصة بعد أن تسحنت نوعية الصلب نتاج هذا التطور. وفي القرن التاسع عشر دخلت الحضارة الأوروبية عصر المطرقة البخارية وسفن الحرب البخارية.

وقد امتدت حركة التصنيع عبر القناة الإنجليزية حتى نهر الدانوب، ولكن درجة النمو الصناعي كانت تختلف من بلد لآخر. وقد أخذت حركة التصنيع في أوروبا شكل الظاهرة العامة حسب درجة تهيئة الاقتصاد القومي لحركة التصنيع، وكانت الدول الأسبق بعد انجلترا هي: فرنسا، وألمانيا، وشمال إيطاليا. وقد أخذت حركة التصنيع وقتًا أطول بالنسبة لروسيا مثلًا. ولبيان نمو حركة التصنيع في انجلترا نجد أن إنتاج انجلترا من الفحم خلال القرن السادس عشر (200.000) طن ارتفع ليكون 2.5 مليون طن في أوائل القرن الثامن عشر، ثم قفز إلى عشرة ملايين طن في عام 1880م، ثم قفز إلى 270 مليون طن في 1910م. أما بالنسبة للبخار الذي اكتشف قوته العلامة إسحاق نيوتن عام 1680م، فكان أول استخدام تطبيقي له بواسطة جيمس وات الإنجليزي عام 1769م عند استعماله للطلمبات البخارية ذات المكبس. وأول قاطرة بخارية بُدَائية اختُرعت أيضًا في انجلترا عام 1774م، أما الصورة النهائية لها فظهرت عام 1804م. أما في فرنسا فقد ظهرت أول عربة تعمل بالبخار، وكان لها ثلاث عجلات، عام 1769م.



إسحاق نيوتن

ومن الاختراعات التطبيقية العظيمة المخرطة التي ظهرت عام 1793م، كذلك اختراع آلة حلج القطن عام 1793 في أمريكا، وآلة غزل النسيج في انجلترا عام 1764.

وخلاصة القول إن الحركة العلمية نشطت نشاطًا عظيمًا ابتداء من القرن السابع عشر حتى منتصف القرن الثامن عشر ممهدة للثورة الصناعية في نهايات القرن الثامن عشر، هذا القرن الذي أفرز أيضًا في نهايته أكبر ثورة شعبية أثرت في تاريخ البشرية وهي الثورة الفرنسية.

وقد بدأ التنافس بشكل حاد بين الدول الأوروبية خاصة بين انجلترا وفرنسا في كافة الميادين سواء أكان ذلك في العالم القديم أو الجديد أو فيما وراء البحار. وفي النصف الثاني من القرن الثامن عشر نجحت الثورة الأمريكية في إضافة مجتمع غربي جديد في قارة جديدة ذات موارد ضخمة.

التغيرات الاجتماعية في أوروبا نتيجة لحركة التصنيع:

ظهرت طبقات عريضة من الطبقات الوسطى، واضمحل دور النبلاء إلا من شارك في التحولات الاجتماعية والاقتصادية، وظهر مجتمع أصحاب البنوك ومديري المصانع، وأصحاب الشركات. وازدادت أهمية المهندسين والحرفيين ذوي المهارات، وعمت ظاهرة البحث عن المبدعين، وتبني المشروعات والبحوث التطبيقية لتطوير التكنولوجيا، والإغداق عليهم. وغني عن البيان أن ذلك كله ما كان يحدث لولا انتعاش الاقتصاد وتهيئته لحركة التصنيع التي تحتاج دائما إلى المزيد من الموارد، مما جعل الدول الأوروبية تتجه للبحث عن موارد جديدة في العالم سواء عن طريق الاحتكار أو الحصول على امتيازات في دول العالم القديم الشرقية.

أما في روسيا ذات المجتمع الزراعي، فقد حاول بطرس الأكبر الذي آمن بالنهضة الصناعية، أن يعمل على تحديث بلاده في هذا القرن، مما مكّن روسيا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر من التوسع في وسط آسيا على حساب

الإمبراطورية العثمانية، كما فكرت روسيا أيضًا في أن يكون لها مستعمرات في إفريقيا، ولكنها فشلت في ذلك، وفكرت في الوصول إلى الهند ولكنها لم تفلح. ومن أسباب ذلك أن النمو الصناعي في روسيا ظل بطيئًا بالنسبة لأوروبا لعدم تهيئة الاقتصاد القومي لذلك.



المجتمع الإنجليزي في القرن التاسع عشر

تبلور النمط الغربي في الحياة:

بنهاية القرن الثامن عشر، انتقلت أوروبا من عصر النهضة إلى عصر التقدم التكنولوجي والإنتاج الكبير، وتبلور النمط الغربي في الحياة، وقد كان ذلك على حساب شعوب المستعمرات واستغلال الشعوب الأخرى بالامتيازات الأجنبية، فقد أحس الأوروبيون بالتفوق، وعم الطبقات الوسطى والعليا روح التحضر والاستمتاع بالحياة، فنشأت عادات وتقاليد جديدة تجمع بين تقاليد النبلاء والفرسان قديمًا، وقيم ما بعد الثورة الفرنسية من تقديس للحرية وتكافؤ الفرص، واحترام الآخرين مع تقاليد جديدة خاصة برجال الاقتصاد والتجارة والبنوك ممن يشكلون البرجوازيين الجدد.

أما بين الشباب فقد ازداد الاهتمام بالفنون عمومًا والموسيقى خصوصًا، والرقصات المبتكرة، والرياضة.. وكان ذلك بطاقة المرور للمجتمعات الراقية. وفي الحفلات الخاصة ترسخت قواعد «البروتوكول والإتيكيت» الأوروبي.. وازداد الاهتمام بأزياء الرجال والنساء، والتفاخر بالمقتنيات القيمة الجميلة، كما زادت فرص الاختلاط بين الجنسين زيادة كبيرة عن طريق التزاور،

ورحلات الصيد، والتنزه، والرياضة بعدما كان قاصرًا على أيام الآحاد في الكنيسة وأدت كثرة الاحتكاك إلى انفراجة كبيرة في مساحة ثقافة الفرد الأوروبي؛ فأخبار الحروب والمغامرات والاستكشافات الجديدة وأخبار المستعمرات، وغرائب القصص عن الشرق وسحره، وقصص البطولات، كل ذلك فجَّر طاقات في حياة أوروبا الفكرية والثقافية. وكان مردود ذلك كثرة عدد المفكرين والأدباء والشعراء والفلاسفة، وأجيالًا قرأت لمن مهدوا لهذه الطفرة الثقافية والفكرية أمثال: مونتسكيو، وفولتير، وجان جاك روسو.

أما في مجال العلوم فقد كان في كل يوم يَجدُّ جديد يؤكد انتصار الإنسان الأوروبي على مشكلات الحياة. ويُعد القرن الثامن عشر مولد المجتمع الاستهلاكي. وقد ظهر شعار اكسب وانفق Getting and Spending كذلك شعار امتلك وتمتع Having and Enjoying، ونتج عن ذلك انتشار فكرة ترقية الأذواق وفكرة «الموضة» Fashion فمثلًا كان في شارع أكسفورد بلندن عام 1800م 153 محلًا استهلاكيًا.

وكان الإقطاع قد اختفى من أوروبا، وظهرت صراعات الطبقة العمالية مع الرأسماليين لكنه كان صراعًا فيه شيء من التكافؤ، فالنقابات تدافع عن العمال وتكتسب حقوقًا لهم، والأحزاب ذات البرامج تحاول مساعدة الشعب. وانتشر التعليم في أوروبا، ولم يعد هناك طاعون يفتك بربع السكان في هجمة واحدة، ولم يعد هناك صراع جدلي بين الكنيسة والعلمانيين، ولم يعد هناك أمثال الراهب سافونا رولا الذي كان يحرِّم الرقص والموسيقى ويجلد النساء في الميادين العامة في فلورنسا، ولم يعد هناك سحر وشعوذة؛ فقد انتهى عصر الخرافة.

واتسعت المدن خاصة في العصر الفيكتوري، ورصفت الطرق وانتشرت الحدائق العامة التي تصدح فيها الموسيقى لعامة الناس وأقيم العديد من التماثيل والنصب التذكارية كدليل على الثراء، وحب الحياة والجمال. أما النظافة فقد عمت الشارع، والحديقة، والعمارة، بعدما كانت معظم بيوت

الأوروبيين بلا حمامات حتى القرن السابع عشر، وقد اشتهرت فرنسا بالعطور للتغلب على الروائح الجسدية الكريهة لقلة الحمامات آنذاك.

تبلور النمط الغربي كما أشرنا في نهاية القرن الثامن عشر، فنمط المعيشة يكاد يتشابه، كذلك النظرة للحياة مع بعض الاختلافات في الدرجة حسب الثراء وما تفرضه الفروق القومية، والاعتزاز الوطني مثل اعتزاز الإنجليز بوحدات القياس، الأوزان، وطريقة المرور (عجلة القيادة في اليمين)، ومثل عدم إنشاء انجلترا لدار أوبرا حتى الآن.. وإن كانت قاعة ألبرت هول الموسيقية، وهي تعادل الأوبرا تُعد بديلًا لها. وهكذا نجد أنماطًا أوروبية متعددة أهمها تأثيرًا النمط الفرنسي والإنجليزي والألماني والإيطالي وأخيرًا الأمريكي، لكنها كلها أوروبية غربية ذات جذور لاتينية تمر بعصر النهضة وتمتد إلى الإمبراطورية الرومانية المقدسة، إلى ذلك الحلم الذي يوشك أن يتحقق عندما تتوحد أوروبا عام 1992، رغم بعض الشكوك حول اكتمال ذلك.

الاقتصاد في عصر الثورة الصناعية:

سوف نأخذ انجلترا مثلا لتمثيل الحالة الاقتصادية في عصر الثورة الصناعية، وسوف نتناول بعض الأرقام التي تمثل النمو الاقتصادي المتزايد المأخوذة من كتاب التاريخ الاجتماعي لانجلترا طبعة 1983م.

زادت أعمال الشحن من 3.600.000 طن في 1850م إلى 6.600.600 طن 1880م. وفي عام 1913م كان إنتاج انجلترا من الصلب 8 ملايين طن، وبلغت ذروة الثقة الإنجليزية في الاقتصاد الصناعي الذي حقق في غضون ثلاثين عامًا فقط (1851م-1881م) زيادة كبيرة في الدخل القومي من 523 مليون جنيه إسترليني إلى 1551 مليون جنيه. وقد نافست الولايات المتحدة وألمانيا في أوائل القرن العشرين بريطانيا العظمي في إنتاج الصلب، وأنتج كلاهما كميات أكبر، لكن صناعة الغزل والنسيج في بريطانيا العظمى كانت تمثل أكبر استثمارات في العالم. كذلك بالنسبة للفحم؛ حيث بلغ المصدر منه في نهاية

القرن التاسع عشر نحو 60 مليون طن من إجمالي 270 مليون طن. وقد انتهى العصر الفيكتوري وبريطانيا إمبراطورية لا تغيب عنها الشمس فعلا وتمثل قمة الاستعمار والنفوذ العالمي، وصاحبة أكبر واردات وصادرات في العالم رغم منافسة فرنسا، وباقي دول القارة الأوروبية التي برز منها في أواخر القرن التاسع عشر ألمانيا كقوة صناعية تبحث عن دور سياسي عالمي مما جعل الصدام حتميًّا، وقد حدث فعلًا ذلك في أوائل القرن العشرين في الحرب العالمية الأولى.

وكانت فرنسا وانجلترا في صراع شديد من أجل النفوذ. وحدثت حروب أوروبية طويلة مثل حرب الوراثة النمساوية 1740م، وحروب نابليون التي استمرت حتى أوائل القرن التاسع عشر، وحرب البوير في نهاية القرن التاسع عشر.

والحقيقة أن بريطانيا العظمى كانت سيدة هذا القرن، خاصة في عصرها الفيكتوري.

وقد نشطت الحركات الكشفية نشاطًا كبيرًا، فرغم أن أستراليا قد اكتشفها في القرن السادس عشر 1567م الإسباني الفارو دي ماندانا فإن الأسطول البريطاني بقيادة آرثر فيليب هبط إليها مستعمرًا عام 1788م، واكتشف الذهب بها 1850م، وكانت قيمة المستخرج منه في عام 1852م 17 مليون جنيه إسترلينى، وحدثت أكبر هجرة أوروبية إليها من الإنجليز فيما بين (1788 - 1852م). وخلال مائة عام تالية أصبح الإنجليز يشكلون 90 ٪ من السكان.

القسم الخامس: الاستعمار الأوروبي في القرن التاسع عشر

ظاهرة الاستعمار:

ظاهرة سياسية قديمة، تتمثل في عدوان شعب على جيرانه الضعفاء.. وقد

مارست ذلك الحضارات القديمة مثل حضارة المصريين القدماء والآشوريين والإغريق، لكن أول شعب أو أمة أضفت على العدوان صورة الاستعمار المنظم هم الرومان، فهم أول شعب رسم لنفسه سياسة عدوانية للاستغلال المنظم الطويل الأمد للبلاد التي يضعون أيديهم عليها. ولم تُعرف مثل هذه السياسة عن المسلمين في البلاد التي فتحوها باستثناء الأتراك الذين مارسوا شيئًا من ذلك بالنسبة لبلاد شرق أوروبا النصرانية، حيث كانوا يقدمون الجزية على الإسلام كنوع من الاستغلال المادي، هذا ما كان في عصور ما قبل النهضة الأوروبية حيث ظهر الاستعمار الحديث نتيجة للغنى، والنمو العلمى، والتفوق الفني لشعوب أوروبا اللاتينية بعد نهضتها وثورتها الصناعية في أواخر القرن الثامن عشر وظهور الحاجة للأسواق والموارد، فكان العدوان على الأمم الضعيفة أينما وجدت وَفْقًا لفكرة أجدادهم الرومان الوثنيين، وهي الاستغلال المنظم الطويل الأمد لنهب خيرات الأمم وتحقيق أكبر قدر من الرفاهية لشعوبهم، وقد بدأ البرتغاليون الاستعمار الحديث مستغلين العاطفة الدينية لنشر المسيحية كستار لعمليات النهب، فأنشئوا مراكز عسكرية على السواحل لتنفيذ ذلك.. ثم جاء بعدهم الهولنديون والفرنسيون والإنجليز، وأخذوا في غزو البلاد التي لا تملك سلاحًا والمتأخرة علميًا وثقافيًا. وفي نهاية القرن التاسع عشر صار الاستعمار جزءًا ثابتًا من سياسات الدول الأوروبية القوية عسكريًا، وقد ساعد على انتشار هذه الظاهرة الاستعمارية الحكام المحليون في البلاد الإسلامية بسبب خلافاتهم وتنازعهم مع بعضهم البعض واستعانتهم أحيانًا بالأوروبيين الذين يسارعون بإرسال جيوشهم لاحتلال البلاد. حدث هذا في صقلية مع ملوك الطوائف بعد استعانتهم بملوك النورمان، وحدث هذا في تونس لدولة الحفصيين وبني مرين، كما وقع حديثًا في الهند، وإيران، وبلاد ما وراء النهر بل للدولة العثمانية نفسها، كما أغرى الأوروبيون الحكام المسلمين بالاستدانة من الغرب بلا حساب.

وقد اشتعل تنافس طويل بين الدول الاستعمارية على المستعمرات، وانتهت قيادة الحركة الاستعمارية في إفريقيا وآسيا إلى أيدي الإنجليز والفرنسيين في

نهاية القرن التاسع عشر، مع اشتراك طفيف من جانب البرتغال وهولندا وبلجيكا وإسبانيا وإيطاليا.

ومنذ أوائل القرن التاسع عشر أصبح من الجلي الواضح انقسام العالم إلى قسمين؛ القسم الأول أوروبي أمريكي متعلم، غني، قوي، يسود البحار والأرضين، وقسم آخر فقير منقسم على نفسه. وهذا الاختلاف الكبير في المستوى هو الذي ساعد على اتساع ظاهرة الاستعمار بفضل ميراثها الثقافي الضخم، ولكن هذا الميراث كان لدى الشعوب وليس عند السلطة الحاكمة، ولهذا ظلت الشعوب إلى حد كبير محتفظة بدياناتها ولغاتها وحضاراتها، بينما انهارت الحكومات وتهاوت بسرعة عندما اصطدمت بالقوى الغربية المسلحة بالعلم، والمنظمة سياسيًّا وعسكريًّا والمؤيدة في الغالب من شعوبها (وهذا هو المهم والمفتقد).

ظروف الاستعمار الأوروبي في القرن التاسع عشر:

بعد ظهور الثورة الصناعية في أوروبا، وتحول الاقتصاد القومي لحركات التصنيع وظهور الحاجة لمزيد من الموارد تأصلت لدى جميع الدول الأوروبية فكرة استغلال الشرق، واستعمار إفريقيا، والقضاء على النفوذ التجاري والسياسي للعالم الإسلامي، فتمكنت انجلترا من السيطرة على معظم شبه القارة الهندية في القرن التاسع عشر، وكذلك هولندا على إندونيسيا، وروسيا على ولايات آسيا الوسطى الإسلامية، وأصبح لمعظم دول أوروبا مواطن أقدام على سواحل إفريقيا الشرقية والغربية، وقد سادت في القرن التاسع عشر نظريتان استعماريتان في السياسة الدولية:

الأولى: هي النظرية البيولوجية السياسية: بمعنى حق الدول الكبرى في التهام الدول الصغرى، وأن الشعوب الصغيرة يجب أن تذوب داخل كيانات أكبر، وقد لقيت هذه النظرية تأييدًا واسعًا كمبرر لضراوة الزحف الاستعماري في مناطق كثيرة من العالم.

الثانية: هي إباحة تملك الأقاليم التي تسكنها شعوب متخلفة غير مسيحية أو قبائل منعزلة عن ركب الحياة العصرية خارج القارة الأوروبية، واعتبار هذه الأقاليم خالية يمكن تملكها لأول دولة تطؤها، سواء بقواتها المسلحة أو ببعض من أفرادها، بحيث يتمكنون من رفع علم دولتهم فوق جزء من هذه الأقاليم.

وقد وضع مؤتمر برلين 1884م عدة شروط لهذا الاستيلاء حتى يُحدث جميع آثاره القانونية في المجال الدولي، ومن الطريف أن روسيا حاولت أن يكون لها مستعمرة إفريقية في أواخر القرن التاسع عشر في القرن الإفريقي تحت شعار حماية المسيحية في الحبشة، فأبحرت من ميناء أودسا الروسي على البحر الأسود، باخرة عليها ثلة من العسكريين وبعض الرجال والنساء والأطفال ورجال الدين، بقيادة راهب قوقازي، ووسط شعور فياض من الحماس الديني أبحرت الباخرة متجهة إلى البحر الأحمر عبر قناة السويس، ولما بلغت الباخرة ميناء مصوع رفضت السلطات الإيطالية السماح لها بالرسو، بها فاستمرت مبحرة جنوبًا حتى رست في ميناء مهجور تابع لمستعمرة أوبوك الفرنسية، وقام الكاهن القوقازي وكان اسمه آتشينوف برفع العلم الروسي، ولكن ما لبثت السلطات الفرنسية أن أعادته مع أفراده العسكريين بعد اشتباك صغير قتل فيه أربعة من المغامرين الروس، وسمح للرهبان فقط بالدخول إلى الحبشة، وأنزل العلم الروسي من فوق الميناء المهجور.

ثم تزايدت موجات التوسع والاستعمار والبحث عن الأسواق والموارد لتلبية الاستثمارات الخاصة بحركات التصنيع الأوروبية، وقد شجع على هذا تلاشى هيبة القوى الإسلامية في أواخر القرن الثامن عشر، وعلى وجه التحديد عام 1778م بعد هزيمة الدولة العثمانية الثقيلة أمام روسيا التي باتت جيوشها على مشارف العاصمة العثمانية، ولولا تخوف الإنجليز من سقوط الدولة العثمانية فجأة على أيدي الروس، لاجتاحت الجيوش الروسية العاصمة إسطنبول، ولكن انجلترا هددت روسيا ثم عقدت الهدنة.

التوسعات الأوروبية في إفريقيا:

ظلت القوى الاستعمارية فترة طويلة نحو قرنين من الزمان ترابط على سواحل إفريقيا دون الدخول لقلب القارة حيث توجد الغابات الكثيفة والصحاري الشاسعة والأنهار الحبيسة والأمراض القاتلة، خاصة الملاريا قبل اكتشاف مصلها في نهايات القرن التاسع عشر، ذلك القرن الذي شهد حركة استعمارية كاسحة من معظم الدول الأوروبية خاصة انجلترا وفرنسا وإيطاليا وبلجيكا. فمثلًا نجد أن دولة روديسيا سميت باسم سيسل رودس، أحد رواد الاستعمار البريطاني وقد أسس شركة على غرار شركة الهند الشرقية أسماها شركة إفريقيا الجنوبية 1890م، وساعدته حكومة بريطانيا على غزو الأقاليم الغنية في حوض نهر زمبيزي، كما سحقت بريطانيا العظمى شعب البوير، وهم فلاحون هولنديون استعمروا الرأس الإفريقي منذ زمن طويل، ثم رحلوا شمالًا وأسسوا جمهوريتين هما: الترنسفال والأورانج، ولكن بريطانيا بعد اكتشاف الذهب في الترنسفال والماس في الأورانج، قررت الاستيلاء عليهما، وقاوم شعب البوير، وتعاطفت معهما القارة الأوروبية خاصة ألمانيا ضد انجلترا عام 1902م وهزموا، وقد توسعت بريطانيا في إفريقيا الاستوائية فضمت نيجيريا وساحل الذهب وسيراليون وأوغندة وكينيا والصومال، واحتلت مصر عام 1882م، ثم السودان، أما فرنسا فقد أسست في النصف الثاني من القرن التاسع عشر مستعمرات واسعة في إفريقيا وآسيا، بعد أن فقدت الكثير من مستعمراتها في القرن السابق، وكان انطلاق فرنسا إلى ميادين الاستعمار خارج أوروبا إرضاء لكبريائها ووسيلة لتستعيد بها مكانتها كدولة كبرى، وخاصة بعد هزيمتها عام 1870م في الحرب السبعينية، ومعنى ذلك أن قهر الشعوب الأقل تحضرًا أصبح دليلًا على رفعة المكانة الدولية في العرف الأوروبي، وكان الاستعمار في إفريقيا يتم في كثير من مواطنه على حساب ممالك إسلامية في غرب إفريقيا مثل النيجر ومايليه علاوة على ولايتي: الجزائر في عام 1830م، وتونس 1881م والمغرب في أوائل القرن العشرين، أما في آسيا فقد استولت فرنسا على الهند الصينية، وقد فعلت نفس الشيء بلجيكا وإيطاليا وألمانيا في إفريقيا.

تسابق الدول الأوروبية على امتلاك الولايات العثمانية:

تسابقت روسيا، والنمسا، والمجر، وفرنسا، وبريطانيا، وإيطاليا على اقتسام الولايات العثمانية في أوروبا وآسيا وإفريقيا، وكانت روسيا والنمسا من أسبق الدول في انتهاج السياسة العدائية ضد الدولة العثمانية، فروسيا تريد النفاذ إلى مياه الدردنيل الدافئة كما تريد التوسع البري جنوبًا وغربًا، أما النمسا فكانت نظرية الأمن الخارجي لها تقوم على منع أي دولة من تهديدها عن طريق نهر الدانوب من ناحية مصبه على البحر الأسود؛ لذلك كانت تقاوم الدولة العثمانية لأن لها أملاكًا شمال نهر الدانوب (الأفلاق والبغدان) رومانيا حاليًا، وفي جنوب النهر بلغاريا والصرب والبوسنة، وقد اتخذ الزحف الاستعماري على أقاليم الدولة العثمانية طابعًا دينيًا بحجة حماية الأقليات المسيحية من رعايا الدولة العثمانية زعيمة العالم الإسلامي، وكانت النزعة الدينية في روسيا أكبر من غيرها، وتجلى ذلك عام 1778م عندما اقتربت الجيوش الروسية من مشارف العاصمة، وشاهد الجنود مآذن العاصمة بالعين المجردة، وكان الجنود الروس تحت تأثير الشحن المعنوي الديني يتحرقون شوقًا لإعادة الصليب لكنيسة آيا صوفيا، وعقدت الهدنة بعد قتال دام تسعة أشهر من الهزائم للدولة العثمانية المنهكة، وقد ساعد على عقد الهدنة عدم رضاء بريطانيا عن اقتحام الروس للعاصمة الإسلامية إسطنبول، وهددت بريطانيا روسيا بالحرب إن فعلت ذلك، وقد حركت بريطانيا أسطولها الضخم إلى الدردنيل في مظاهرة عسكرية، وكانت روسيا قبل ذلك بقليل قد نجحت في ضم معظم القوقاز وتركستان، وفيما بين عامي 1860 - 1868م استولت على تركستان الشرقية بما فيها من مدن إسلامية عريقة مثل: طشقند، وسمرقند، وبخارى.

وفي عام 1880م التقت الإمبراطوريات الثلاث البريطانية، والروسية، والصينية في هذه المناطق الإسلامية، كما قسمت إيران إلى منطقتي نفوذ بريطاني، وروسي. وفي قلب العالم الإسلامي اقتسمت بريطانيا وفرنسا الساحل الإفريقي مصر والسودان، واحتلت إيطاليا ليبيا عام 1911م وفي مراكش كانت

أجزاء صغيرة منها مثل: طنجة تحت السيطرة الإنجليزية، ومنطقة الريف تحت السيطرة الإسبانية، أما الجزء الأكبر فكان من نصيب فرنسا عام 1912م، علاوة على امتلاكها الجزائر وتونس كما أشرنا من قبل.

الخليج العربي:

اختلف الأمر في الخليج العربي؛ حيث قامت بريطانيا بعقد اتفاقيات أبدية مع الحكام المحليين في مسقط وأبوظبي والبحرين، لحماية المصالح البريطانية في المنطقة بصورة مطلقة بل ومهينة بالنسبة للجانب العربي، ونورد نموذجًا لإحدى هذه الاتفاقيات الساذجة المعقودة بين بريطانيا وإحدى إمارات الخليج العربي، هذا نصها من كتاب الدولة العثمانية المفترى عليها الجزء الثاني ص1052، يقول الحاكم المحلي فيها:

1 - إني لا أدخل أبدًا في قرار ولا محاورة مع أيٍّ من الدول سوى الدولة البهية الإنكليزية.
2 - بغير رضاء الدولة البهية الإنكليزية لا أقبل أن يسكن في حوزة ملكي وكيل (سفير) من دولة غير الدولة البهية الإنكليزية.
3 - أبدًا لا أسلم ولا أبيع ولا أرهن ولا أعطي للتصرف شيئًا من ممالكي لأحد إلا للدولة البهية الإنكليزية.

كيفية وظروف المد الاستعماري في إيران والهند:

في عجالة سريعة، دخل الإسلام الهند وغرب الصين، وتأسست فيما بعد ممالك وإمبراطوريات إسلامية، آخرها إمبراطورية المغول. ففي القرن الرابع عشر ظهر تيمور لنك الشهير (1336 - 1405م) الذي احتل موسكو في روسيا وفتح الهند وهزم العثمانيين وفتح الشام وبغداد، وأسس الدولة التيمورية التي استمرت حتى 1449م، ومنذ ذلك الحين تأسست دولة سلاطين المغول، ثم ظهر الصفويون في إيران (1492 - 1735م) وهي دولة شيعية حاربت

العثمانيين وناصبتها العداء بحكم اختلاف المذاهب الدينية؛ حيث إن العثمانيين سُنِيُّون مما دفع أوروبا للاستعانة أحيانا بهم ضد العثمانيين الذين كانوا يتقدمون في قلب القارة الأوروبية وحدث أن أرسلت انجلترا سفيرًا لمقابلة الشاه طهماسب خليفة الشاه إسماعيل الصفوى مؤسس الدولة الصفوية، ولكنه طرد السفير عندما علم أنه نصراني يريد أن يزيد الفتنة بين المسلمين. وكانت إيران حتى أوائل القرن السابع عشر قوة عسكرية يحسب لها حساب في ميزان القوى، وقد صادقت بريطانيا الشاه عباس في مطلع القرن السابع عشر، وساعدته في طرد البرتغاليين من جزيرة هرمز، وقد انتهت الدولة الصفوية عام 1735م، وقد سيطر الإنجليز على إيران عن طريق التجارة في القرنين الثامن والتاسع عشر، ثم اقتسمتها مع روسيا في أوائل القرن العشرين 1907م قبل أن يتفقا على الانسحاب منها، لتعود إيران دولة مستقلة ضعيفة مقسّمة بين نفوذ بريطانيا وروسيا.

كيفية الاستيلاء على الهند:

بلغت دولة الهند الإسلامية أقصى اتساع لها في أواخر القرن السادس عشر في عهد السلطان جلال الدين أكبر، وكان البرتغاليون قد أنشئوا مراكز تجارية على السواحل، وذاعت شهرة الهند بالغنى والثروات وتسامُح سلاطينها ففي عام 1608م قدم وليم هنكز حاملًا رسالة من ملك انجلترا جيمس الأول، يرجو تيسير التجارة البريطانية، ولكن البرتغاليين وشوا به ففشل في مهمته، وفي عام 1615م أقبل توماس ود الإنجليزي ونجح في الحصول على إذن بفتح مركز تجاري لشركة الهند الشرقية البريطانية، وكانت مواني التبادل التجاري بين الهنود الأوروبيين هي شوارت وكالكتا، وقد أذِنَ السلاطين للإنجليز بطرد البرتغاليين، وفي المقابل حصلوا على امتيازات تجارية أكبر.

وفي عام 1630م، طرد شاه جيهان آخر مركز للبرتغاليين في هوجلى، وبالمناسبة هذا السلطان شاه جيهان هو صاحب قصة الحب والوفاء لزوجته ممتاز محل التي بنى لها مدفنا أصبح أحد عجائب الدنيا السبع، وهو تاج محل

في منتصف القرن السابع عشر، وقد حاولت بعد زيارته مرتين معرفة المعماري الذي صممه ومَن نفذ هذا العمل، فلم أُوفق إلا لاسم المنفذ وهو المهندس/ عيسى من إيران، وذلك حسب ما جاء بالموسوعة الأمريكية كولير.



تاج محل بمدينة أجرا

كان من العسير الحفاظ على هذه الدولة المغولية الواسعة في الهند، وقد تحارب أبناء السلاطين على العرش. مما أغرى الثوار من السيخ وطائفة المراتا بتشجيع من الإنجليز بالخروج على طاعة السلاطين المسلمين. فقد كان همّ الإنجليز الأول هو إبعاد البرتغاليين والفرنسيين عنها، فبدءوا بالتقرب لسلاطين دلهي للحصول على الامتيازات التجارية التي كسبوا منها أموالًا طائلة، ثم تحولت هذه المراكز إلى مستعمرات بأسلوب شراء الأراضي الواسعة.

فمثلًا اشترت شركة الهند الشرقية ميناء بومباي ودخلوا في صراع مع الفرنسيين (أثناء حرب الوراثة النمساوية 1740م) وفي بعض الأحيان تحالف الفرنسيون مع أمراء الهند ضد الإنجليز، مثل آخر سلطان لميسور واسمه تيبو، فقد أرغموه على التنازل عن نصف أراضيه لبريطانيا، وبذلك أصبح الإنجليز قوة حقيقية سياسية وعسكرية واقتصادية، وخلال القرن التاسع عشر أخذ الإنجليز في التوسع وحاولوا النفاذ لأفغانستان، حيث إن قوة المسلمين في الهند كانت دائمًا ترتكز على قواتهم في بلاد الأفغان فمن هناك كانوا يأتون بخيرة جنودهم. والجدير بالذكر أن دولة الهند الإسلامية ذات أصول أفغانية،

ولكن الإنجليز هُزِمُوا هناك وعادوا إلى الهند، وقد تنازلت شركة الهند الشرقية عن أراضيها الواسعة للحكومة الإنجليزية، وأصبحت أملاكها مستعمرة بريطانية في الهند. واستمر سلطان دلهي يمارس سلطاته الرمزية حتى عام 1858م، حيث قامت ثورة عارمة ضد الإنجليز بقيادة المسلمين الهنود، نتيجة الاستغلال الجشع الذي من مظاهره القضاء على الصناعات المحلية وأدوات الحرفيين خاصة النسيج حتى يضطر الناس إلى بيع الحاصلات الزراعية، وخاصة القطن والقمح بأرخص الأسعار، ويصبح المواطن الهندي في كافة مجالات حياته معتمدًا على الإنجليز.

وخلال هذه الثورة التي قمعت بكل عنف اقتادوا آخر سلاطين المغول وحاكموه محاكمة صورية، وكان في الثانية والثمانين من عمره، وأدانوه بدعوى مساندته للثورة وقاموا بنفي السلطان بهادر شاه إلى رانجون، وأعلنوا منذ ذلك الوقت أن الهند مستعمرة بريطانية يحكمها نائب الملك الذي يقيم في مدينة جديدة إلى جانب دلهي القديمة وأسموها نيودلهي، وهي العاصمة الحالية.

كان الإنجليز يحرصون على إبعاد المسلمين من كل الوظائف ذات المسئولية ويضعون مكانهم الهندوس أو السيخ، واتخذوا سياسة معادية للإسلام علنًا، حتى إن اللورد آلن بورد أعلن أن العنصر الإسلامي في الهند هو عدو بريطانيا الأكبر، وأن السياسة البريطانية في الهند تقوم على تقريب العناصر الهندوسية للتغلب نهائيًا على نفوذ المسلمين، وقد وضع الإنجليز أيديهم على الأراضي التي كانت بحوزة المسلمين وأعطوا جباة الضرائب من الهندوكيين حق تملك الأراضي التي يستطيعون انتزاعها من أيدي المسلمين، وربما كان ذلك من أهم الأسباب التي دفعت المسلمين إلى التجمع في بلاد السند والبنجاب وكشمير والبنغال، للسعي لإقامة دولة خاصة بهم؛ لأن العداوة التي غرسها الإنجليز وسَعَوْا إليها في قلوب الهندوس والسيخ ضد المسلمين - كانت عميقة الأثر.

ويمكننا القول إنه منذ هبوط الاستعمار البرتغالي على الساحل الغربي للهند وفي منطقة الخليج العربي، بدأت الحرب الاقتصادية بين البرتغال والشرق

الإسلامي، فقد خصص فاسكو ديجاما جزءًا من أسطوله عند مدخل البحر الأحمر لمنع وصول السفن العربية والإسلامية - وبصفة خاصة السفن المصرية - إلى الهند، وزاد الأمر سوءًا باحتلال البرتغال جزيرة سومطره أمام القرن الإفريقى. وقد سبقت الإشارة إلى تحويل طرق التجارة إلى الشرق بالدوران حول رأس الرجاء الصالح وبذلك تم إلغاء الطريقين السابقين وهما طريق الخليج العربي وطريق البحر الأحمر.

وقد اتخذ البرتغاليون جيوبًا استعمارية على سواحل آسيا وإفريقيا، ووضعوا فيها حاميات عسكرية لنهب خيرات البلاد، وتبعهم في ذلك الهولنديون حيث استعمروا جزر الهند الشرقية وهي (إندونيسيا الآن)، ثم الفرنسيون والإنجليز. وقد استحق القرن التاسع عشر اسم قرن الاستعمار الحديث، فقد اقتسم الأوروبيون العالم القديم بطريقة أو بأخرى ما بين مستعمرات صريحة أو انتداب أو مناطق نفوذ أو تحالفات غير متكافئة.

وقد اشترك بفاعلية في عملية الاستعمار رجال الدين المسيحي الأوروبيون وظهر مبشرون استعماريون لا هَمَّ لهم إلا محاربة الدين الإسلامي والإساءة إليه، وأشهر هؤلاء: الكاردينال الفرنسي لافيجيري، ودي برازا، ومارشال، ولابيير، وكلهم فرنسيون، كما اشتركت البابوية في روما فأنشأت على الورق كارديناليات وأسقفيات في إفريقيا ورصدت لذلك أموالا طائلة.

وإلى جانب هؤلاء ظهر في أوروبا سياسيون اجتهدوا في بناء أمجادهم الشخصية معتمدين على توسيع النفوذ الاستعماري لبلادهم مثل رئيس وزراء بريطانيا بالمرستون، وسيسل رودوس الذي سُميت روديسيا على اسمه، واللورد كرومر، والجنرال الدن جورست الإنجليزيين، وجول تيرى، والمارشال ليرتي الفرنسيين.

والحقيقة أن الاستعمار جاء نتيجة طبيعية لمقدمات طبيعية بين عالم قوي وعالم ضعيف. ومن المعروف أن العوامل الحقيقية التي تصنع جزئيات التاريخ

هي عوامل السياسة الداخلية، الإدارة، الاجتماع، الاقتصاد، الثقافة وهذه على وجه التحديد هي النواحي التي لم يحسن المسلمون التصرف فيها خلال القرون الثلاثة الأخيرة، حيث أخذت الطبقات الحاكمة في الضغط على الشعوب بشدة طمعًا ونهبًا للأموال، وتحولت الدول الحاكمة إلى استبداديات يتحارب أفرادها على المُلك أو الإمارة؛ لأنه كان الوسيلة الكبرى للنهب، ولو أدى ذلك إلى استعانة أحدهم بالدول الاستعمارية لتثبيته على عرشه والتضحية بمستقبل شعبه في ظلام الاستعمار والتبعة.

مناطق النفوذ الاستعماري في إفريقيا وآسيا في نهاية القرن التاسع عشر:

(أ) **منطقة النفوذ الفرنسي**: تشمل الشمال الإفريقي كله عدا ليبيا، وكذا إفريقيا الغربية المدارية والاستوائية والوسطى، باستثناء ما أخذته انجلترا وغيرها من البلاد الأوروبية، علاوة على جزيرة مدغشقر، وجيبوتى في شرق القارة الإفريقية، أما في آسيا فكان لها شبه جزيرة الهند الصينية كلها.

(ب) **منطقة النفوذ البريطانية**: تشمل أجزاء من إفريقيا الوسطى والشرقية، وناميبيا، وسيراليون، وساحل الذهب، ونيجيريا، وجنوب إفريقيا، ومصر والسودان، أما في آسيا فكانت الهند كلها دُرَّةُ التاج البريطاني ومستعمرة هونج كونج في الصين.

(جـ) **منطقة النفوذ الألماني**: تشمل الكاميرون، التوجو، وجنوب غرب إفريقيا وتنجانيقا، ورواندا، وبورندي في شرق القارة.

(د) **منطقة النفوذ البجيكى**: تشمل كل بلاد الكونغو (زئير).

(هـ) **منطقة النفوذ الإسباني**: تشمل منطقة الريف المغربية، والصحراء الإسبانية،
وغينيا الإسبانية، علاوة على الفلبين في آسيا حتى عام 1898، ثم انتقلت للولايات المتحدة الأمريكية.

(و) **منطقة النفوذ البرتغالي**: تشمل أنجولا وموزمبيق والرأس الأخضر في

إفريقيا، وجيوب صغيرة على سواحل الهند والهند الصينية في آسيا.

(ز) **منطقة النفوذ الإيطالي**: تشمل إريتريا والصومال وليبيا، ثم الحبشة فيما بعد.

(ح) **منطقة النفوذ الهولندي**: لم يكن لها مستعمرات في إفريقيا، ولكن استعمرت إندونيسيا في آسيا.

(ط) **منطقة النفوذ الروسي**: تشمل بلاد سيبريا حتى المحيط الهادي، ثم بلاد آسيا الوسطى الإسلامية (التركستان وما حولها).

أهم أحداث عصر النهضة:

جاءت الحروب الصليبية مخيبة لآمال الأوروبيين مما زعزع مركز البابوية أمام العلمانيين وحركة الإنسانيين، الأمر الذي مهد للإصلاح الديني الذي انتهى بالتحرر من سيطرة الكنيسة إلى حد كبير بعد تعرضها للنقد الشديد. وقد واكب ذلك حركة كبيرة لإحياء العلوم وشملت النهضة كل جوانب الحياة الأوروبية في محاولة لإعادة اكتشاف الحياة ذاتها بعيدًا عن الخرافة وتسلط رجال الدين.

اتخذ المثقفون اللغة اللاتينية لغة مشتركة بينهم وكان لاختراع آلة الطباعة أثر كبير في نشر المعارف، ويمكن القول قطاعات عريضة من الشعوب بدأت في المشاركة في صناعة التاريخ كما ألهبت الانتصارات الحربية والكشوف الجغرافية خيال الأوروبيين في استثمارها، سواء في زيادة الموارد وتكوين إمبراطوريات فيما وراء البحار، أو فرض التجارة في العالم القديم، ونتيجة لذلك كله حدثت طفرة في اعتزاز الأوروبي بنفسه، مما غرس فيهم الشعور بالتفوق على شعوب الحضارات الأخرى بَدْءًا من القرن السابع عشر.

حفل القرن السادس عشر بأحداث جسيمة في ميدان الصراع بين الشرق والغرب بعد طرد المسلمين من إسبانيا، فقد تم اكتشاف أمريكا واستراليا

وطريق رأس الرجاء الصالح، والكشوف الجغرافية الأخرى، وظهر البرتغال كقوة بحْرية كبرى، وتفجر الصراع على طرق التجارة وتصدت الإمبراطورية العثمانية للاستعمار البرتغالي فوق مسرح عمليات كبير شمل الساحل الإفريقي والبحر الأحمر والخليج العربي وسواحل الهند، وكان موقف العثمانيين في شرق أوروبا يمثل ضغطا على أوروبا حتى قرب نهاية القرن السابع عشر، وتمكنت بالتعاون مع الآخرين من القضاء على الاستعمار البرتغالي في الشرق، لكن الأحوال الداخلية في الولايات الإسلامية بدأت تسوء في القرن السابع عشر، في الوقت الذي بدأت أحوال أوروبا في الازدهار علومًا، وفنونًا في عصر الرينسانس.

وقد لعبت الفنون: الموسيقى، والنحت، والتصوير، دورًا مهمًا في إبداعات الأوروبيين في هذه الفترة، وتأكيد قيم التحرر من القيود، ووصل التراث القديم بحاضرهم الآخذ في الازدهار، في نفس الوقت كانت الفنون الشرقية من موسيقى، وفنون تشكيلية ذات أثر شعبي محدود، ورغم ازدهارها في بعض الأقطار الإسلامية فقد نمت رأسيًا في أحضان الطبقات الحاكمة من ناحية التكنيك والحرفية، ولكنها لم تنم أفقيا بالنسبة للموضوعات التي عَبّرَتْ عنها، كما أن ضغط رجال الدين (الذين كان لهم نفوذ كبير في الإمبراطورية العثمانية) على الفنانين كان كبيرًا، وظل الفنان يمثل مرتبه متدنية في المجتمع الإسلامي وما زال بيننا حتى اليوم من يعتقد بتحريم الموسيقى مثل الراهب المتزمت سافونا رولا في العصور الوسطى، وأنها ملهاة عن ذكر الله، وأنها مزمار الشيطان، ومن يستمع للموسيقى يصب في أذنيه رصاص مصهور يوم القيامة، كذلك كانت مقاومة رجال الدين للنحت والتصوير أشد. وقد تغيرت هذه النظرة في مصر في أوائل القرن العشرين على يد الإمام محمد عبده مفتي الديار المصرية الذي أباح النحت والرسم والموسيقى بل شجع الفنون عمومًا، وقد أفرغ الفنان المسلم القديم طاقاته في الزخارف الهندسية والنباتية حتى استقل هذا الفن بنفسه، وأضافت الحضارة الإسلامية فنًّا جديدًا لم يكن معروفًا على هذا النحو.

أما الحركة العلمية فقد أصابها الجمود بعد سقوط الدولة المملوكية في مصر تلك الدولة التي حافظت على التراث العلمي الإسلامي باللغة العربية، وكان آخر العمالقة ابن خلدون في القرن الخامس عشر. وقد حاول الأتراك ترجمة التراث العربي الإسلامي للغة التركية التي فرضوها على ولاياتهم. ومن المعروف أنه عندما تتكلم السلطة لغة غير لغة العلم التي كانت العربية حتى القرن الرابع عشر، ينكمش العلم ويتجمد، ومعنى ذلك أنه في الوقت الذي كان فيه الأوروبيون المثقفون والعلماء يتفقون على جعل اللغة اللاتينية لغة مشتركة بينهم، كان العكس يحدث في الشرق، مما حرم الأمة من تراثها المكتوب باللغة العربية، تلك اللغة التي كان يمكن أن تظل لغة العلم بين شعوب الهند الإسلامية المتكلمين بالأُردية، وشعوب إيران وأفغانستان المتكلمين بالفارسية، والشعب التركي المتكلم بالتركية.

وقد أثر إهمال اللغة العربية كلغة مشتركة بين المسلمين تأثيرًا سلبيًّا على الحركة العلمية، وكان سببًا في تنامي الجمود في القرون التالية. أما بالنسبة لأوروبا فقد توالت الاكتشافات العلمية والجغرافية والرحلات إلى الشرق، ولمعت أسماء العلماء مثل: بويل، وباسكال، ونيوتن، وغيرهم كثير في أواخر القرن السابع عشر، وانتشر التعليم، وأصبح تحصيل المعرفة أو حتى التظاهر بذلك قيمة اجتماعية، كذلك بالنسبة لتحسين أداء الآلات لزيادة جودة المنتجات، وإن كانت بسيطة (قبل الثورة الصناعية). وانتشر هواة العلم من كافة الطوائف حتى إن رجال الدين والكهنوت اشتغلوا بالعلوم التطبيقية والطبيعية، مثل باسكال، وغيره فوصلت روح النهضة لقطاعات كبيرة من المواطنين، كل يريد أن يسهم بنصيب في إضافة شيء وإن لم يسهم شجع واهتم بالمبدعين وأخبارهم، حماسة للعلم، وحماسة للفنون، وللآداب ولكل الأفكار الجديدة، وكما سبق أن أشرنا، كان الأوروبيون يعيدون اكتشاف الحياة ذاتها.

وخلال القرن السادس عشر والسابع عشر، نجحت الحكومات الملكية في أوروبا

في مواجهة سلطة النبلاء والأشراف، خاصة مع اتساع نطاق الإدارة والإشراف، وأقام الملوك الإسبان مجالس شورى وتبعتهم أوروبا في ذلك. في الوقت الذي اعتمدت فيه الدولة العثمانية على نظام الطاعة الواجبة من الأرقاء؛ هذا النظام الذي ثبت فشله في النهاية.

وخلاصة القول إن النفوذ الأوروبي أصبح واضحًا قرب نهاية القرن الثامن عشر، وغدا الغرب يمثل قوة متطورة صاعدة في كافة المجالات، والشرق يمثل قوة جامدة متعثرة، أعناق البشر فيها ملوية للوراء تحت سيطرة رجال الدين المساندين لحكام مستبدين. وجاءت الثورة الصناعية في نهاية القرن الثامن عشر في بريطانيا مواكبة للثورة الفرنسية ذات الأثر البالغ سياسيًّا واجتماعيًّا، وأثمرت هي والثورة الأمريكية مبادئ حقوق الإنسان وازدهرت أوروبا الغربية اقتصاديًّا، وزحفت حركة التصنيع شرقًا في أوروبا حتى وصل شيء منها إلى روسيا.

وبرزت حاجة النهضة الأوروبية للاستعمار لزيادة الموارد، وفرض المنتجات، وما يستلزم ذلك من قهر شعوب أخرى واستغلالها. وتنافس في ذلك الأوروبيون، وقد استحق القرن التاسع عشر اسم قرن الاستعمار الحديث؛ حيث اقتسم الأوروبيون العالم بطريقة أو بأخرى، ما بين مستعمرات صريحة، أو انتداب، أو تحالفات غير متكافئة.

الفصل الثالث: مقاومة العالم الإسلامي للعدوان الغربي

- القسم الأول: الدولة العثمانية في القرن السابع عشر.
- القسم الثاني: ظروف النهضة المصرية في عهد محمد علي باشا.
- القسم الثالث: الحركات الدينية السياسية.
- القسم الرابع: محاولات السلطان عبد الحميد الإصلاحية والحرب العالمية الأولى.
- القسم الخامس: ما بعد الحرب العالمية الثانية.

القسم الأول: الدولة العثمانية في القرن السابع عشر

لم يكن العالم الإسلامي متخلفًا في العلوم والآداب في القرن الرابع عشر والخامس عشر وجزء من القرن السادس عشر، فقد كانت الكتب العربية تدرس في جامعات أوروبا طوال هذه القرون، وظل بعضها يدرس حتى منتصف القرن الثامن عشر، خاصة كتب الطب والجغرافيا والتاريخ والاجتماع ولا ينبغي أن ننسى أن الشريف الإدريسي هو صاحب أول خريطة للعالم وليس بطليموس وقد ثبت ذلك مؤخرًا، وقد عاش الشريف الإدريسي في القرن الرابع عشر. كذلك العلامة ابن خلدون الذي ظل معترفًا به كأعظم مؤرخ وعالم اجتماع حتى القرن التاسع عشر كما سبق أن أشرنا في موضع آخر. كذلك لم يكن العالم الإسلامي متخلفًا في فنون العمارة، ويدل على ذلك أن تاج محل بالهند، وهو أحد عجائب الدنيا السبع، من نواتج القرن السابع عشر، هذا بالإضافة إلى فنون العمارة الأخرى الواضحة في المساجد والقصور في العالم الإسلامي. لكن التخلف والجمود بدأا في القرون الثلاثة الأخيرة؛ حيث كانت الطبقات الحاكمة في معظم العالم الإسلامي منفصلة عن شعوبها، وكانت تعتمد على الولاء

الديني والاستعانة برجال الدين في قهر الشعوب واستغلالها بدرجات مختلفة، علاوة على إرهاق الأمة في الحروب حتى القرن السادس عشر بالنسبة لمصر والشام والساحل الإفريقي وجزر البحر المتوسط.

كان الحكم الارستقراطي العسكري (عهد المماليك) مترفعًا عن الشعوب المحكومة ولا يؤمن بأي دور لها سوى دفع الضرائب والدعاء للسلطان بالنصر ثم جاء الحكم التركي ذو النزعة العسكرية والدينية أيضًا، فأضاف أثقالًا أخرى على الشعوب المحكومة.. وكان هذا بيت القصيد في بداية الجمود الفكري والثقافي، خاصة بعد إهمال الدولة العثمانية للغة العربية، وقصر استخدامها على الأمور الدينية في ولاياتها، مما أثر على الحركات العلمية، ولا يعني ذلك إنكار الإسهامات التركية في تنظيم الدولة، فقد قام السلطان العثماني سليمان القانوني بوضع أنظمة دقيقة للإدارة نهضت نهضة كبيرة بالإمبراطورية في القرن السادس عشر، لكن نظام الأرقاء الذي ابتدعه الأتراك كان نظامًا فاشلًا وخلف تقاليد عسكرية ذات أثر سلبي سنتعرض له فيما بعد. ففي الوقت الذي بدأت فيه أوروبا الخروج من ظلمات الاقطاع ومن الإرهاب الديني متمثلًا في سلطة الكنيسة منذ القرن الخامس عشر كان النظام التركي يتأصل فيه حكم الصفوة المدعومة بسلطة رجال الدين والموجه لحرمان الشعوب من أي نوع من الحرية. وقد بدأ الملوك الأوروبيون بعد الإصلاح الديني إدراك أهمية وقيمة نشاط الأمم والشعوب، فوقفوا تدريجيًا مع شعوبهم ومنحوها بعض الحريات في التجارة مقابل إتاوات، كما شجعوهم على بناء السفن وجلب البضائع والثروات وركوب البحر وغزو البلاد والحصول على الأموال باعتبار أن ذلك كله يشكل مصالح مشتركة بين الملوك والشعوب، وأدى هذا إلى نمو الشركات التجارية ثم قيام الدول بحماية شركاتها كما رأينا في شركة الهند الشرقية التي قامت بدور مهم في غزو الهند وجعلها مستعمرة بريطانية، فهذه الشركة هي التي اشترت ميناء بومباي ثم تنازلت عنه للحكومة، لتكوين أول مستعمرة بريطانية في الهند.

كذلك تنبه الأوروبيون لأهمية عوامل السياسة الداخلية، والاقتصاد، والاجتماع، والثقافة، وهي على وجه التحديد النواحي التي أهملتها الإمبراطورية العثمانية وولاياتها، وظل شغلها الشاغل إلى حد كبير في الحكم هو تأكيد الولاء للسلطة وقهر الشعوب، ذلك علاوة على أن رجال الدين فيما بعد القرن السادس عشر - ولأسباب عديدة أهمها ضعف استيعابهم لتراث الأمة الإسلامية العربي واستئناسهم بالقرب من السلطة وقفوا جامدين عند اجتهاد وفقه عصور سابقة، بل أقفلوا باب الاجتهاد فأسهم ذلك فيما أصاب الدول الإسلامية من الجمهود والتخلف العام.

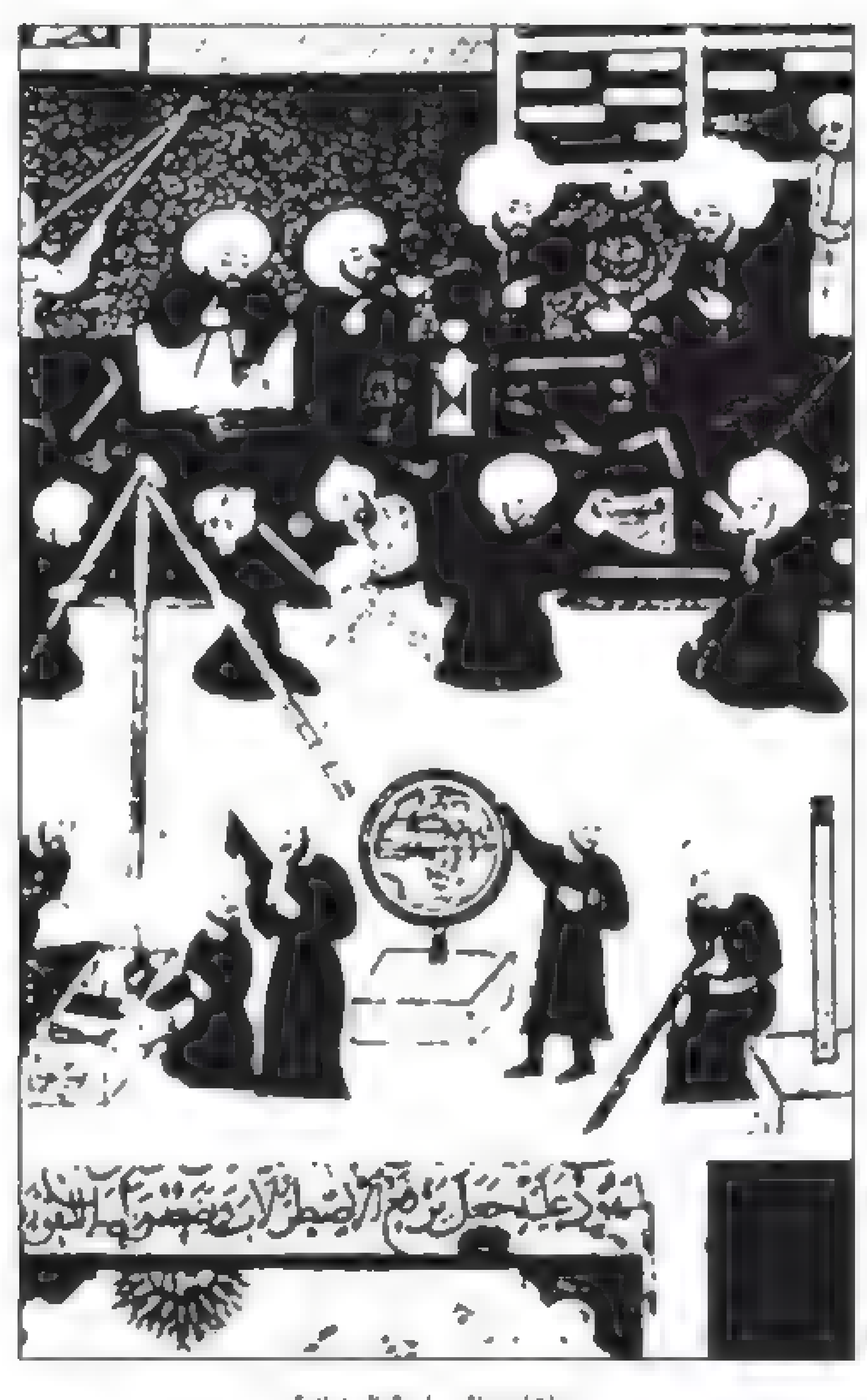
ورغم ذلك كله فإن رياح التغيير التي هبت على أوروبا في عصر النهضة وصل منها شيء ليس بالقليل للإمبراطورية العثمانية وولاياتها. وقد تنبه بعض السلاطين والولاة بأن الإصلاح ومواكبة العصر ضرورة ولكن ذلك كان بعد فوات الأوان كما سيأتي شرحه فيما بعد.

كانت الدولة العثمانية على احتكاك دائم بالغرب وعلى دراية بالأخطار المحدقة بالعالم العربي والإسلامي، وإن لم تكن على دراية كافية بأسباب بَدْء تدهورها في القرن السابع عشر، بعد بلوغها أقصى اتساع لها في نهاية القرن ثم بدأ الضعف يدبّ في أوصالها تدريجيًا، لكنه ليس من الإنصاف المبالغة في تقدير تخلف الدولة العثمانية، فقد كانت مظاهر الانتعاش تظهر جلية عندما يتصدى للحكم سلطان واعٍ يعاونه مجموعة من الصدور العِظام اسمًا وفعلًا (الصدر الأعظم هو كبير الوزراء).

فعلى سبيل المثال كانت إسطنبول في أواخر القرن السادس عشر أكبر مدينة في العالم، وكان بها حديقة حيوانات كبيرة، وحدائق ونافورات. وفي القرن الثامن عشر زار العديد من الأوروبيين العاصمة العثمانية للوقوف على أحوالها، ومن ضمن هذه الزيارات زيارة قامت بها الليدي ماري. دي مونتاجي Mary worrlcy Mantagu عام 1720م، ولاحظت كيف يقاوم العثمانيون انتشار مرض الجدري بالتطعيم الذي لم يكن معروفًا لدى الغرب في هذا الوقت، حيث كان

يتم تطعيم الأصحاء عن طريق التشريط بجرعة مخففة من المرض، فتكسب الأصحاء مناعة ضده، وكانت هذه الزيارة هي مدخل تطور الوقاية بالتطعيم بعد تطويرها في أوروبا في نهاية القرن الثامن عشر على يد إدوارد Edword Jenner 1744 - 1823.

ومن مظاهر القوة قيام الدولة بتسليح نفسها وبناء سفنها الحربية حتى القرن الثامن عشر. ومن المعروف أن القوة العسكرية تُعد ناتجًا من نواتج التقدم العلمي، وقد زرت بنفسي المتحف البحْري والحربي بإسطنبول، وقد لفت نظري شيئان:



حلقات الدراسة العثمانية

الأول: دقة الخرائط التركية، وهي مكتوبة باللغة التركية وبالحروف العربية.

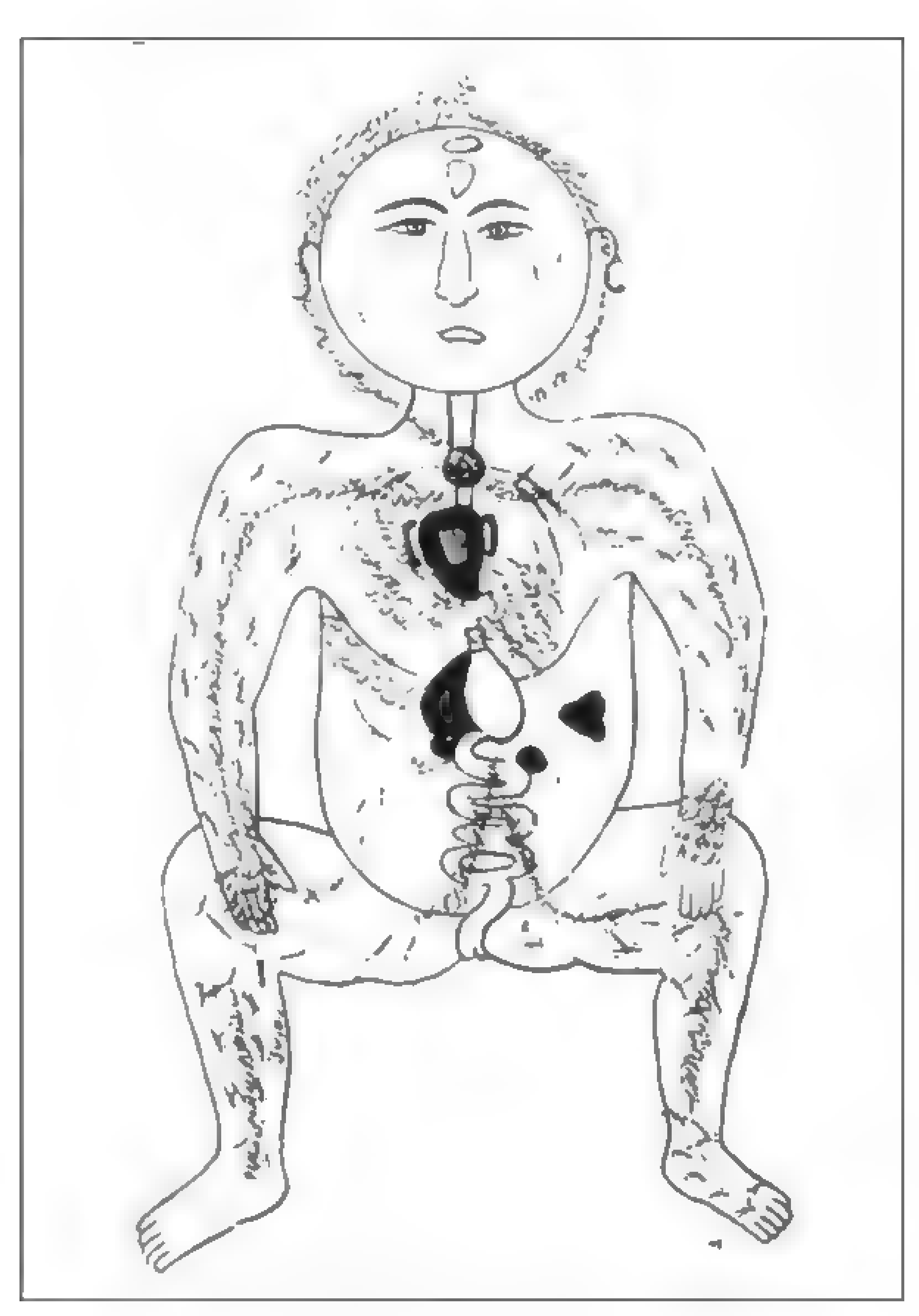
الثاني: كتاب في العلوم الرياضية مفتوح على رسومات ومعادلات القطع الزائد والقطع الناقص، وهما على علاقة كبيرة بعلم المقذوفات، والكتاب مترجم من العربية إلى التركية في القرن الرابع عشر.

وقد شاهدت في متحف آخر صناعة ساعات دقيقة وبوصلات من إنتاج القرن التاسع عشر (وبالمناسبة أذكر القارئ بأن ساعة البندول اختراع مصري لابن يونس المصري وقد أشرنا لذلك من قبل).. ويبدو أن العالم الإسلامي قد تعرض لحملة تشويه كبيرة من الغرب بعد ظهور عوامل الضعف في الدول العثمانية وبَدْءِ الثورة الصناعية في أوروبا بنهاية القرن الثامن عشر، وربما يكون الغرض من هذه الحملة التي كانت تبالغ في تصوير تخلف العالم الإسلامي ووصم كل ما هو إسلامي بالتخلف، علاوة على الصفات المتدنية البعيدة عن التحضر -هو تهيئة الرأي العام لدى الشعوب الأوروبية لتقبل فكرة الانقضاض على العالم الإسلامي وتمزيقه باعتباره وثنيًا غير متحضر، ومن هنا جاء إنكار كل إسهام محمود لهذه الأمة.

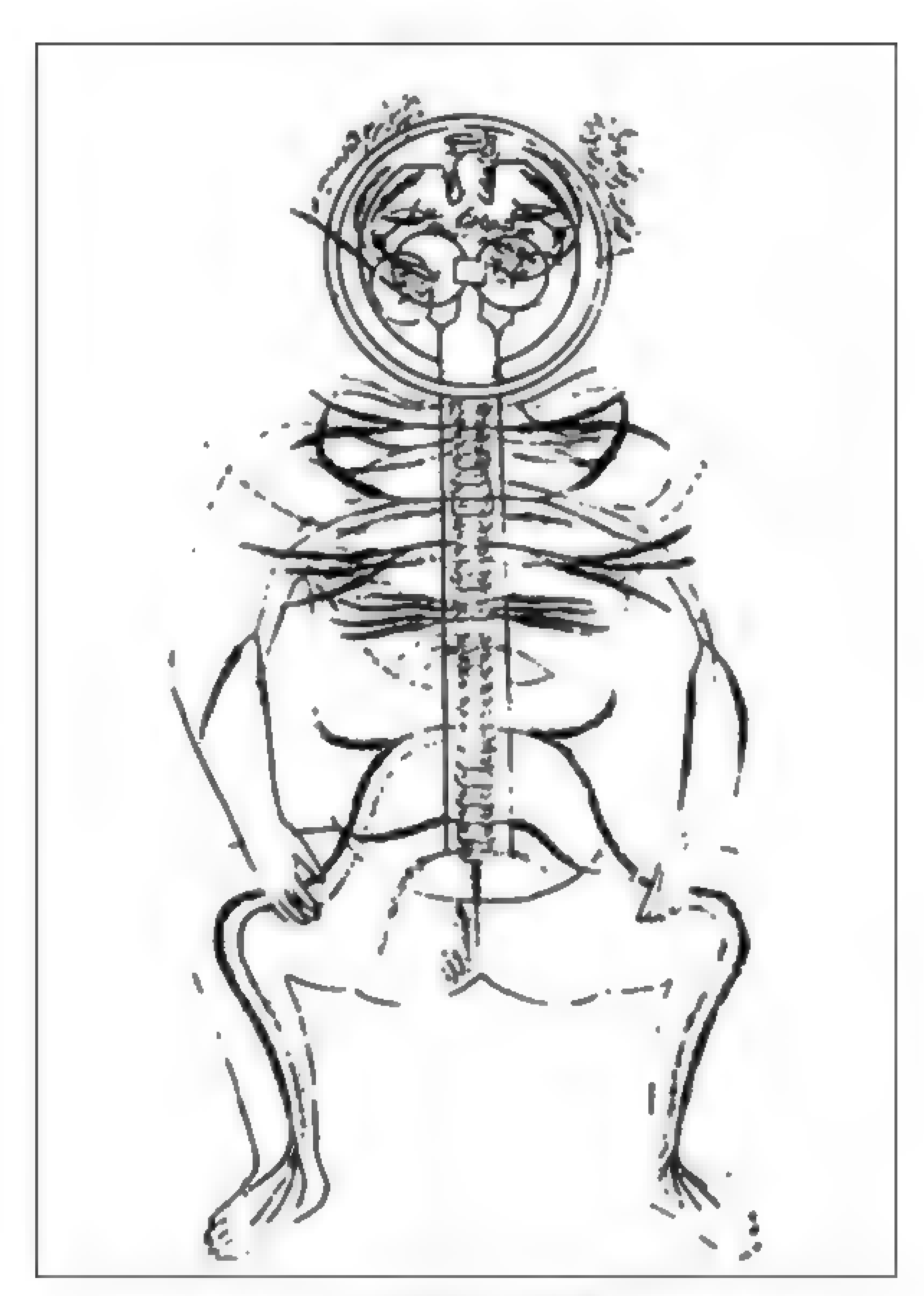
وفي أثناء زيارتي لإسطنبول الثانية عام 1991م، تعرفت إلى مدير مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلو الذي دعاني لزيارة المركز، والتعرف على الجهود العظيمة البحثية في التراث الحضاري الإسلامي، وقد زودني سيادته بمعلومات مهمة في هذا الصدد. وقد سعدت بإيمانه بفكرة تعريف الجيل الحاضر بالتراث العلمي والثقافي الإسلامي في العصور المتأخرة. إن هذا المركز البحثي وإن كان تابعًا لمنظمة المؤتمر الإسلامي ويمول من الحكومات الإسلامية لكنني أرى ضرورة اشتراك الشعوب والأفراد والجمعيات غير الحكومية في الدعم المادي لهذا المركز؛ لخطورة دوره في بعث صحوة حضارية إسلامية، هذا ما أؤمن به وأدعو إليه. وقد وعدني سيادته بإهدائي نسخة من كتاب كان تحت الإعداد أثناء زيارتي في نقل المعلومات الحديثة والتكنولوجيا في العالم الإسلامي، ووصل إليّ هذا الكتاب أثناء مراجعتي النهائية لكتابي هذا؛ وأقدم لكم بعض الصور مما جاء به في عجالة سريعة.

والدكتور أكمل الدين قضى جزءًا من حياته بالقاهرة، ومعروف في الدوائر العلمية بمصر أكثر الله من أمثاله.

ولقد لفت نظري أثناء تصفح الكتاب المذكور بعض الصور التي أنقلها إليكم، وهي أشكال ابن منصور التشريحية، وهو كما جاء بالكتاب منصور بن محمد بن أحمد المتوفي عام 1386م، وهي تدل على رقي هذا العلم في أواخر القرن الرابع عشر. كما لفت نظري صورتان للهياكل العظمية لعالم فارسي على ما يبدو في كتاب اسمه «مرآة الأبدان» Miratul-Ebdan، والاسم مكتوب في أسفل الصورة. وكل هذا يدل على أن العالم الإسلامي لم يكن متخلفًا كما يدعي البعض.



أشكال منصور التشريحية



الجهاز العصبي في أشكال مصور





تدهور الدولة العثمانية ومحاولات الإصلاح:

في أواخر القرن الثامن عشر وعلى ضوء الواقع الذي لا يمكن إخفاؤه، ظهرت الحاجة لإصلاح الدولة، وقد كانت هناك محاولات ولكنها لم تأت بالثمرة المرجوة، نتيجة للضغط المستمر من أعداء الدولة علاوة على عمق الفساد وشدة التخلف عن العصر.. فقد أراد السلطان سليم الثالث مثلا أن يساير حركة النهضة الأوروبية التي اجتاحت العالم عقب الثورة الفرنسية، ومن قبلها الثورة الأمريكية فقرر إدخال بعض الإصلاحات الجِذْرية التي من أهمها إصلاح نظام الجيش وإنهاء نظام الإنكشارية، ولكنهم تآمروا عليه وتعاون معهم رجال الدين فأصدروا فتوى بخلعه وسجنه واختاروا بدلًا منه السلطان مصطفى الرابع الذي أمر بقتل سليم، ثم ما لبث أن قتلوه هو نفسه بعد ذلك، وجاء السلطان محمود الثاني عام 1800م الذي تمكن أخيرًا من إبادة الإنكشارية عام 1826م. ونلاحظ قرب الفترة الزمنية لعمل مماثل قام به والي مصر محمد علي باشا عندما تخلص من المماليك في العقد الثاني من القرن التاسع عشر، وقد جاءت

محاولات الإصلاح مبتورة وغير مستكملة، ومع ذلك قامت عدة محاولات إصلاحية في تركيا ذاتها وفي بعض الولايات العثمانية، وكان أهم محاولة هي المحاولة المصرية بعد الحملة الفرنسية، ومحاولة السلطان عبد الحميد في تركيا، كما سيأتي ذكره بعد.

كما قامت حركات دينية سياسية في بعض الولايات أترك الحكم عليها للقارئ.

وقد دأبت الدول الأوروبية على عرقلة الحركات والمحاولات الإصلاحية بشتى الوسائل، والتدخل في شئون الدولة العثمانية بشتى الحجج مثل حماية الأقليات المسيحية، والحصول على امتيازات خاصة، مما أضر بالاقتصاد العثماني والإدارة العثمانية القاصرة أصلًا.

وقد أسرف الأوروبيون في إساءة استخدام هذه الامتيازات ودفع الدولة للاستدانة بفوائد عالية، فإذا واكب ذلك إثارة العديد من الفتن بين الشعوب العثمانية؛ فلنا أن نتصور فاعلية معاول الهدم التي تعرضت لها الدولة، وقد ذهب الأوروبيون في ذلك شأوًا بعيدًا لدرجة تدبير المذابح الجماعية للأقليات سواء أكانت مسيحية أم إسلامية.

كما ازداد النشاط التبشيري سواء أكان كاثوليكيًا مدعومًا من فرنسا وإيطاليا أم بروتستنتيًا مدعومًا من انجلترا وأمريكا.

وبينما كان الغرب يستكمل بناءه الصناعي والتنموي كانت يده الأخرى تحمل السلاح لإجهاض أية محاولة إصلاحية في العالم الإسلامي، وشغله بالدفاع عن حياته ووجوده.

هذا إلى جانب الأسباب الداخلية المعوّقة للإصلاح المتمثلة في تحكم الأرستقراطية العسكرية في شعوب الأمة واحتقار الرعايا غير الأتراك. فقد كان الباشا التركي الحاكم لولاية ما هو المسئول عن الدفاع عنها عسكريًا، وحفظ النظام الداخلي، والمسئول أيضًا عن الإدارة وجباية الضرائب وكانت يد الحكم

ثقيلة بوجه عام وقد اشتهر الأتراك بالعسكرية العثمانية التي كان لها بعض الميزات في القتال ضد الأعداء مما كان يجعلهم أحيانًا يقاتلون بعناد يفوق بكثير الإمكانات المادية المتاحة، ولكن احتقار العسكريين للمدنيين في كل الأقاليم وعلى مر العصور منذ المماليك الأيوبيين وربما حتى الآن، جعل الأمل في إقامة حكم مدني حقا وصدقا حُلمًا بعيدًا.

لقد غيب هذا الواقع عن العقول مفهوم القوى الشاملة للدولة الحديثة الذي تشارك فيه الشعوب، ويعتمد على القوة الاقتصادية، والقوة الدبلوماسية، والقوة المعنوية، والقوة العسكرية.. واقتصر الفهم دائمًا على القوة العسكرية وعقيدة الجهاد، الأمر الذي أورث الأمة الإسلامية حتى الآن حكومات عسكرية أو شبه عسكرية تتعالى على نظم الحكم المدنية، فكانت الظواهر العامة المشتركة في العالم الإسلامي في القرن التاسع عشر هي:

1 - وجود حكم أرستقراطي عسكري ممثل في طبقات حاكمة مترفعة عن الشعوب ومنعزلة عنها.
2 - مساندة رجال الدين للصفوة الحاكمة مقابل وضع اجتماعي أفضل.
3 - تغلغل النفوذ الأجنبي عن طريق الامتيازات الأجنبية، وإغراق الدول الإسلامية في الديون الغربية.
4 - توقف الاجتهاد في الفقه الإسلامي عند عصور سابقة، والاهتمام بفقه الفروع أساسًا، فأصبحت الثقافة نقلية تقليدية بوجه عام.
5 - زيادة مصروفات الطبقات الحاكمة مع قلة الموارد وانعكاس ذلك على الشعوب بإرهاقها بالضرائب.
6 - عدم وجود لغة مشتركة عامة، حتى بين المثقفين أنفسهم جعل كل أقليم يعيش ثقافة مختلفة.
7 - التشكيك في الأفكار الغربية باعتبارها ضد الدين الإسلامي.
8 - غياب حرية الرأي وتعرض أصحابه للبطش والدسائس.

9 - ظهور خلافات دينية إسلامية، وطوائف جديدة مثل: البهائية، وفتن ضد الأقليات.

10 - انحطاط وضع المرأة على المستوى الشعبي باعتبارها آخر الحلقات في سلسلة القهر الفوقي للرجال.

تأثير النهضة الأوروبية على العالم الإسلامي:

لقد أثرت أفكار النهضة خاصة بعد الثورة الفرنسية، في معظم أنحاء العالم، ولم تكن الدولة العثمانية في معزل عن هذا، فقد تأثر المفكر التركي نامق كمال (1840 - 1888) ومن قبله رفعت صادق باشا - بهذه الروح، وكان يرى أن تأخذ الدولة العثمانية زمام المبادرة في حماية العالم الإسلامي بترقية ثقافته، وكان يدعو إلى الحرية وحب الوطن، وكان لا يرى أي تناقض بين الأخذ بمبادئ الثورة الفرنسية والشريعة الإسلامية الغراء مؤكدًا أن محاسن الحضارة الأوروبية مقتبسة من الشريعة الإسلامية، وكان سبَّاقًا في الرد على التعصب الأوروبي ضد الإسلام، وهي هجمة ظهرت في القرن التاسع عشر، تزعمها الفرنسي إرنست رينان الذي تصدى له أيضًا الشيخ الإمام محمد عبده في مصر.

ولم يكن نامق كمال أول مفكر عثماني يتكلم عن الحكومة البرلمانية وعن حقوق الإنسان، ولكنه أول من ربط بينهما؛ فقد سبقه رفعت باشا في شرح حق المواطن في الحرية، كما فسر نامق كمال أن سيادة الشعب معناها أن تستمد الحكومة سلطانها منه، وأن هذه السيادة تسمى في الشريعة البيعة، وكان يستقي آراءه السياسية في الحكم من القرآن الكريم ومن آراء مونتسكيو (1689 - 1755)، وروسو (1712 - 1778) وقد ترجم كتاب روح الشرائع لمونتسكيو في عام 1863م، وشرح كيف تتواءم آراء هذا الفيلسوف الفرنسي مع روح الشريعة الإسلامية. وكان نامق كمال يكتب المقالات السياسية متابعا الأحداث العالمية مثل الثورة البولندية والحرب الأهلية الأمريكية (1861 - 1865)، وكتب رواية اسمها «الوطن» التي أثارت مشاعر الإعجاب بين الجماهير، وكان ذلك سببًا في إصدار السلطان عبدالعزيز أمرًا بسجنه في قبرص، حيث

قضى أكثر من ثلاث سنوات، وكان ظهور هذه الرواية حدثًا سياسيًا خطيرًا، ولأن نامق كمال كان معارضًا لسياسة السلطان عبد العزيز، فقد اضطر للهرب إلى أوروبا 1876م وأمضى بها ثلاث سنوات مترددًا بين لندن وباريس وفيينا، وبعد عزل السلطان عبدالعزيز سمح له السلطان عبد الحميد بالعودة إلى إسطنبول، واستمر في نشاطه الثقافي بكتابة المقالات السياسية والمسرحيات، والقصص الأدبية، والأشعار الوطنية، ومصنفاته التاريخية، وأبحاثه النقدية، بل ورسائله الخاصة، وساهم في إعداد مواد الدستور العثماني، ثم اختلف مع السلطان عبد الحميد وقضى بقية حياته إما منفيًا وإما معتقلًا إلى أن أدركه الموت عام 1888م.

وقد برز في الولايات العثمانية الكثيرون في القرن التاسع عشر من المتفهمين لروح العصر الثقافية مثل: رفاعة الطهطاوى، والشيخ محمد عبده، وجمال الدين الأفغاني، وعبد الرحمن الكواكبي، وغيرهم من المفكرين الإصلاحيين.

القسم الثاني: ظروف النهضة المصرية في عهد محمد علي باشا

تأثير النهضة الأوروبية على مصر:

تلقت مصر الصدمة الحضارية في نهاية القرن الثامن عشر على يد الحملة الفرنسية سنة 1798م - 1801م لمدة ثلاث سنوات شهدت مصر فيها الكثير من الأحداث المبهرة، وتَعَرَّفَ صفوة الأمة من العلماء على حقائق كانت غائبة أو مغيبة عنهم شهدوا الصراع الفرنسي الإنجليزي، كدولة نصرانية قوية، شهدوا نظمًا جديدة في الإدارة، والحرب، وبعض منجزات النهضة الأوروبية لأول مرة مثل آلة الطباعة وشهدوا ضعف الإمبراطورية العثمانية بالنسبة لدولتي الغرب القويتين: فرنسا وبريطانيا. وشعر المصريون بطمع الأوروبيين في بلادهم، وثاروا ثورتين كبيرتين ضد الفرنسيين وتكونت بعد انتهاء الحملة زعامات دينية شعبية وجدت الثقة في نفسها وفي قدرتها على أن يكون لها دور

سياسي في حكم البلاد.

ظروف وكيفية النهضة المصرية في عهد محمد علي باشا (1805 - 1850):

- محمد علي مؤسس مصر الحديثة:

اصطلح المؤرخون على اعتبار عصر محمد علي باشا هو بَدْء تاريخ مصر الحديث، ولا يختلف اثنان على ذكاء وموهبة هذا الرجل، وعظيم إنجازاته لمصر والعالم الإسلامي؛ فقد تولى الحكم في ظروف ما بعد الحملة الفرنسية التي سببت صدمة حضارية للمصريين والمماليك حين التقوا قومًا مختلفين في سلوكهم وآدابهم وعلومهم، كما دخلت مصر فجأة بؤرة الصراع الدولي بين فرنسا وانجلترا تحت سمع وبصر الإمبراطورية العثمانية العجوز التي تعد مصر ولاية من ولاياتها الغنية، وجزءًا من دار الإسلام، وقد قاوم المصريون الحملة الفرنسية في ثورتين كبيرتين مما أرهف الحس السياسي لدى الشعب المصري الذي حاول أن يكون له دور في طريقة حكمه، وذلك بقيادة زعمائها وعلمائها مثل السيد عمر مكرم الزعيم الديني والشعبي في هذه الفترة، كما أن علماء مصر هم الذين اختاروا محمد علي باشا، ووضعوا السلطة في يده فقبلها على استحياء وزهد فيها (ولم يكن ذلك حقيقيًا فيما أعتقد، وإنما كان دهاء منه) وقد اعتمد في سنوات حكمة الأولى على القيادات الدينية والشعبية من المصريين؛ عوضًا عن نفوذ المماليك الذي خطط للتخلص منهم، كما تخلص من جنوده الألبان غير المنضبطين، وفي أوائل سنوات حكمة حاولت بريطانيا احتلال مصر عام 1807م، ولكنها فشلت بعد احتلالها الإسكندرية وعجزها عن التقدم جنوبًا، وكوَّن محمد علي باشا جيشًا حديثًا قويًا ملء السمع والبصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وكان ابنه إبراهيم باشا عبقرية عسكرية رفعت اسم مصر وواليها محمد علي باشا عاليًا، مما أخاف الغرب المتربص ورأى فيه قوة صاعدة يجب إجهاضها. وقد أعان محمد علي باشا السلطان العثماني في قمع الثورة الوهابية بالجزيرة العربية، ودخلت جيوش إبراهيم

باشا الخليج العربي.



محمد علي باشا أنشأ الجيش المصري الحديث
عام 1823م

وكافأه السلطان بإضافة الحجاز إلى ولايته.. وفتح السودان حتى المناطق الاستوائية وجزءًا من إريتريا مقلدًا الدول الغربية في البحث عن موارد.. (وكانت هذه لغة العصر) واكتشف المصريون بحيرة صغيرة شمال بحيرة فيكتوريا شميت بحيرة إبراهيم، ولكن المصادر لا تذكر ذلك إما لصغرها وإما ضنًّا بأن يكون لمصر دور في الحركة الاستكشافية، وآمن محمد علي باشا بضرورة الانفتاح على علوم أوروبا فأرسل البعثات، وأدخل العديد من النظم الأوروبية، لكنه كان حذرًا ومدركًا مآرب الأوروبيين في الشرق فلم يمنح أحدًا منهم أي امتيازات، وقد استخدم محمد علي باشا نظام رأسمالية الدولة بالنسبة لامتلاك الأراضي، فكان الفلاحون يزرعونها بالاشتراك مع الدولة، وقام بإصلاحات عديدة شملت القوات المسلحة، والصناعة، والزراعة، الري.. سنورد أمثلة لها فيما بعد..

وما إن جاء العقد التاسع عشر حتى كانت مصر دولة قوية تستعين بها الخلافة العثمانية في حروبها؛ فقمع إبراهيم باشا بقواته المصرية الثورة العارمة في شبه جزيرة المورة، مما لفت أنظار الغرب لهذا الجيش الفتي والأسطول الحديث، فانتهزوا الفرصة ودمروا الأسطول المصري العثماني في معركة نفارين باليونان.

حرب الشام الأولى والثانية:

في بداية العقد الثالث من القرن التاسع عشر، قام محمد علي باشا بغزو الشام ودب الخلاف بين محمد علي باشا والسلطان العثماني بفتح الشام لتأديب والي عكا والحقيقة أن الأسباب غير معروفة تمامًا؛ فربما كان ذلك بسبب رفض والي عكا توريد الأخشاب اللازمة لإعادة بناء الأسطول المصري الذي تحطم في معركة نفارين، وربما لأن محمد علي باشا أراد أن ينتهز ظروفًا دولية مواتية لاستخلاص مكاسب شخصية وأسرية من السلطان العثماني لتوطيد ملكه، فقد فتح القائد إبراهيم باشا عكا التي عجز نابليون عن فتحها منذ نحو عشرين عامًا، وقابل جيش محمد علي باشا القوات التركية في ديسمبر 1832م عند قونية جنوب الأناضول وهزم جيش السلطان، وأصبح الطريق لإسطنبول مفتوحًا. ويبدو أن اختيار التوقيت كان مناسبًا للأسباب التالية:

1 - كانت بريطانيا مشغولة بثورة بلجيكا وانفصالها عن هولندا.
2 - كانت فرنسا (ما بعد نابليون) تحاول ما وسعها الجهد استمالة والي مصر؛ ليكون لها نفوذ شرقي.
3 - كانت أطماع روسيا الدولية في الشرق تقلق بال انجلترا وفرنسا، كما أن تزايد النفوذ الروسي في الإمبراطورية العثمانية كان ضد المصالح الإنجليزية.

ومما يؤيد هذا إعلان وزير خارجية انجلترا، «أنه إذا اضطررنا يومًا إلى أن نختار أحد أمرين إما استيلاء الجيوش المصرية على إسطنبول وإما وضعها تحت النفوذ الروسي فإنه لن يكون في وسعنا إلا أن نختار الأمر الأول».

أما ما حدث فقد لجأ السلطان العثماني إلى روسيا في طلب المعاونة العسكرية بعد هزيمة جيوشه في قونية 21 ديسمبر 1832م، مما جعل انجلترا وفرنسا يضغطان على السلطان لقبول طلبات محمد علي باشا، وينصحان محمد علي بالاعتدال، ووقف الهجوم المصري عند كوتاهية، والتي سميت اتفاقية الصلح

باسمها في 14 مايو 1833م حيث وصل مندوبو الدول الأوروبية لإبلاغ إبراهيم باشا بموافقة السلطان على منح مصر حكم سوريا مضافًا إليها إقليم أطنة علاوة على مصر والسودان والجزيرة العربية. كان ذلك عام 1833م، واستمر هذا الوضع القوى جدًّا بالنسبة لمحمد علي باشا ست سنوات كاملة. ومما يؤيد ذلك أيضًا تصريح رئيس حكومة فرنسا خلال أزمة 1840م عقب حرب الشام الثانية كما يسمونها، فقال: إن حكومة فرنسا تعتبر وجود مصر كقوة سياسية في العالم أمرًا ضروريًّا لابدّ منه حتى يكتمل التوازن بين حكومات العالم، وذلك بسبب سعة الأقاليم التي تحكمها والبحار التي يمتد عليها سلطانها.

والحقيقة أن محمد علي باشا كان لديه فرصة لتجديد دم الخلافة العثمانية خلال هذه السنوات(1833 - 1839م) لكن طموحه لم يرقَ إلى هذا الحد، ويتضح ذلك من الآتي:

عندما نشبت الحرب الأولى أعلن السلطان خلعه وإهدار دمه.. وردَّ عليه محمد علي باشا بإصدار فتوى من مفتي مكة المكرمة التي كانت تابعة لمصر بأن السلطان نفسه غير كفء للحكم ولابدّ من خلعه، وتولية ابنه القاصر بدلًا منه بوصاية محمد علي باشا، فكان هذا أقصى طموحه. ونستعرض معًا خطاب إبراهيم باشا لأبيه بعد معركة قونية، فيقول في 28 ديسمبر 1932م:

«أستطيع أن أصل إلى الآستانة ومعي رشيد باشا، وأستطيع خلع السلطان حالًا، وبدون صعوبة ولكني مضطر إلى أن أعرف هل تسمح لي بتنفيذ هذه الخطة حتى أتذرع باتخاذ الوسائل اللازمة؛ لأن مسألتنا لا تسوى إلا في إسطنبول فالواجب أن نذهب إلى إسطنبول؛ حيث نملي إرادتنا، وإني مضطر أن أكرر على
مسامعك أن الدعاوى لا توصلنا إلى أغراضنا وإذا أنت رميت من الشائعات التي تذيعها لغرض سياسي، بأن تهدد إسطنبول لتقبل شروطنا، فمن العبث أن نقف في قونية فلا نتقدم منها إلى الأمام. فإن قونية بعيدة عن رجال الآستانة فهم لا يقبلون عقد الصلح معنا إلا إذا دخلنا عليهم في العاصمة، كذلك هم فعلوا مع الروس فإنهم لم يقبلوا إبرام الصلح معهم إلا بعد وصولهم إلى جلمجة بضاحية

إسطنبول الواجب، إذن أن نواصل الزحف حتى بورصة على الأقل، مع احتلال المدن الواقعة على بحر مرمرة، وجعل هذه المدن مراكز تموين لجيشنا في البحر حينئذ فقط نستطيع أن نذيع الأخبار التي قد تقضي إلى عزل السلطان. وإذا نحن لم نفلح في إسقاط السلطان توصلنا على الأقل إلى إبرام صلح يحقق أمانينا وإننا لولا الأمرين الأخيرين اللذين تلقيتهما منك لكنت الآن على أبواب إسطنبول.

وإني لأسأل نفسي: ما الداعي الذي دعا إلى إصدار تلك الأوامر إليّ؟

أهو الخوف من أوروبا، أم هو شيء آخر لا أعرفه؟

ألتمس منك أن تنيرني في هذه المسألة قبل انفلات الفرصة من أيدينا، نعم إني ألتمس إبلاغي في أمركم القاطع بهذا الصدد...»

(انتهى النص)



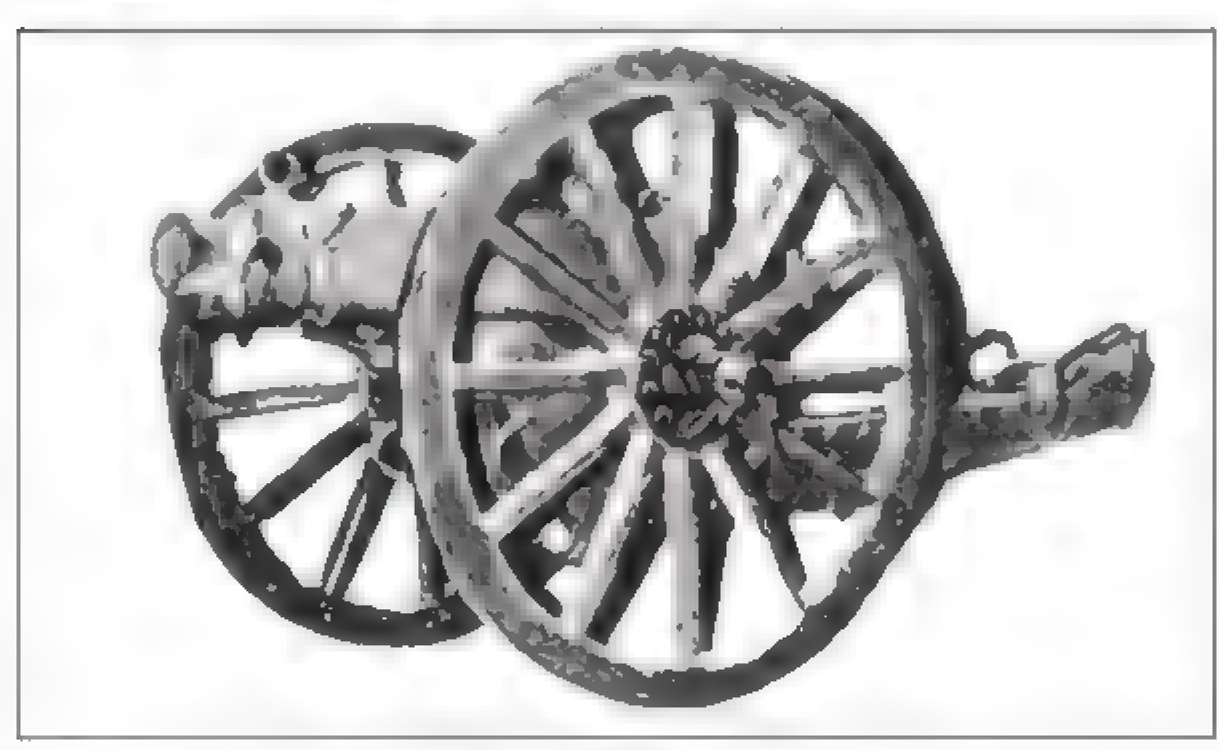
إبراهيم باشا قائد الجيش المصري في عهد محمد علي، والذي بسط السيطرة المصرية على الحجاز واليمن والسودان والشام وأجزاء من اليونان وتركيا



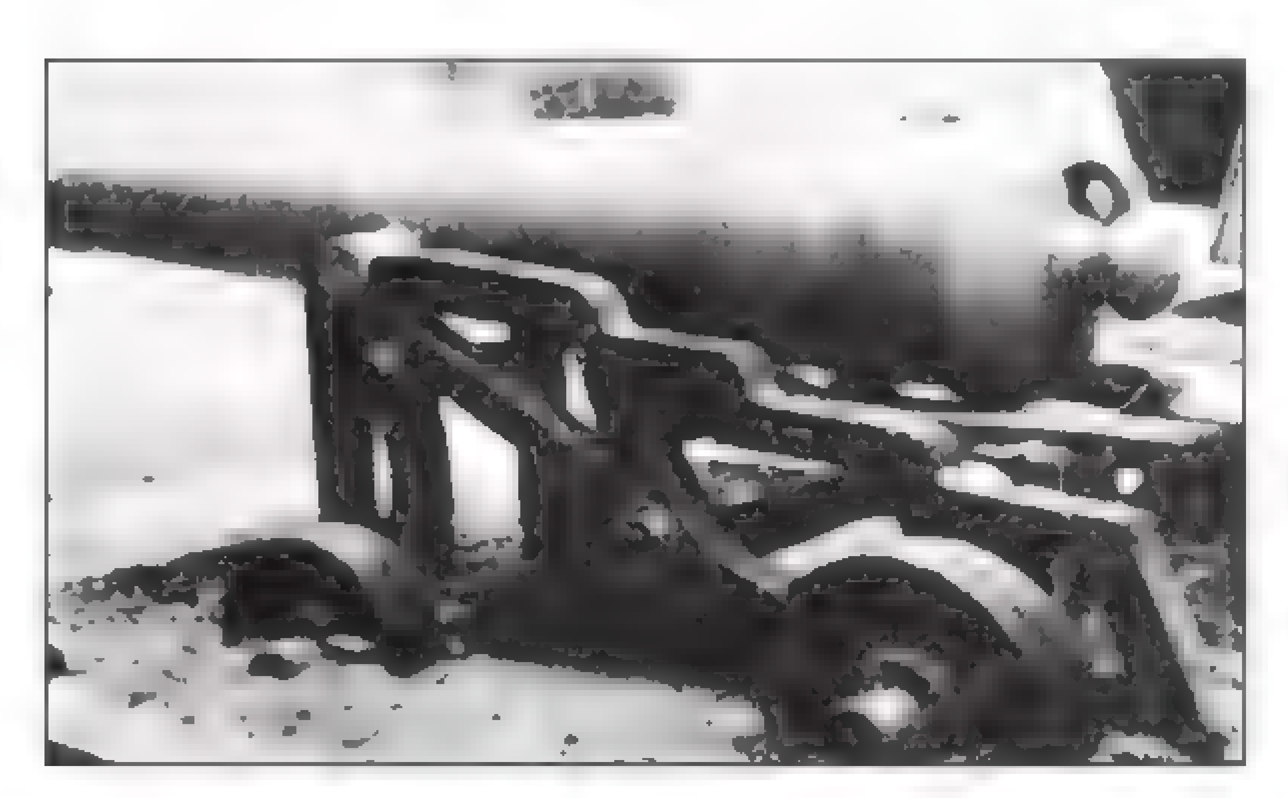
الفريق «خورشيد طاهر باشا» القائد العام للجيش المصري بشبه الجزيرة العربية في عهد «محمد علي» وصل بالقوة المصري حتى الخليج العربي والبحرين



أمير البحر «مصطفى قطوش باشا» قائد الأسطول المصري في عهد محمد علي بسط السيطرة البحرية المصرية على كل من جزيرتي قبرص، وكريت، وسواحل اليونان



مدفع ميدان (عهد محمد علي)



مدفع ساحلي (عهد محمد علي)

ولو كان محمد علي باشا واصل تقدمه بعد كوتاهية ودخل إسطنبول ونجح في تأمينها ضد الروس لرحبت انجلترا وفرنسا بذلك للأسباب التي أوردناها سابقًا، ولكنه مجرد احتمال من وجهة نظري، لأنه بعد ست سنوات حرضت انجلترا السلطان على حرب محمد علي مرة أخرى (حرب الشام الثانية) وكان لها مع

الدول الأوروبية الأخرى رأي آخر، فرغم هزيمة السلطان محمود الثاني في معركة نزيب في 24 يونيه 1839م التي تسمى في الأكاديميات العسكرية بالمعركة التي ليس بعدها معركة حيث أبيد الجيش العثماني تمامًا وأصبح الطريق مرة أخرى لاسطنبول مفتوحًا علاوة على استسلام الأسطول العثماني أو جزء منه في الإسكندرية - فإن الدول الأوروبية وعلى رأسها انجلترا وروسيا ألقت بثقلها في جانب السلطان؛ وكانت أزمة 1840م التي انتهت بمعاهدة لندن. ونلاحظ أن تصريحات بالمرستون لفرنسا في الحرب السابقة التي قال فيها: (إنه كان يروم من صميم فؤاده أن يرى والي مصر حتى في منصب الخلافة لو أن لديه ما يضمن بقاء الدولة وتماسكها في المستقبل). كما قال في مناسبة أخرى: (إن انجلترا ترى أنه خير لأوروبا وصالحها أن يحكم الدولة العثمانية حاكم قوي خير من سلطان يكون آلة في يد روسيا). تبخرت هذه التصريحات بسبب تغير الظروف الدولية واختلافها.

فتم إنذار محمد علي باشا بإخلاء الشام، ولم يجد محمد علي من فرنسا بالذات استعدادًا قويًّا لمساندته فأذعن لإرادة الدول الأوروبية، وقبلت مصر معاهدة لندن عام 1840م، حيث تم تحجيم سلطة والي مصر داخل وادي النيل فقط مع إعلانه الولاء للسلطان الذي أقره على أن تكون ولاية مصر محصورة في أسرته، وأن يظل السودان في حوزة مصر. ولكن هذه الفترة الحرِجة من تاريخ العالم الإسلامي تستحق بحوثًا أكثر لفهم جزئيات التاريخ.

إصلاحات محمد علي باشا:

خلال فترة حكم محمد علي باشا الطويلة، تغير المجتمع المصري إلى حد كبير، وظهرت ملامح الطبقة الوسطى. ومما يفيد إلقاء الضوء على حجم الإصلاحات التي قام بها محمد علي باشا تفصيلًا، ليلم القارئ بحجم النهضة التي حققها هذا الرجل الفذ. فقد أنشأ مصانع كبرى تدار بالآلات، وأدخل زراعة القطن طويل التيلة إلى مصر، وأدخل زراعة التوت، واستكثر من زراعة الزيتون، وأنشأ القناطر الخيرية لتنظيم الري، وشق العديد من المجاري المائية. وفي مجال

الصناعة كانت مصانع الغزل والنسيج في مقدمة المصانع التي أنشأها مثل: مصنع الخرنفش، ومصنع مالطة، ومصنع إبراهيم أغا، والسبتية والمبيضة بين بولاق وشبرا على شاطئ النيل الذي كانت تُبيض فيه الأقمشة. وبالقرب من هذا المصنع أنشأ مصنعًا لنسيج البركال، وهو نوع من الشيت الرقيق، ومصنع أمشاط الغزل بالسيدة زينب، ومصنع الجوخ ببولاق، ومصنع الحرير بالخرنفش، ومصنع الحبال بالقاهرة، ومصنع الطرابيش في فوه. كما أنشأ عددًا من مصانع الغزل والنسيج في قليوب وشبين الكوم، والمحلة الكبرى، وزفتى وميت غمر والمنصورة، ودمياط، وفوه، ورشيد. وفي الوجه القبلي في بني سويف، وأسيوط، والمنيا، وفرشوط، وطهطا، وجرجا، وقنا...

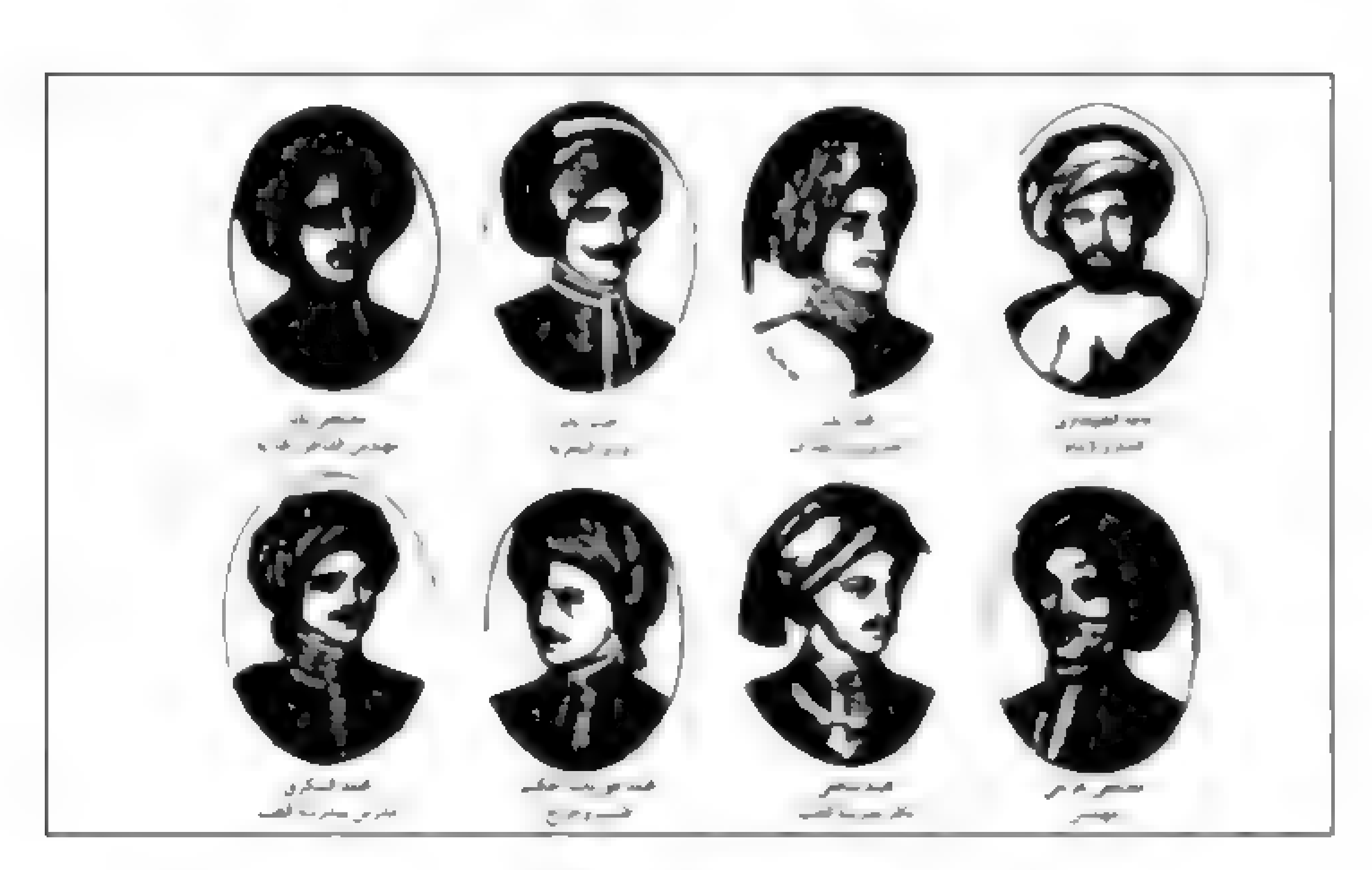
وكانت منتجات هذه المصانع تصدَّر إلى ثغور البحر الأدرياتيكي، وتوسكانيا بإيطاليا، ومنها إلى داخل إيطاليا وألمانيا. أما باقي الإنتاج فكان للاستهلاك المحلي.. كما أنشأ صناعة سبك الحديد في بولاق، ومصنعًا لعمل ألواح النحاس التي كانت تبطن بها السفن، وأنشأ عدة مصانع لصناعة السكر في الوجه القبلي ومصانع النيلة في شبرا شهاب، والغزازية وميت غمر، والمنصورة، ومنوف، وإيبيار، والأشمونين، وبركة السبع، والمحلة الكبرى، والجيزة، وأبوتيج، وملوي، ومنفلوط، وطهطا، وأسيوط، والفشن، ومصنعًا للصابون، ومدبغة لدبغ الجلود في رشيد ومصنعًا للزجاج والصيني.

وفي مجال صناعة الأسلحة، أسس ترسانة القلعة لصنع الأسلحة وصب المدافع، ومصنعًا للبنادق في الحوض المرصود بحي السيدة زينب، ومعامل للبارود في جزيرة الروضة، وفي البدرشين، والأشمونين، والفيوم، وأهناسيا، وأسس في بولاق ترسانة لبناء السفن النيلية والبحْرية، وأقام في الإسكندرية ترسانة دار الصناعة الكبرى لبناء السفن الحربية، وحوضًا لترميم السفن، وأنشأ مدرسة بحْرية لتخريج الضباط البحْريين وكان من بين المدارس التي أنشأها: مدرسة الهندسة في القلعة، ومدرسة المهندسخانة في بولاق، ومدرسة الطب بالقصر العينى، ومدرسة الصيدلة، ومدرسة الولادة، ومدرسة الألسن، ومدرسة المعادن

بمصر القديمة، ومدرسة المحاسبة بالسيدة زينب، ومدرسة الفنون والصنائع، ومدرسة الزراعة في نبروه، ومدرسة الطب البيطرى، والمدرسة التجهيزية (الثانوية) في القاهرة والإسكندرية، وعددًا كبيرًا من المدارس الابتدائية في معظم مديريات الوجهين: القبلى، والبحرى.

لقد تعمدت الإطالة لأن الأمر متعلق بمصر الحبيبة؛ لأن الحاكم وحده مهما كان فذًّا عبقريًّا لا يستطيع مع أي بطانة له أن يفعل كل ذلك «إنه الشعب المصري الأصيل» الذي يقف بحسه المرهف إلى جانب الحكام المخلصين لنهضته.

ومن المعروف أن كل مصنع ذكرناه كان به عمال، ومديرون، وإنتاج، وطاقة محركة. ولما كان التحضر يقاس بكمية طاقة الحركة التي يستخدمها الإنسان لنفسه، فكم وحدة طاقة كان يستخدمها شعب مصر الذي لم يتجاوز تعداده سبعة ملايين نسمة في ذلك الوقت.



بعض طلبة البحوث العلمية

هذا ما وددت لفت النظر إليه، وقبل أن ننتهي من إنجازات منشئ مصر الحديثة لا ينبغي أن ننسى أنه أصدر أول صحيفة مصرية (الوقائع)، وكان مؤمنا بالتمسك بالتنشئة الإسلامية؛ فلا ننسى أن العلّامة رفاعة الطهطاوي الذي بزغ نجمه كعالم متنور قد أرسله محمد علي باشا مرافقًا لبعثة أخرى للعمل كإمام ورجل دين؛ ليحمي أفراد البعثة من سلبيات الحياة الأوروبية، رحم الله محمد علي باشا، فعلى الرغم من طول مدة حكمه فإن مصر كانت تلهث وراء

إصلاحاته وطموحاته، وإن كانت الحركة الثقافية والفكرية لم تحظ بنفس القدر من العناية؛ لأنها تحتاج وقتًا أطول، وقد خلف محمد علي باشا واليان ضعيفان هما: عباس، وسعيد. ولكن ما إن تولى حفيده إسماعيل باشا الحكم حتى كانت المحاولة الثانية للنهضة والتحديث، ورغم الاختلاف الشديد في موقف المؤرخين من إسماعيل باشا فإنه مما يذكر له التوسع في إفريقيا وإريتريا (موانئ زيلع ومصوع وسواكن على البحر الأحمر) وأنه أنشأ أول مجلس تشريعي عام 1866م، وأنه كان يتمنى رؤية مصر كقطعة من أوروبا، واهتم بالفنون؛ فأنشأ الأوبرا المصرية، كما أرسل البعثات إلى أوروبا ونظم الجيش، وازدهرت في عصره حركات الترجمة، مما أسهم في زيادة الوعي السياسي والفكري لدى الشعب المصري، ولكنه تورط في الاستدانة من الدول الأوروبية المتربصة بمصر الأمر الذي انتهى بعزله عام 1879م.



إسماعيل باشا

القسم الثالث: الحركات الدينية السياسية

الحركة الوهابية:

تبدأ جميع الحركات السلفية بالدعوة للتمسك بالقرآن والسنَّة المطهرة، وما كان

عليه السلف الصالح من صدق وإيمان وهكذا قام محمد بن عبد الوهاب في القرن الثامن عشر يدعو المسلمين إلى مذهب ابن حنبل في التوسل لله وحده، والتمسك بالإسلام، ومحاربة البدع.

وفي عام 1744م هاجر محمد بن عبد الوهاب إلى الدرعية وتم الاتفاق بينه وبين أميرها محمد بن سعود على النصرة، والتعاون في نشر الدعوة بعد أن أظهر العداء لها الكثيرون من الأمراء: مثل أمير الرياض عام 1765م، وقام الأمراء السعوديون الآخرون بمساندة المذهب وتوسيع إماراتهم على حساب الإمارات الأخرى، فدخلوا الرياض ومكة، وأرسل أحد الأمراء السعوديين ابنه إلى العراق فاستولى على كربلاء، وهدم ضريح الحسين -رضي الله عنه- وقد أثارت هذه الفعلة الكثيرين ودفع حياته ثمنًا لها؛ إذ اغتاله أحد المسلمين الشيعة عام 1803م. ولم ترض الإمبراطورية العثمانية عما يجري في الجزيرة العربية، وضياع سلطانها على الحجاز، فكلف السلطان العثماني محمود الثاني والي مصر محمد علي باشا باستعادة السيطرة على الحجاز وقمع الحركات السعودية الوهابية، وقد تم ذلك عام 1818م بعد استيلاء القائد إبراهيم باشا بن محمد علي، على قاعدة السعوديين في الدرعية، وقوي النفوذ المصري في الجزيرة، فقد أرسل خورشيد باشا والي محمد علي باشا حملات حتى عمان، واستطاع السيطرة على الأحساء، ودخل في طاعته أمير البحرين وهنا تدخل الإنجليز في شئون الخليج. والحقيقة أن حكام وأمراء الجزيرة العربية لم يكونوا على دراية كافية بما يدور في العالم وبالخطر المحدق بالأمة ككل، فقد كانوا يقاتلون بعضهم بعضًا، ثم تعاون البعض منهم (شيوخ الخليج العربي) مع الأوروبيين نظير إبقائهم في مناصب الإمارة.

أما الحركة الوهابية نفسها منذ نشأت عام 1744م، فلم تكن إلا تشعبًا لمذهب الإمام ابن حنبل الذي يميل إلى التشدد، وما زالت المملكة السعودية تأخذ به. وأما أثرها فقد ظهر في هدم الأضرحة، ومحاربة بعض البدع أثناء زيارة القبور، ومراسم الحداد، وعدم لبس الحرير والتحلي بالذهب للرجال. وقد تلقف الدعوة

لمصر. أما الثورة المهدية فقد هاجمت الحاميات المصرية المنعزلة بالسودان، واستطاع البعض مثل حكمدار السودان عام 1883م عبد القادر باشا حلمي إغاثة الأبيض، ولكنه فشل. وخلال السنتين التاليتين (1883، 1885م) لم يهتم الإنجليز بأمر المصريين المنقطعين بالسودان، وسيطر المهدي على معظم السودان، ودخل الخرطوم بعد حصارها، فقتل غوردن باشا ودخل أتباعه العاصمة في 28 يناير 1885م، واستولوا على أرض الجزيرة، وبذلك سيطر المهديون على السودان كله فيما عدا سواكن. وكان المهدي قد اختار من بين رجاله أربعة من كبار الزعماء وعيّنهم خلفاء له، أولهم عبدالله التعايشى، ولقبه بالصديق أبو بكر، ولقب الثلاثة الآخرين على التوالى: بالفاروق، وعثمان، والكرار، ويقصد به عليًّا بن أبي طالب.

وبعد موت المهدي وقع خلاف كالعادة في مثل هذه الحركات، ولكن عبدالله التعايشي تمكن من الأمر، وأعلن نفسه خليفة للمهدي ثم انتصر المهديون على الأحباش الذين كانوا قد طمعوا في بعض أراضي السودان، ولكن المصريين هزموهم في معركة توشكي عندما فكروا في غزو مصر. ومن الطريف أنه منذ عام 1886م لم يعد هناك حاكم لإقليم بحر الغزال، كذلك مديرية خط الاستواء، فضمها الإنجليز ببساطة إلى أوغندا ولم يفعل أنصار المهدي شيئًا. كذلك هُزم المهديون أمام الإيطاليين عام 1893م في معركة أغوردات، واستولى الإيطاليون على مصوع، وفي عام 1891م تمكنت قوة مصرية من هزيمة المهديين قرب مدينة طوكر في ناصية سواكن. وفي عام 1896م التقت حملة إنجليزية بقيادة كتشنر مع قوات التعايشي في معركة أم درمان وقُتل فيها 11.000 سوداني، وجُرح 16.000، فقد حصدت المدافع الإنجليزية قوات الحركة المهدية ودخلوا الخرطوم، وتم القضاء على الدولة المهدية التي لم تعمر أكثر من سبعة عشر عامًا لم تضف كثيرًا لروح المقاومة ضد سيطرة الغرب على العالم الإسلامي.

الحركة السنوسية:

تدخل الحركة السنوسية في نطاق الصوفية العاملة، ولكن الظروف فرضت عليها أن تدخل ميدان الصوفية المجاهدة؛ نتيجة لمطامع أوروبا، وعجز وتخاذل العثمانيين.. فقد نهضت الحركة السنوسية بالمسئولية من قبل الحفصيين وقد حرص السنوسيون على إنشاء زوايا وهي مراكز دينية، تجارية، اجتماعية في الصحراء وأثبتوا كفاءة عظيمة في إدارة تلك الزوايا وتحويلها إلى مراكز مقاومة إسلامية وقواعد لانتشار الإسلام الواسع في تشاد والكاميرون. وقد وضع بعض القادة السنوسيين قاعدة عظيمة هي تحرير الرقيق الذين يدخلون الإسلام.

وتوفي مؤسس الحركة في 1859م، وكانت الحركة حتى ذلك الحين إسلامية عامة، ولكنها تحولت إلى إمارة سياسية، ولا يفوتنا أن نذكر أن السنوسيين رفضوا الانضمام إلى الحركة المهدية في السودان، وأن القائد محمد المهدي السنوسي كان على علاقة طيبة بالدولة العثمانية. ولما قررت الدولة العثمانية الاعتراف بالولاية الإيطالية على ليبيا 1911م قام الوالي العثماني بزيارة أحمد الشريف السنوسي في جغبوب، وأبلغه أن تركيا ترد ليبيا إلى أهلها، وتكل إليهم أمر الدفاع عن أنفسهم ضد الاعتداء الإيطالي. وتمكن السنوسيون من إحراز انتصارات مهمة على الإيطاليين في واقعة القرضابية سنة 1915م، وأخرجوهم من فزانة، ومن المهم أن نذكر هنا اسم القائد الليبيي رمضان السويحلي، ثم انتهوا إلى صلح مع الإيطاليين عام 1919م يعترف اسميًا بالتبعية لإيطاليا، مع إنشاء حكومة مؤلفة من مجلس من ثمانية أعضاء من الليبيين، واثنين من الإيطاليين يختارهم نائب الملك.

ولما أغارت فرنسا على فزان نقضت إيطاليا اتفاقها مع الليبيين، وأرسلت قوات ضخمة من إيطاليا إلى ليبيا، واجتاحت العالم العربي موجة من الحماس لدعم ليبيا وتطوع الكثيرون في الجيش الليبي، منهم قادة مصريون مثل: الفريق عزيز المصري باشا، وعبد الرحمن عزام باشا، وصالح حرب باشا. واستمرت الحرب إلى أن انتهت باتفاق طبرق عام 1920م، وخلاصته أن تستمر طرابلس

في يد الإيطاليين مع الاحتفاظ بمظاهر الاستقلال الداخلي وتَرْك الحرية للسنوسيين في برقة. ثم استولى الفاشيون على الحكم في إيطاليا عام 1922م، وأراد الدكتاتور موسيليني أن يرفع من شأن إيطاليا خارجيًّا وَفْقًا للقاعدة التي أشرنا إليها من قبل، ألا وهي الاستيلاء على مزيدٍ من أرض المسلمين، وبمزيد من قهر شعوبها؛ فألغى كافة الاتفاقات، وأرسل جيوشًا ضخمة تكبدت الكثير من الخسائر أمام عنف المقاومة الليبية بقيادة السيد عمر المختار.. وقد لجأ الإيطاليون إلى أقصى أساليب العنف الممنوعة دوليًّا مع الليبيين، حتى تمكنوا من إخضاعهم ثم ألغوا الزوايا، وأغلقوا المدارس، وجعلوا اللغة الإيطالية لغة رسمية، وأرسلوا الألوف من إيطاليا لاستيطان ليبيا أملًا في تغيير تركيبتها السكانية، واستمرت المقاومة حتى 1931م حتى توقفت بإعدام البطل عمر المختار، وانتهت بذلك الحركة السنوسية.

القسم الرابع: محاولات السلطان عبد الحميد الإصلاحية والحرب العالمية الأولى (1908 - 1876م)

اقترنت السنتان الأوليان من حكم السلطان عبد الحميد بهزائم عسكرية أليمة، لكنه قام بجهود وإصلاحات كبيرة، وأدار سياسته الخارجية بحكمة واقتدار أَجَّلَتْ سقوط الدولة أكثر من نصف قرن، فمن إصلاحاته في الداخل إنشاؤه جامعة إسطنبول، وفرض ضريبة خاصة للتعليم، وإنشاء مدارس للتعليم المدني مع إبقائه على المدارس الدينية لتدريس الدين واللغة العربية، والعناية بالتعليم العسكري فقد أنشأ تسعًا وعشرين مدرسة، ستًّا منها في العاصمة وواحدة في كل ولاية كبرى، وبلغ مجموع الدارسين 8247 طالبًا، وكانت هذه المدارس تؤهل طلابها للالتحاق بالكليات العسكرية، وأنشأ مكتبات عامة، وظهرت في عهده الصحافة الفنية مثل مجلة (ثروتي فنون).. أي (ثروة الفنون) كما أنشأ مدرسة الحقوق السلطانية، وأصلح النظام القضائي، وتوسع في إنشاء السكك الحديدية، فبلغت في أواخر عهده 5383 ميلًا؛ أي أكثر من ثلاثة أضعاف ما كان موجودًا قبل ولايته، وفي 12 أغسطس عام 1888م غادر أول

قطار من فيينا إلى إسطنبول. وقد توسع في استخدام البرق لخدمة الجمهور، وكان من قبل لخدمة الحكومة فقط.

ومن أهم أعماله: احتضانه لفكرة الجامعة الإسلامية وتزعم فكرة التقارب بين الدولة العثمانية وولاياتها العربية، ودعم الصلات الإسلامية بينه وبين مسلمي العالم، مما أقلق الغرب من تنامي نفوذه، وليس معنى ذلك أن السلطان عبد الحميد بلا أخطاء كما أننا لسنا بصدد تقييم حكم السلطان الذي تم عزله عام 1908م بانقلاب عسكري قاده أعضاء جميعة الاتحاد والترقي التي طالبت بالمزيد من الإصلاحات الدستورية والتغريب وإهمال التقارب العربي وتتريك الدولة.. لقد كان لهذا السلطان خصوم كثيرون من الداخل والخارج أسموه بالسلطان الأحمر مشيعين عنه حبه لسفك الدماء، وأنه أجاز الدستور ثم عطله، وكبت الحريات، ونشر الجواسيس. ولكن الظاهر لنا أن معدل التدهور وانتقاص أملاك الدولة خلال فترة حكمه 33 سنة قد انخفض كثيرًا. فلم تفقد الدولة العثمانية خلال حكمه إلا مصر 1882م وكانت بريطانيا تدعي دائمًا أن وجودها فيها مؤقت ونيابة عن الدولة العثمانية حتى الحرب العالمية الأولى، كما حققت الدولة أول انتصار لها على اليونان عام 1897م. والثابت أنه استغل جميع التناقضات بين الدول الأوروبية لصالح الدولة العثمانية خاصة صداقته مع القيصر الألماني الذي زار إسطنبول واعترف به خليفة لكل مسلمي العالم، مما آثار حفيظة الدول الاستعمارية خاصة بعد احتضانه لحركة الجامعة الإسلامية.

أسباب احتضان السلطان عبدا لحميد لفكرة الجامعة الإسلامية:

رأى السلطان عبد الحميد في الجامعة الإسلامية سياجًا يحمي الدولة من الأخطار التي كانت تحيط بها من كل جانب أمام أطماع روسيا، والنمسا، والمجر، وبريطانيا. في الوقت الذي سادت في أوروبا فكرة طرد العثمانيين من أوروبا وتأييد الشعوب البلقانية المسيحية للتحرر من الحكم الإسلامي المتخلف. وكان جلادستون الإنجليزي يحمل حقدًا وبغضًا شديدين للدولة العثمانية والإسلام، ورأى السلطان عبد الحميد أن يعيد لمنصب الخلافة هيبته

عن طريق اعتراف الدول الأوروبية بزعامته الروحية على جميع مسلمي العالم. ومن هنا كانت الخلافة أقوى رابطة بين الدولة العثمانية والعالم الإسلامي، ولذلك حرص على أن يقرن اسمه بالألقاب الدينية مثل أمير المؤمنين، وخادم الحرمين، وغير ذلك من الألقاب مستهدفًا اكتساب الطاعة والولاء لعرشه من العناصر الإسلامية غير التركية وغير العثمانية من رعايا الدول الأخرى؛ أي أن السلطان عبد الحميد أراد أن يستفيد بنفوذه كخليفة لدعم موقف الدولة تجاه أطماع ومخططات الدول الأوروبية، وفي سبيل ذلك اهتم بالنواحي الدينية، وأدخل اللغة العربية في مناهج الدراسة في المدارس الدينية، ولم يحدث ذلك من قبل، وبدأ يمارس هذا الحق في تعيين الموظفين الدينيين في الولايات العثمانية السابقة التي دخلت تحت السيطرة الأوروبية، وكان يختار بنفسه القضاة والمدرسين من علماء الدين ويبعث بهم إلى مصر، وبلاد القرم، والبوسنة والهرسك، وبلغاريا، وكان يحتج ويتدخل رسميًّا إذا جاءت أنباء بوقوع مظالم على المسلمين في هذه البلاد.

وقد أدرك السلطان عبد الحميد أن العرب هم هدف التوسع الاستعماري في هذه المرحلة الذي يَعْمَلُ على فصلهم عن الدولة العثمانية تمهيدًا لابتلاعهم؛ لذلك اهتم بالبلاد العربية، وقرب الكثيرين من رجال العرب، وقام ببعض الإصلاحات في المدن الكبرى، وخصص أموالا لصينانة المسجد الحرام والمسجد النبوي، والمسجد الأقصى، وأنشأ مكتبات عامة في المدن الكبيرة منها المكتبة العثمانية بالمدينة المنورة، ووثق صلاته الخاصة بالعرب، وشجع على إصدار جريدة العروة الوثقى في باريس 1884م التي تعاون في إصدارها الشيخ جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده، لدعوة الأمة الإسلامية للاتحاد ومقاومة الاستعمار، وتعريف المسلمين بالأخطار المحدقة بهم مع الأخذ بأسباب النهوض العصرية. والحقيقة أن فكرة الجامعة الإسلامية أقلقت الغرب، وخاصة انجلترا وفرنسا، خوفًا من مسلمي الهند الذين لم يمض على ذهاب سلطانهم أمد بعيد (1858م). كذلك فرنسا خشيت على نفوذها في شمال إفريقيا والدليل على ذلك أن فرنسا في أثناء الثورة العرابية كانت ضد فكرة إرسال قوة عثمانية لتهدئة

الحال بمصر، واعتبرت غزو بريطانيا عام 1882م لمصر أقل الضررين وأهون خطرًا من إرسال قوة عثمانية في ظروف تصاعد حركة الجامعة الإسلامية.

ومما يؤكد نجاح الفكرة في تحقيق هدفها أنه في الحرب الأخيرة بين العثمانيين واليونانيين في عام 1897م حقق العثمانيون بعض الانتصارات، ولم يكن لمثل هذا الحدث من قبل رد فعل مثل الذي حدث في جميع العالم الإسلامي عقب هذه الانتصارات، فقد أقيمت احتفالات على نطاق واسع في كافة البلاد الإسلامية التي تقع خارج نطاق الدولة العثمانية، وبعد هذه الاحتفالات قامت الجماهير الإسلامية في الهند وإندونيسيا وتركستان ومدغشقر والجزائر وغيرها بمظاهرات وانتفاضات تطالب بالتحرر من الحكم الأوروبي المسيحي، وكان السلطان عبد الحميد يتابع ذلك سعيدًا بنجاح فكرته التي هي جزء من إدارته الحكيمة للصراع بين الدولة العثمانية والدول الاستعمارية. والدولة الأوروبية الوحيدة التي قبلت فكرة الجامعة الإسلامية كانت ألمانيا؛ لأن مستعمراتها كانت خالية من المسلمين كما أنها كانت المنافس الصاعد لكل من فرنسا وبريطانيا العظمى، وكان ذلك هو سر التقارب العثماني الألماني. وقام القيصر غليوم الثاني بزيارة السلطان عبد الحميد في إسطنبول 1898م، ثم اتجه إلى القدس، ثم دمشق ليضع إكليلًا من الزهور على قبر صلاح الدين وخطب فقال:

«فليطمئن صاحب العظمة السلطان، وليطمئن ملايين المسلمين الذين يُجِلُّونه باعتبار أنه الخليفة، إلى أنهم سيجدون في إمبراطور ألمانيا الصديق الدائم لهم». وفي ذلك اعتراف لما كان يسعى إليه السلطان عبد الحميد من مدّ نفوذه باعتباره خليفة لكافة المسلمين. والحقيقة أنه لم يرِد ذلك إلا لمقاومة أطماع الدول الأوروبية خاصة فرنسا وانجلترا وروسيا، يشاكسهم كما يفعلون ويضغط عليهم بتحريضه الرعايا المسلمين الذين لديهم عند اللزوم.

اللورد كرومر يهاجم حركة الجامعة الإسلامية:

لورد كرومر المعتمد البريطاني في مصر هو أول معتمد بريطاني شغل هذا المنصب بعد احتلال مصر عام 1882م وفشل الثورة العرابية في سبتمبر 1881م، وظل شاغلًا له أربعًا وعشرين سنة، وقد هاجم لورد كرومر حركة الجامعة الإسلامية هجومًا عنيفًا عام 1906م في تقرير له لحكومته فقال عنها: إنها حركة ترمي إلى تحدي الدول المسيحية، وإنها حركة قائمة على بث البغضاء والتفرقة العرقية والدينية. وقال أيضًا: إنها حركة تقوم على إحياء نظم ومبادئ وضعت منذ أكثر من ألف عام؛ لإرشاد وتوجيه مجتمعات بُدَائية، وهي مبادئ تنطوي على الاعتراف بالرِّق، وأن هذه المبادئ لم تعد ملائمة للعصر الحالي أو مناسبة للآراء الحديثة، فضلًا عن أنها تدمج القوانين المدنية والجنائية والدينية في قالب واحد، مما أدى إلى تخلف جميع البلاد التي اعتنق أهلها الدين الإسلامي.

وكان كرومر في هذ الصدد على شاكلة معظم المستشرقين الذين اتخذوا من العِلْمِ ستارًا للتهجم على الإسلام والمسلمين. وقد تصدى له الإمام محمد عبده مدافعًا عن حركة الجامعة الإسلامية، وعن السلطان عبد الحميد الذي وصفه بأنه أعظم سلاطين المسلمين. وقد ظلت بريطانيا على معارضتها للحركة حتى بعد عزل السلطان عبد الحميد، ورغم ذلك فقد تصاعدت الحركة في مصر إبان الحرب الليبية ضد إيطاليا، ونجحت الحركة جزئيًا في مرحلة الصراع الأولى بين الشعب الليبي وقوات الغزو الإيطالي قبل وصول الفاشيين الإيطاليين إلى الحكم.

مقدمات الحرب العالمية الأولى:

كان الجو السياسي ملبدًاو والخلافات مستحكمة بين الدول في عدة مسائل شائكة: فهناك مسألة الإلزاس واللورين بين ألمانيا وفرنسا. كذلك النزاع بينهما على تحديد مناطق النفوذ في شمال إفريقيا وغيرها، كذلك الخلاف بين النمسا والصرب، وبين الصرب وبلغاريا على منطقة البوسنة والهرسك ذات الأغلبية المسلمة، والخلاف بين انجلترا وألمانيا في التنافس البحْري والتجاري،

والخلاف بين روسيا والنمسا للسيطرة على البلقان. فاشتد التوتر العالمي واندفع العالم في طريق المخاطر. وكانت حادثة مقتل وارث العرش النمساوي وزوجته بواسطة صربي عام 1914م القشة التي قصمت ظهر البعير عندما هاج الرأى العام النمساوي وتداعت الأحداث. ووقفت ألمانيا إلى جانب النمسا ومعها بلغاريا وتركيا، ووقفت فرنسا إلى جانب روسيا وصربيا ثم بريطانيا ومعظم دول العالم، وفي نهاية الحرب اشتركت الولايات المتحدة الأمريكية في جانب الحلفاء بمواردها الضخمة، وكان دفاع الرئيس ولسون عن القضية المشتركة للحلفاء قد أكسبها قوة أدبية عظمى، فشروط الرئيس ولسون الأربعة عشر الشهيرة هي التي وضعت أساسًا معقولًا للصلح، فأضعفت مقاومة ألمانيا وحلفائها.

كان لبريطانيا وفرنسا من الأسباب القوية ما جعلهما تسعيان من أجل وقف النفوذ الألماني في الشرق، وإجهاض الصحوة الكبيرة التي نشطت في الدولة العثمانية خاصة بعد نجاح فكرة الجامعة الإسلامية، ومساندة ألمانيا لها ومد يد العون لتحديث الدولة مقابل مشروع خطة سكك حديد برلين - بغداد، كمرحلة أولى، ليمتد بعد ذلك إلى البصرة وكان السلطان عبد الحميد قد منح هذا الامتياز لشركة ألمانية، فنشطت المخابرات البريطانية والفرنسية داخل الدولة العثمانية، وقامت انجلترا وفرنسا بحملة تشنيع ضد السلطان عبد الحميد في الداخل والخارج، ونشطت حركة الجواسيس وفجأة حدث انقلاب عسكري بقيادة أعضاء جمعية الاتحاد والترقي، وتم عزل السلطان المشاغب وتولى السلطان محمد رشاد، ولكن الحكم الفعلي كان بيد جمعية الاتحاد والترقي وكان ذلك في عام 1909م. وهي جمعية تطالب بمزيد من الإصلاحات الدستورية ومزيد من التغريب ومقاومة التقارب العربي العثماني كما نادت بتتريك الدولة وإهمال اللغة العربية. بعد قليل انقضت إيطاليا على ليبيا (ولايتى برقة وطرابلس) آخر الولايات العثمانية في شمال إفريقيا عام 1911م. ولم تفعل الدولة العثمانية بقيادتها الجديدة شيئًا يذكر.

تركيا بعد الحرب العالمية الأولى:

تورطت الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى، وأعتقد أن هناك أسرارًا خفية وراء هذا التورط، وربما كان الصهاينة وراء ذلك. ومما يذكر أن الصهاينة وزعيمهم الأول هرتزل حاولوا استمالة السلطان عبد الحميد للسماح لليهود بوطن قومي في فلسطين مقابل سداد كل ديون الدولة فرفض. المهم هُزم التحالف الألماني العثماني وكان ما كان من تمزيق العالم الإسلامي بين فرنسا وانجلترا، وفي أثناء الحرب أغرى الإنجليز أمير مكة الحسين بن علي بوعده بتوحيد الأمة العربية ومنحها الاستقلال، وإقامة خلافة عربية، ونجح الشريف حسين في تحريك ثورة عربية ضد الدولة العثمانية في أحرج الأوقات فتهيأت الفرصة للإنجليز ليدخلوا القدس في ديسمبر 1917م.. وما زال البعض يعدون الثورة المذكورة مؤامرة بل خيانة، ولكني أرى أنها نتائج طبيعية لمقدمات طبيعية، هي إزاحة السلطان عبد الحميد أولًا، ثم حركة التتريك المضادة للعرب، وظهور حركة القومية العربية كردّ فعل لحركة التتريك التي كان من أشد دعاتها العرب المسيحيون في الشام، وخفوت صوت حركة الجامعة الإسلامية، ثم زعامة مصطفى كمال لتركيا الحديثة.

بعد الهزيمة التركية، وقعت هدنة مع الحلفاء في 30 أكتوبر 1918م واحتل الحلفاء بمقتضى هذه الهدنة المضايق وإسطنبول، وتجمع بعض الضباط من بقايا جمعية الاتحاد والترقي في أطنة، وأعلنوا أن تركيا ستحارب لاستعادة أراضيها. وفي مايو 1919م ترك مصطفى كمال وأصحابه إسطنبول قبل دخول الحلفاء وتجمعوا في أرض روم وأعلنوا استقلال تركيا، وانتُخب مصطفى كمال قائدًا لقوات التحرير في أبريل 1920م، في أثناء ذلك كان السلطان محمد السادس قد وقَّعَ معاهدة سيفر واعترف باحتلال الإنجليز والفرنسيين لإسطنبول واليونان لإزمير، وبتحريض من رئيس الوزراء الإنجليزي لويد جورج تقدم اليونانيون من إزمير واحتلوا عدة بلاد تركية فتصدت لهم جيوش مصطفى كمال وهزمتهم شر هزيمة في موقعة نهر سقاريا وأخرج اليونانيون

من آسيا الصغرى وانسحب الإنجليز والفرنسيون من إسطنبول من دون معارك حربية جَدِّيَة وكذلك الإيطاليون من منطقة أنطاليا ورودوس وجزر الدوكانيز، وجرت مفاوضات انتهت بمعاهدة لوزان يوليو 1923م، اعترفت فيها الدول باستقلال تركيا، وجعلت حدودها في غرب نهر مارتيزا بما في ذلك أَدِرْنَه مع نزع سلاح الجزء الأوروبي من تركيا، واعترفت تركيا بفصل سوريا والعراق عنها، وظهر كمال أتاتورك بمظهر البطل المحرر، وفرح العالم الإسلامي في كل مكان، وقال أمير الشعراء في مصر أحمد شوقي بك مبتهجًا بعد انتصار الكماليون على اليونانيين:

الله أكبر كم في الفتح من عجب

يا خالد الترك جدد خالد العرب

وفي عام 1924م، ألغى كمال أتاتورك الخلافة الإسلامية، رغم معارضة جميع المسلمين في الداخل والخارج، فكان قرارًا دكتاتوريًا قتل بسببه الكثير من المعارضين السياسيين، وفي هذه النقطة بالذات يُثار هنا وهناك جدل شديد حول ظروف إلغاء السلطنة أولًا، ثم الخلافة ثانيًا. وهناك آراء تثير الشكوك حول أتاتورك نفسه، وترى أن حرب التحرير تمثيلية جعلته بطلًا قوميًا قادرًا على إلغاء الخلافة، وكان ذلك تخطيطًا من الغرب المنتصر الذي ما كان يمكن أن ينسحب عسكريًا أمام أتاتورك بهذه السهولة (فقد انسحبت الجيوش البريطانية والفرنسية من دون احتكاك يُذكر ثم عقدت الهدنة وتم الاعتراف به) إلا باتفاق.. وثمن، رغم ذهاب بعض الضحايا من اليونانيين، والثمن هو السقوط الرسمي للخلافة الإسلامية، ونحن لا نذهب إلى هذا الحد، فربما كان هذا هو الممكن الوحيد لاحتفاظ تركيا بأراضيها، وربما ساعد على ذلك أن معظم المثقفين الإصلاحيين من جمعية الاتحاد والترقي (أعداء أتاتورك) فيما بعد وغيرهم، قد شاعت فيهم فكرة أن العالم العربي الإسلامي هو المسئول عن تخلف تركيا، وأنها دفعت ثمنًا باهظًا لتصديها للدفاع عنه، ولم تلق إلا الجحود والنكران بل والخيانة في الحرب العالمية الأولى، ولا يستبعد أيضًا أن يكون

وراء ذلك أصابع أجنبية لزيادة الفرقة بين أبناء الأمة الواحدة، والقضاء على فكرة الجامعة الإسلامية، والحقيقة أن انقلاب جمعية الاتحاد والترقي لعزل السلطان عبد الحميد كان انقلابًا على فكرة الجامعة الإسلامية بالدرجة الأولى، تلك الجامعة التي نجحت في مناوئة الدول الاستعمارية، ففكرة تتريك الدولة والترويج للأصول الطورانية للأتراك في السنوات التالية للانقلاب كان تمهيدًا لحركة التغريب الكاملة التي دعا إليها أتاتورك غير أنها لم تقدم ما يثبت على نحو قاطع فكرة الثمن المدفوع لبطولة كمال أتاتورك الذي حكم بلاده حكمًا دكتاتوريًا بالغ الصرامة حتى عام 1937م، ثم خلفه عصمت إينونو الذي اختاره من خارج أصدقاء الكفاح، وكان رئيسًا لأركان حربه، وجعله يتخطى الجميع ليواصل سياسته الدكتاتورية البوليسية حتى 1935م، ويسير على نفس النهج في محاربة تراث الإمبراطورية العثمانية، واستمر النظر للتراث الديني على أنه علة من علل التخلف، وأصبحت تركيا الطورانية أو الأتاتوركية ترى وجوب إعادة النظر في التاريخ المشترك مع الشعوب المختلفة حضاريًا، وقد وصل الأمر إلى محاولة إلغاء الأذان من المساجد في إسطنبول، بل إنه أُلغِيَ فعلًا ولكنه عاد بعد ما يقرب من عام من إلغائه.

وما زال النهج التركي في التغريب قائمًا حتى اليوم ولا تستطيع تقييم نتائجه من عام 1923م حتى الآن، رغم معرفة الجميع أن تركيا لم تُقبل حتى الآن في السوق الأوروبية رغم تأكيدها في كل مناسبة أنها غربية التوجه، ولم يرتفع الدخل القومي فيها كثيرًا، ولا زالت ديونها للغرب تزيد على الـ55 مليار دولار، ولديها مشكلات عديدة، منها ظهور تيار معاكس للتغريب الذي لم يتأصل رغم ما بُذل من جهود لمحو الهوية التركية العثمانية التي لازالت تعيش في وجدان الشعب التركي.

أما عن مصر فتُعدُّ أهم جزء في العالم الإسلامي لعب دورًا في تاريخ القرن التاسع عشر إلى جانب تركيا، وقد تلقى الشعب المصري نتائج الحرب العالمية الأولى بالأسى والحزن والفهم أيضًا لحركة التاريخ وخاصة في الحركات

الإصلاحية التي كانت تقوم بها كلا البلدين لمقاومة الاستعمار الأوروبي، فالأفغاني كان في مصر وتركيا يستنهض الهمم، كذلك الشيخ محمد عبده ومصطفى كامل ومحمد فريد. وأخيرًا قامت ثورة 1919م، بقيادة سعد زغلول باشا كردٍّ على نتائج الحرب العالمية الأولى، وهي أول ثورة حقيقية في الشرق في وجه أعتى الإمبراطوريات الاستعمارية.

قامت هذه الثورة في أحلك الظروف الانهزامية للعالم الإسلامي، وكانت نتائجها عظيمة من الناحية الاقتصادية والثقافية، وظهر في مصر روادٌ للاقتصاد، والصناعة، والعلم، والفكر، وقد استقلت مصر استقلالًا منقوصًا، وظهر دستور 1923م، ولا جدال في أن حزب الوفد الذي أفرزته ثورة 1919م إفرازًا طبيعيًّا، ظل يقود الحركة الوطنية ضد الإنجليز، وضد جنوح الملك إلى الدكتاتورية، والاعتداء على الدستور، ولكن الأهم من ذلك كله هو ظهور رغبة عامة لدى الشعب في الأخذ بأسباب النهضة، هذا علاوة على روح الوحدة الوطنية ومشاركة معظم طوائف الشعب في الأحداث السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية. كما حدث في أوائل القرن تطور مهم في الفكر الديني لمواكبة العصر، فقد قام الإمام محمد عبده والأفغاني وتلاميذهما بالدفاع عن الإسلام ضد دعاة الاغتراب الكامل ودعاة السلفية الرجعية، ويجب ألا ننسى فتاوى الأمام محمد عبده بإباحة المعاملات البنكية، بل إنه شجع الاقتصادي طلعت حرب على إنشاء بنك مصر الذي أسهم في العديد من المشروعات بَدْءًا بشركة مصر للطيران، وانتهاء باستديو مصر للسينما، كما أباح الإمام محمد عبده: الرسم، والنحت، والتصوير، ووضح مفهوم كل محدثة بدعة في معناه الحقيقي وهو النهي عن الابتداع في الدين وتشجيعه في كل ما عدا ذلك. وقد أقام الإمام محمد عبده اتصالات عديدة مع الأدباء والمفكرين العالميين، أهمهم الأديب الروسي تولستوي الذي لم ينف تأثره بالإسلام شأنه شأن الشاعر الكبير الروسي أيضًا بوشكين.

وظهرت في مصر حركة تنوير عامة من خلال مركز ترجمة كبير -مسرح- أدب-

صحافة- علم- حريات سياسية- تحرير المرأة... كل ذلك مع الاحتفاظ بالهوية المصرية الإسلامية.

وفي هذه الفترة وقبل الحرب العالمية الثانية، سقط رئيس الوزراء المصري في الانتخابات العامة، ونوقشت مصروفات الملك في البرلمان، ورغم ذلك تحالف الاستعمار مع القصر لضرب الحركة الوطنية أكثر من مرة كما تحالف التيار الديني مع الملك عندما رفع الإخوان المسلمون شعار: القرآن دستورنا، والرسول زعيمنا، والملك خليفتنا!!

واستجاب الملك فاروق وأطلق لحيته وأمسك بسبحة طويلة رغم فساده الشخصي، هذا في الوقت الذي كانت الحركة الوطنية تحارب المستعمر وتحارب استبداد الملك واعتدائه على الدستور والحريات.

القسم الخامس: ما بعد الحرب العالمية الثانية

إضاعة فرص التقدم:

تحركت الشعوب ضد المستعمرين بعد الحرب العالمية الأولى، مما جعل الدول الاستعمارية تحاول ترضية الشعوب باستقلال هشّ، أو وعود بالاستقلال، حيث كانت سحب الحرب العالمية تتجمع بين دول المحور والحلفاء. وقامت الحرب العالمية الثانية، وانتهت بهزيمة المحور، وضعف الإمبراطوريتين: الفرنسية، والبريطانية، وبزوغ الولايات المتحدة الأمريكية لترث نفوذ الإمبراطوريتين، خاصة في الشرق الأوسط كما ظهر الاتحاد السوفييتي كقوة عالمية تستقطب عددًا كبيرًا من الدول، وبدأت الحرب الباردة بين الكتلتين، وصراع الأيدلوجيات، نتج عن هذا كله حركة استقلال كبيرة في آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية فيما بعد. لكن إرادة هذه الشعوب لم تستقل بل بقيت بصورة أو بأخرى مرتبطة بالمستعمر القديم.

وَزُرِعَتْ إسرائيل بمباركة القوتين العظميين في قلب العالم العربي عام 1948م،

وبدعم كبير من الولايات المتحدة الأمريكية والغرب عمومًا؛ لتنوب عن الغرب في تحجيم التنمية الحقيقية للشعوب العربية في المنطقة، وقبل ذلك بسنوات قليلة كان الغرب قد أقام عدة عروش عربية، وتقسيمات للحدود بين الإمارات والدول العربية، لا يزال الخلاف على بعضها مشتعلًا حتى اليوم. المهم أن الاستعمار زرع في المنطقة العديد من أسباب الاختلاف. ورغم ذلك قطعت مصر شوطًا كبيرًا في التقدم، والفهم السياسي، وقامت الحركة الوطنية المصرية بتحقيق العديد من الإنجازات الوطنية مثل تمصير البنوك، وإقامة بعض الصناعات والشركات، وقامت حركة ترجمة كبيرة فيما بين الحربين العالميتين مما جعل مصر تحتل مركزًا مرموقًا في الوطن العربي، وإن كان ذلك في ظل استقلال منقوص لمصر والسودان. وكان النظام المصري «ليبراليًّا» تحرسه القوى الوطنية ممثلة في حزب الوفد الذي تكون عقب ثورة 1919م التي أفرزت إنجازات واضحة في الميدان الاقتصادي والاجتماعي والسياسي.. وكان الاستعمار البريطاني والقصر الملكي يحاولان دائمًا تحجيم المد الليبرالي المصري بتدخل الملك في شئون الحكم ومحاولة العودة إلى النظرية الاستبدادية في الحكم، مما أدى إلى حرمان الحزب الذي يتمتع بثقة الشعب من الحكم الديمقراطي نحو سبع سنوات خلال ثلاثين عامًا رأس الوزارة فيها مصطفى النحاس باشا خليفة سعد زغلول، وزعيم الأغلبية الشعبية في مصر.

ودخلت الدول العربية شبه المستقلة حرب فلسطين عام 1948، وكانت النتيجة المؤسفة المعروفة.. وخلال سنوات قلائل بدأت الانقلابات العسكرية أولًا في سوريا عام 1949، ثم في مصر عام 1952 وكان اسمها حركة الجيش المباركة. ثم سميت ثورة 1952م بزعامة عبد الناصر صاحب الأثر البالغ في الحياة المصرية سلبًا وإيجابًا.

وانشغلت الأمة العربية في الصراع العربي الإسرائيلي، ودخلت عدة جولات، كان وجود إسرائيل فيها يتأصل ويتأكد بعد كل جولة. ويبدو أن منطلق إدارة هذا الصراع لم يكن الهدف منه سوى تأكيد دور زعامة الزعماء العرب لا البحث

عن حل موضوعي لهذا الصراع، وصبرت الشعوب على زعمائها ذوي الخطب الرنانة والوعود البراقة وتشرذمت المنطقة العربية أكثر وأكثر في العقود الثلاثة بعد الحرب العالمية الثانية. وانقسم العالم العربي إلى دول أسمت نفسها تقدميه اشتراكية، وأسمت غيرها رجعية، راهن النوع الأول على الحصان الشيوعي، أما النوع الآخر فلم يخرج على طاعة الغرب، خاصة بعد ظهور النفط في المنطقة وإصرار الغرب على السيطرة الكاملة عليه باعتباره شريان الحياة وعصب الحضارة المعاصرة. وقد ثبت هذا جليًّا في حرب الخليج.

وظهر ما يُسمى بدائرة البترو دولار؛ حيث يستخرج النفط للغرب، ويستثمر -معظم ثمن النصيب العربي منه- أيضًا في الغرب. أما الدائرة الإسلامية الأوسع من باكستان وإندونيسيا إلى تركيا مرورًا بإيران، فقد ظلت داخل النفوذ الغربي مرغمة أو مختارة.

أضاع العرب في العقود الثلاثة بعد الحرب العالمية الثانية فرصًا كبيرة للتنمية الحقيقية، خاصة مصر التي كانت قد وصلت إلى درجة معقولة من التقدم. وكانت أوروبا ومعها أمريكا ما زالتا مشغولتين بإزالة آثار الحرب العالمية الثانية في أجزاء عديدة من أوروبا مثل: فرنسا، وألمانيا، وإيطاليا، وشرق أوروبا. وضاعت الفرصة الذهبية للتنمية،خاصة في مصر الوطن المؤهل فنيًّا وماديًا للتنمية والتقدم.

مسئولية نظم الحكم:

كانت الأمة العربية والإسلامية هي الضحية لقصور دوائر اتخاذ القرار فيها، فالحكم إما قبلي عشائري وإما دكتاتوري يحلم بالمجد الشخصي معتمدًا على إعلام مضلل، وسجون مفتوحة، وعقول مقهورة أو مغسولة.

وظهرت عبادة الفرد في أجل صورها في مصر وسوريا والعراق، وبيعت مصالح الشعوب بثمن بخس لأعدائها؛ ألا وهو بقاء الزعيم بأسمائه الخلّابة في عرشه: الزعيم القائد، الزعيم الملهم، المعلم،المؤمن، وأحيانًا المهيب، والرفيق.. حتى

يموت ويظهر ملهم ومعلم وقائد آخر يقول نفس الكلام، ويطلق نفس الشعارات المخدرة للشعوب تخدمه نفس البطانة من المنافقين، ويستوزر نفس المماليك، وتغرق الشعوب في الديون، والبطالة المقنعة، والتضخم. ومما زاد الطين بلة ظهور الغنى الزائف لشعوب الدول المنتجة للبترول، خاصة بعد حرب 1973م المجيد؛ فالغنى الناتج عن غير عمل إنساني يفرز عقولًا فقيرة ونفوسًا مريضة أثـرت علـى قـيم العمـل فـي العـالم العـربي كلـه، خاصة بعد أن فتحت الدول ذراعيها للعمالة القادمة من الدول العربية الفقيرة.. أو التي أفقرها سوء التدبير الناتج عن الحكم الدكتاتوري، فأحدث اهتزازًا لقيمة العمل، وروجت هذه الدول في أوساط تلك العمالة أفكارًا متخلفة، سلفية الشكل سطحية المضمون، مما أثـر على العقل العربي والإسلامي بالسلب. وكما أضاع الحكام العرب فرصة الثلاثين عامًا بعد الحرب العالمية الثانية أضاعوا ثمرة حرب أكتوبر التي جاءت كومضة تقول إن الأمة العربية والإسلامية على قيد الحياة، ولكن سرعان ما اختفت هذه الومضة وحلت الغفلة مرة أخرى، لنصل إلى أزمة الخليج، وما أدراك ما أزمة الخليج؟! هي أزمة غنية عن البيان والتدليل.. تمثل قاع المهانة لأمة لا تجد ما تستر به نفسها، كما تمثل أيضًا قمة التآمر الأجنبي المستغل لقمة الجهل والغفلة إن لم يكن العمالة، ولا يزال العرض مستمرًا.

والسؤال الأخير في هذا الكتاب: هل تصلح النظم القبلية والعشائرية والشمولية عمومًا، والديمقراطيات المزيفة لإفراز الكفاءات إفرازًا حقيقيًا ينتهي بوضع الرَّجُل المناسب في دوائر اتخاذ القرار؟

والإجابة: إن الإفراز الطبيعي للكفاءات والقيادات من وعاء الأمة كلها يعتمد على الآتي:

1 - نظام يقدس الحرية والديمقراطية ويحترم القانون.
2 - نظام يؤمن بتداول السلطة وعدم احتكارها.
3 - نظام يؤمن بتكافؤ الفرص في كل المجالات.

4 - نظام يؤمِّن حق المواطن العادي في المعرفة، وصدق ما يلقى إليه من معلومات.

5 - نظام يشجع المشاركة الشعبية في الحكم من دون إرهاب أو تهديد.

وأخيرًا: فلنذكر أيها القارئ العزيز أن النظم الشمولية تخنق أوعية اختيار الكفاءات والقيادات.. فلا تحوي هذه الأوعية إلا المنافقين والأغبياء، إلا فيما ندر من المصادفات العشوائية، والنفاق هو ميدان الإجادة والإجازة تحت كابوس النظم الشمولية، قانون الطفو عند المماليك، وما أكثرهم في أمة العرب والمسلمين؟!

يحدث هذا في وقت حاسم في تاريخ الأمم وخاصة بعد تفكك العقد الشيوعي في أوروبا الشرقية، وزوال الاتحاد السوفييتي وانفراد الولايات المتحدة بالهيمنة على العالم، وهو عالم مازال يفتقد الاستقرار بالتناقضات الاقتصادية والسياسية التي تغلي تحت السطح بين أوروبا الموحدة بزعامة ألمانيا، والولايات المتحدة، وبينهما وبين اليابان، ومجموعة الشرق الأقصى، وذلك يتطلب تغييرًا جِذْريًّا سريعًا وحاسمًا في أمتنا العربية والإسلامية، كأوطان منفصلة أولًا، ثم تعاون إقليمي ثانيًا، ثم تكتلات إقليمية أوسع فيما بعد.

الفصل الرابع: المشروع الأمريكي للشرق الأوسط الجديد

- القسم الأول: تحرير أفغانستان من الوجود السوفييتي بمعاونة المجاهدين الإسلاميين، وحرب العراق وإيران، وحرب العراق والكويت.
- القسم الثاني: نشاط الجماعات الدينية في آسيا وإفريقيا وحوادث إرهابية في العالم العربي، وأثر ذلك على الأنظمة الحاكمة.
- القسم الثالث: تبعات حادث 11 سبتمبر والغزو الأمريكي لأفغانستان والعراق.
- القسم الرابع: الحالة المصرية (في سلسلة الثورات العربية) ورفضها المشروع الأمريكي.

القسم الأول: تحرير أفغانستان من الوجود السوفييتي

بمعاونة المجاهدين الإسلاميين وحرب العراق وإيران وحرب العراق والكويت

استغلال الولايات المتحدة الجماعات الدينية في تحرير أفغانستان من السوفيت:

شهد عقد السبعينيات من القرن العشرين أحداثًا لها أهميتها في بناء السياسة الأمريكية ورسم خططها والبدائل لها؛ للهيمنة على الشرق الأوسط برمته في منظوره الحالي وحتى المدى البعيد. بداية من استخدام الجماعات الدينية تحت شعار الجهاد ضد السوفيت في أفغانستان، وقد كلل ذلك بالنجاح بانتصار أمراء الحرب على السوفيت، وذلك بمعاونة أمريكا؛ حيث درَّبت ومولت وسلحت المجاهدين العرب الأفغان: من سعوديين ومصريين، ويمنيين وعراقيين، وأرسلتهم لتحرير أفغانستان من النفوذ السوفييتي، وانتهاءً باستخدامهم في إشاعة الفوضى في العالم العربي والإسلامي. وقد لعبت المخابرات الأمريكية والسعودية دورًا مهمًا في هذا الإعداد الذي حقق مصلحة

هامة في صراع الولايات المتحدة ضد الاتحاد السوفييتي الذي بدأ في الترنح مع أوائل الثمانينيات، أما السعودية فأصبحت بموافقة أمريكا زعيمة للإسلام السُّني في العالم ومروجة للمذهب الوهابي في الجماعات الدينية والإسلام السياسي خاصة في مصر والأردن، وقد عقدت عدة اجتماعات في الرياض1 بين رجال المخابرات الأمريكية والسعودية لتخطيط وتنظيم هذه السياسة، وما زاد الأمر سهولة في مصر ذلك التحالف بين الرئيس المصري السادات وبين الإخوان المسلمين والجماعات الدينية؛ لمواجهة اليسار الاشتراكي والناصري.

نشوب الثورة الإيرانية:

هي ثورة اشترك فيها كل الأطياف الإيرانية إلا أن القوى الدينية سيطرت على الشارع واستدعت الزعيم الروحي الخميني؛ لإعلان الجمهورية الإسلامية في إيران الشيعية المذهب في نظام سياسي يعتمد على ولاية الفقيه، حيث يمثل آية الله الخميني أعلى سلطة مشرفة على رئاسة الجمهورية، ورغم أن الولايات المتحدة لم تساند الشاه كما سبق أن فعلت عام 1950 عندما فر الشاه أمام ضغط ثورة الدكتور مصدق الوطنية وإعادته لعرشه ولكنها لم تحرك ساكنًا في هذه المرة واكتفت بإرسال رجال مخابراتها وبعض الجواسيس الذين تم القبض عليهم فيما يسمى بأزمة الرهائن التي استمرت نحو عام، وفي هذا العام نفسه في يوليو 1979 تولى الرئيس صدام حسين الحكم رئيسًا للعراق، وتم إعدام بعض منافسي صدام من قياديي حزب البعث ثم تم تنحية الرئيس البكر لمرضه.

عقب الثورة الإيرانية، تم إفراغ القوات المسلحة الإيرانية من قادتها وأُعدم من أُعدم، وسُجن مُنْ سجن كنوع من تطهير القوات المسلحة من العهد الإمبراطوري السابق من دون النظر للعواقب السلبية من خلخلة القوات المسلحة، وتكوين الحرس الجمهوري من مليشيات شيعية ثورية لحراسة الثورة، وربما يكون ذلك أحد الأسباب التي رأى صدام حسين وجوب استغلالها في الهجوم على إيران.

حرب العراق وإيران:

بدأت مناوشات حدودية من مايو - أغسطس 1980م بين العراق وإيران، وفجأة أعلن الرئيس صدام حسين إلغاء اتفاقية الجزائر في عام 1975م، وهي اتفاقية متضمنة رسم الحدود وحقوق كلا الدولتين في الخليج العربي، كان هذا الإلغاء في 17 سبتمبر، أعقبه عبور القوات العراقية البرية الحدود الدولية في 22 سبتمبر 1980م. فبدأت حرب دموية لمدة ثمان سنوات، راح ضحيتها مليون قتيل، وضعف هذا العدد من المصابين، كما تكلفت 400 مليار دولار (وهكذا يتم تبديد الثروة الإسلامية العربية فيما لا يفيد بدلًا من توجيه هذه الثروة في المجالات العلمية والصناعية) وفي عام 1983م قدرت خسائر الحرب من الأرواح وكانت 120.000 إيراني 60.000 عراقى، واستمرت الحرب والضحايا تزداد والتكلفة المادية تتراكم في هذه الحرب العبثية حتى 20 أغسطس 1988. ومن الذكريات المؤلمة لهذه الحرب قيام إسرائيل بضرب المنشآت النووية العراقية في 7 يونيو 1981 بغارة جوية من أربع طائرات عبرت أجواء عربية عديدة لتدمر المنشآت غير المؤمنة جيدًا وتعود إلى قواعدها سالمة، في الوقت الذي كان الرئيس الإسرائيلي يتناول الشاي مع الرئيس المصري في شرم الشيخ في لقاء ودي وغضب السادات جدًّا لهذه الواقعة المهينة له ولكل العرب (الغضب غير معترف به في السياسة) والمدهش أن العراق أعلن في بادئ الأمر أن الطائرات الإيرانية هي التي أغارت ودمرت؛ ليبدو الأمر طبيعيًّا في يوميات الحروب، ولكن سرعان ما عرفت الحقيقة المرة التي تؤكد أن إسرائيل لا تغفل لحظة عما تعتقد أنه يمس أمنها، فأمنها الذي هو تكريس الضعف العربي وهدم قواه المادية.

انتهت الحرب وصدر قرار مجلس الأمن رقم 598 المكوّن من خمس نقاط:

1 - وقف إطلاق النار.

2 - الانسحاب للحدود الدولية.

3 - تبادل الأسرى.

4 - عقد مفاوضات سلام.

5 - إعمار البلدين بمساعدات دولية.

استمرت المفاوضات نحو عام وانسحب بعدها العراق تمامًا من الأراضي الإيرانية 2500كم من دون قتال، وفجأة هاجم الرئيس صدام حسين الكويت في 2 أغسطس 1990 لتبدأ حرب الخليج، الحرب العبثية الثانية بعد حرب الخليج الأولى، فما هدف الرئيس صدام من هذه الحرب، وماذا حقق منها؟ من الصعوبة معرفة ذلك؛ لأن الأسباب متعلقة بعقل واحد هو عقل صدام حسين، وليس سياسة دولة أو مؤسسات أو مطالب شعبية، كل ما نستطيع قوله على ضوء معرفتنا لهذه الشخصية الشاذة الدموية:

أولًا: أنه أراد أن يبرهن لأمريكا أنه الرجل الممكن الاعتماد عليه، وأنه قادر على الإطاحة بالثورة الإيرانية التي أرهقت أمريكا في أزمة الرهائن، مستغلًّا خطأ الثورة الإيرانية في خلخلة قواتها المسلحة.

ثانيًا: أراد صدام أن يخيف كل دول الخليج باعتباره سوبر مان العرب، وبالمناسبة الرئيس صدام هو أكثر الرؤساء في العالم ارتداء للزي العسكري رغم إنه لم يحصل على أي تعليم عسكرى.

حرب العراق والكويت:

شنَّ العراق هجومه على الكويت في 2 أغسطس 1990، واستمرت العملية العسكرية يومان وانتهت باستيلاء القوات العراقية على كامل الأراضي الكويتية في يومين؛ 4 أغسطس 1990 معلنة أن الكويت هي المحافظة رقم 19 بالعراق، هربت حكومة الكويت إلى السعودية، وشكلوا حكومة كويتية في المنفى. استمر الاحتلال العراقي في الكويت 7 شهور حيث انتهت بتحرير الكويت في 26 فبراير 1991.

وكان من أسباب الحرب التي ادعاها الرئيس صدام حسين هو تحميل الكويت والسعودية الديون العراقية؛ لأن الحرب العراقية الإيرانية كانت بمثابة دفاع عن البوابة الشرقية للوطن العربي، ولذلك طالب صدام حسين بإلغاء جميع الديون العراقية لدى الكويت والسعودية.

أيضًا هناك سبب آخر ألا وهو خلاف على إنتاج النفط، حيث إن العراق كان يأمل في دفع ديونه لدى الكويت عن طريق رفع أسعار النفط بواسطة تقليل نسبة إنتاج منظمة الأوبك للنفط، واتهم العراق الكويت برفع نسبة إنتاج النفط بدلًا من خفضه، ومن ثمّ أدى ذلك إلى انخفاض سعر النفط وبدأت الأحداث تأخذ منحنى تصاعديًا من قِبل النظام العراقى، حيث بدأ توجيه الاتهامات للكويت مفادها: أن الكويت قامت بأعمال تنقيب غير مرخصه عن النفط في الجانب العراقي من حقل الرملية، ويطلق عليه في الكويت الرتقة، وهو حقل مشترك بين الكويت والعراق.

إحدى نتائج الحرب العراقية الإيرانية كانت تدمير موانيء العراق على الخليج العربي مما شلّ حركة تصدير العراق للنفط من هذه الموانيء، وكانت القيادة العراقية تأخذ في حساباتها المستقبلية احتمالية نشوب الصراع مع إيران مرة أخرى، ولكنها كانت تحتاج إلى مساحة أكبر من السواحل المطلة على الخليج العربي، فكانت الكويت أحسن فرصة لتحقيق هذا التفوق الاستراتيجي. وهناك آراء تؤمن بأن الغزو العراقي للكويت كان مؤامرة أمريكية - إسرائيلية نفذها صدام حسين؛ ليتم التأمين والسيطرة على منابع النفط في الخليج.

وفي يونيو 1990، التقى صدام حسين السفيرة الأمريكية أبريل جلاسبي التي قالت: إن «أمريكا ليس لها رأى بشأن صراع عربي - عربي». وفهم صدام حسين أن ذلك يعني ضوءًا أخضر لاجتياح الكويت.

اشترك في تحرير الكويت القوات الأمريكية والبريطانية بقوات برية، مُهّدَ لها بضربة جوية شاملة ضد الأهداف العراقية. كما شارك الجيش المصري والجيش

السوري في التحرير، وانتهت الحرب بتحرير الكويت بعد 7 شهور من الاحتلال العراقي من دون مقاومة عراقية تذكر، وبذلك يمكن وصفها بالحرب العبثية الثانية.

القسم الثاني: نشاط الجماعات الدينية في آسيا وإفريقيا وحوادث إرهابية في العالم العربي وأثر ذلك على الأنظمة الحاكمة

شهد عقد التسعينيات تفكك الاتحاد السوفييتي وهزيمة الشيوعية العالمية، واستقلت جمهوريات الاتحاد السوفييتي بما فيها أوكرانيا وجورجيا وكازاخستان وأذربيجان وأرمينيا وجمهوريات البلطيق فيما عدا الشيشان، حيث الدستور الروسي لم يكن يسمح بانفصالها، ومع ذلك قام الجنرال دو دايف بحركته الاستقلالية عام 1996م التي كادت أن تنجح، ولكن روسيا تغلبت في النهاية ومنحت الشيشان حكمًا ذاتيًا، وفي أثناء كفاح الشيشان نحو الاستقلال ذهبت الجماعات الإسلامية العربية للجهاد ضد الروس بعد صبغ حركة الاستقلال بصبغة دينية، وقد عادوا في النهاية بعد فشل الحركة، ولكن شجعوا على ما يِجُدُوَنه من أعمال إرهابية واحتجاز للرهائن، وتكريس للإسلام السياسي المتشدد.

وفي أوروبا الشرقية، تفككت يوغوسلافيا إلى جمهوريات: صربيا، وسلوفينيا، وكرواتيا، وأعلنوا استقلالهم في يسرمن دون صعوبة ولكن عندما أرادت جمهورية البوسنة والهرسك المسلمة إعلان استقلالها قام الصرب المحليون بدعم من الجيش الصربي بمذابح وحشية ضد المسلمين البوسنيين الذين قاوموا بلا سلاح متكافئ، ولكن في بسالة نادرة بقيادة الدكتور على عزت يوجوفيتش الذي كوَّن جيشًا من لا شيء وحقق الكثير من الانتصارات على الصرب. والجدير بالذكر أنه رفض استقدام الجماعات الإسلامية شاكرًا واكتفى

لمذابح الصرب في البوسنة وتدخلت الولايات المتحدة عسكريًا ضد الصرب وتوقفت الحرب التي دامت 4 سنوات عام 1996م بصلح دايتون الذي اعترف باستقلال جمهورية البوسنة والهرسك، وتضمن حقوقًا للأقليات الصربية والكرواتية مما يتعارض مع الاستقلال الكامل، ومع ذلك انتُخب على عزت يوجوفيتش رئيسًا للجمهورية مرتين متعاقبتين وضربت الولايات المتحدة الجيش الصربي داخل صربيا نفسها، واعتبرتها دولة مارقة قامت بجرائم حرب، وحوكم رئيسها سلوبدان كمجرم حرب فيما بعد (اشترك الجيش الصربي في القتال ضد البوسنيين) رغم انشغال العرب بالحرب الإيرانية العراقية فقد قاطعوا مصر السادات باعتباره أضر بالقضية الفلسطينية عندما وقَّع معاهدة السلام مع إسرائيل، وتزعم هذه المقاطعة الرئيس صدام حسين والرئيس حافظ الأسد رئيس سوريا، أما في مصر فقد انقسم الناس بين مؤيد ومعارض، الأمر الذي جعل الرئيس السادات عصبيًا فاعتقل معارضيه الليبراليين، وعلى رأسهم فؤاد باشا سراج الدين، ومحمد حسنين هيكل وذلك في سبتمبر 1981، وفي 6 أكتوبر 1981 وفي أثناء العرض العسكري بهذه المناسبة تم اغتياله في واقعة درامية بواسطة الإسلامبولي الذي تحالف مع هذه الجماعات عام 1972م؛ لمقاومة اليسار الاشتراكي والناصري؛ وتولى الرئيس حسني مبارك الذي بدأ حياته السياسية بالإفراج عن المعتقلين السياسيين وحاول التقرب للشعب في السنوات الخمس الأولى حتى اشتد ساعد الإخوان المسلمين وانبثقت في التيار الديني جماعات تحمل أسماء مختلفة بدا نشاطها في مصر والأردن والسودان والجزائر.

وبانتهاء حرب الخليج الأولى والثانية سقط نظام الريس سياد بري في الصومال عام 1991 وكان متبنيًا نظامًا اشتراكيًا، وقد اتسم عهده بالصرامة؛ فقد واجه حركات تمرد في شرق وشمال الصومال وقمع بشدة التحركات التي قامت بها الجماعات الإسلامية، ورغم دكتاتورية هذا النظام فإنه حقق اكتفاء ذاتيًا للصومال في فترة الثمانينيات كما دعم الثورة الإريترية واستقلال جيبوتي وعارض المقاطعة العربية لمصر بعد اتفاقية السلام مع إسرائيل

وخاض حربًا ضد إثيوبيا بهدف استعادة إقليم وجادين الصومالي المحتل من إثيوبيا، ولكن الاتحاد السوفييتي وحلفاءه عارضوه لصالح إثيوبيا الشيوعية في ذلك الوقت.

ولم يصمد نظام سياد بري بل انهار أثر تمرد عسكري قبلي بدعم من إثيوبيا، أما في السودان فقد حدث انقلاب عسكري ضد الحكومة الديمقراطية برئاسة الصادق المهدي في عام 1989م بزعامة الرئيس محمد البشير المدعوم بالشيخ حسن الترابي الإسلامي الشهير، وتمكن الإخوان من فرض سيطرتهم على الحكم وتغذية الصراع السياسي ضد جنوب السودان بدواعٍ دينية؛ أي أن الشمال المسلم المطبق لشرع الله يحارب المسيحيين في الجنوب. وفي النهاية لم يحقق الحكم الإخواني أي انتصارات بل على العكس انقسم السودان إلى دولتين في عام 2011، وما زال السودان حتى 2013 يعاني تمردًا في دارفور وكردفان وشرق النيل الأزرق، مما يهدد بانقسامات أكثر بالسودان، وأصبح الرئيس البشير مطلوب القبض عليه من المحكمة الدولية لارتكابه جرائم إبادة وجرائم حرب عديدة.

وعودة للصومال فنجد انهيار حكم سياد بري أحدث فوضى ما زالت قائمة بسبب الجماعات الإسلامية الجهادية المتعددة والمتنازعة، وتفتت الجيش الصومالي القوى الذي كوّنه سياد بري، ويبدو أن تدمير الجيوش العربية هدفًا في حد ذاته، وانتشرت مجاعات رهيبة في الصومال وظل حكم أمراء الجماعات الإسلامية المتعددة إلى الآن 2013م. وسبق أن أشرنا لزيادة الزخم الديني في مصر وخلال التسعينيات بدأ الإرهاب المنظم من قِبل الجماعات الدينية والإخوان المسلمين وأهم الاغتيالات في هذه الفترة: مقتل الشيخ الأزهري الشيخ الذهبي، وقتل المفكر فرج فودة، وقتل الدكتور رفعت محجوب رئيس مجلس الشعب، ومحاولة اغتيال د. نجيب محفوظ، ووزراء الداخلية، وحدثت أكبر عملية إرهابية في مصر هي ما ارتكبته الجماعة الإسلامية ضد السائحين في الأقصر عام 1997م، حيث قُتل 60 سائحًا أجنبيًا دفعة واحدة،

مما أدى لمواجهة أمنية من الحكومة ضد التيارات الدينية والإخوان المسلمين وامتلأت بهم السجون.

فإذا حولنا بصرنا نحو الشرق نجد اشتداد حركة جماعة طالبان المتطرفة في أفغانستان التي استولت على الحكم، ودعمت جماعات إرهابية أطلقت على نفسها المجاهدين، وأطلق عليهم الأمريكيون القاعدة بزعامة أسامة بن لادن السعودي ونائبه الدكتور المصري الظواهري، وحدثت في العالم حوادث إرهابية متعددة في باكستان ضد السفارة المصرية، وحوادث أخرى برية وبحْرية ضد الدول الغربية، واشتد عود الإرهاب في اليمن والسعودية. واستشاط الغرب وإسرائيل غضبًا من الهجمات الإرهابية.

القسم الثالث: تبعات حادث 11 سبتمبر والغزو الأمريكي لأفغانستان والعراق

تفصيلات حادثة السطو على الطائرات، وتدمير برجي التجارة العالميين في 11 سبتمبر 2001م.

السطو على طائرة American 11

أقلعت الطائرة الأولى من مطار بوسطن الدولي (Boston›s Logan international airport) متجهه إلى لوس أنجلوس الساعة 7.59 وكان من المقرر أن تقلع في الساعة 7.45 وأسماء الإرهابيين الذين استولوا عليها: عمارى، حاتم السوكامي، وائل الشهيري، وعطا الذي قام بالاستيلاء على كابينة الطيار وتولى القيادة. وفي الساعة الثامنة وستة وأربعون دقيقة وأربعون ثانية ضربت الطائرة البرج الشمالي للمركز التجاري العالمي نيويورك.

- عدد القتلى على متن الطائرة كان 87 شخصًا، بالإضافة إلى الإرهابيين الخمسة.

- عدد القتلى في البرج 1.600 عامل طوارئ.
- البرج الشمالي احترق وانهار بعد 102 دقيقة من الارتطام في الساعة 10.28.

السطو على الطائرة United 1750:

أقلعت الطائرة الثانية من مطار بوسطن الدولي (Boston›s Logan international airport) متجهة إلى لوس أنجلوس الساعة 8.14 وكان من المقرر أن تقلع الساعة 8.00، وحدث السطو ما بين الساعة 8.42 والساعة 8.46، وكان على متنها من الإرهابيين: شمي، فايز بني حماد - مهند الشهيري، أحمد الغمدي. استولى شمي على كابينه الطيار وتولى القيادة. وفي الساعة 9.03 ارتطمت الطائرة بالبرج الجنوبي لمركز التجاري العالمي نيويورك.

- عدد القتلى على متن الطائرة 60 شخصًا، بالإضافة إلى الإرهابيين الخمسة.
- عدد القتلى في البرج كان 900 من عمال الطوارئ.
- انهار البرج الجنوبي الساعة 9.59 بعد 56 دقيقة من الارتطام.

السطو على الطائرة American 77:

أقلعت الطائرة الثالثة من مطار دولس بواشنطون (Dulles international air port) متجهة إلى لوس أنجلوس، وكان من المقرر أن تقلع في الساعة 8.10 ولكنها أقلعت الساعة 8.20 وكان على متنها من الإرهابيين: خالد ميهدار، وماجد مرقد، وهاني هنجور، ونواف الحزمي، وسالم الحزمي. وتولى قيادتها بعد الاستيلاء على كابينة الطيار هاني هنجور، وضربت الطائرة الجانب الغربي الجنوبي للبنتاجون الساعة 9.37.47، وانهار جزء من البنتاجون في الساعة 10.10.

- عدد القتلى على متن الطائرة كان 59 شخصًا، بالإضافة إلى الإرهابيين

الخمسة.

- عدد القتلى في البنتاجون 125، وكان في ذلك اليوم عدد الموظفين أقل من المعتاد.

المعركة من أجل United 93:

أقلعت الطائرة الرابعة من مطار ليبرتي بنيوجيرسي Liberty international air port متجهة إلى سان فرانسيسكو، وكان من المقرر أن تقلع الساعة 8.00 ولكن الإقلاع تأخر بسبب الزحام، فأقلعت الطائرة الساعة 8.42 وكان على متنها من الإرهابيين: سعيد غمدي، أحمد النامي، وأحمد الخزناوي، وزياد جارا، هذا الأخير الذي قام بالاستيلاء على كابينة الطيار وتولى القيادة، وكان هدف الاستيلاء هو ضرب الكبيتول أو البيت الأبيض، ولكن بسبب المقاومة من الركاب فشل الإرهابيون من تنفيذ خطتهم ووقعت الطائرة الساعة 10.02 بسبب عدم السيطرة على قيادة الطائرة بسبب المقاومة من الركاب فسقط بحقل في بنسليفاينا على بُعد 20 دقيقة طيران من واشنطون وقتل كل من كان على متن الطائرة2.

عدد القتلى على الطائرة 40 شخصًا، بالإضافة إلى الإرهابيين الأربعة.

حرب أفغانستان 2001م:

الحرب في أفغانستان التي بدأت في 7 أكتوبر 2011م من الجيش الأمريكي (عملية الحرية المستديمة) والجيش البريطاني (عملية هرك) - شُنت كردّ فعل على هجمات 11 سبتمبر وكان الهدف المعلن للغزو إيجاد أسامة بن لادن وآخرين من أعضاء تنظيم القاعدة ومحاكمتهم؛ لتدمير كل تنظيم القاعدة وإقصاء نظام طالبان الذي يدعم ويعطي الملاذ الآمن للقاعدة.

الولايات المتحدة بمذهب بوش أعلنت أنها كسياسة لن تميز بين المنظمات الإرهابية والدول أو الحكومات التي تؤيدها، وفي سبيل ذلك تمت عمليتان

عسكريتان في أفغانستان للسيطرة على الدولة:

1- **العملية الأولى:** عملية قوة الحرية المستديمة OEF وهي عملية حربية تضم بعض الشركاء المتحالفين، وحاليًّا تعمل في المقام الأول في الشرق وأجزاء جنوبية من الدولة على حدود باكستان قرابة 28.800 من القوات الأمريكية ضمن OEF.

2- **العملية الثانية:** هي القوة الدولية الأمنية المساعدة ISFA التي أُسِّسَت من قِبَل مجلس أمن الأمم المتحدة في نهاية ديسمبر 2001 لتأمين كابول والمناطق المحيطة وتولت الناتو السيطرة على ISFA في 2003م، وبحلول 23 يوليو 2009 كان لـ ISFA قرابة 64.500 من القوات من 42 دولة مع إمداد الناتو -مركز هذه القوة- للولايات المتحدة من تلك القوات قرابة 29.950 في ISFA.

عاش أسامة بن لادن في أفغانستان مع أعضاء آخرين من تنظيم القاعدة وعملوا معسكرات تدريب إرهابية، لها تحالف حر مع طالبان، تولوا تفجيرات السفارة الأمريكية في إفريقيا في عام 1998م، وأطلق الجيش الأمريكي غواصة قائمة على صواريخ كروز على هذه المعسكرات لكن تأثيرها كان محدودًا على التنظيم ككل.

في مرحلة سابقة، أصدر مجلس الأمن القرارات: 1268 و1333 في 1999 و2000، متوجـهًا إلـى طالبان التي تطبق العقوبات الاقتصادية والمعدات العسكرية لحثهم على إحالة بن لادن إلى المحاكمة على التفجيرات المميتة في السفارتين الأمريكيتين في إفريقيا في أغسطس 1998، وإغلاق معسكرات التدريب الإرهابية، وأيضًا معسكرات تدريب الأطفال الإرهابية. ولكن هذه القرارات لم تسمح باستخدام القوة التي كانت مطبقة مع الغزو على أفغانستان.

كان قسم الأنشطة الخاصة التابع لـ CIA بالفرق شبه العسكرية ناشطا في أفغانستان في التسعينيات في عمليات سرية؛ لإيجاد وقتل أو اعتقال أسامة بن لادن. ونظمت هذه الفرق عمليات مختلفة لكنهم لم يتلقوا الأمر بالتنفيذ من

الرئيس بيل كلينتون.

أفادت NBC في مايو 2002 أن التوجيه الرئاسي للأمن القومي قدم قبل يومين من 11 سبتمبر 2001 نفس خطة الحرب التي وضعها موضع التنفيذ البيت الأبيض والـ CIA والبنتاجون بعد هجمات 11 سبتمبر. تعاملت الخطة مع جميع جوانب الحرب ضد القاعدة، امتدادًا من المبادرات الدبلوماسية إلى العمليات العسكرية في أفغانستان وتضمنت الخطوط العريضة لإقناع حكومة طالبان الأفغانية بتحويل قائد القاعدة أسامة بن لادن إلى الولايات المتحدة مع بنود باستخدام القوة العسكرية إذا رفضت.

طبقًا لتقرير 2004 للجنة الحزبين للتحقيق في 11/9 في اليوم التالي القريب قبل يوم من هجمات 11 سبتمبر 2001 وافقت إدارة بوش على خطة للإطاحة بنظام طالبان في أفغانستان بالقوة إذا رفض النظام تسليم أسامة بن لادن. في ذلك الشهر 10 سبتمبر اجتماع قمة مسئولي الأمن القومي لإدارة بوش الذي وافق على أن طالبان ستُمنح إنذارًا أخيرًا لتسليم بن لادن. وفشل ذلك يعني مساعدات عسكرية سرية ستوجه من الولايات المتحدة إلى مجموعات مضادة لطالبان. وإذا فشلت هذه الخيارات «وافق النواب أن الولايات المتحدة ستسعى للإطاحة بنظام طالبان من خلال إجراءات أكثر مباشرة».

والواضح أن الغرض الأساسي من الغزو الأمريكي لأفغانستان هو التواجد الاستراتيجي في التماس مع جنوب الاتحاد السوفييتي مباشرة بالقرب من غرب الصين.

الغزو الأمريكي للعراق أو حرب الخليج الثانية:

(حرب العراق أو احتلال العراق أو حرب تحرير العراق أو عملية حرب العراق) هذه بعض من أسماء كثيرة استعملت لوصف العمليات العسكرية التي وقعت في العراق سنة 2003 التي أدت إلى احتلال العراق عسكريًا من قِبل الولايات المتحدة الأمريكية ومساعدة دول مثل بريطانيا وأستراليا وبعض الدول

المتحالفة مع أمريكا حسب تعريف مجلس الأمن لحالة العراق في قانونها المرقم 1483 في 203.

ومن الأسماء الأخرى التي أطلقت على هذا الصراع: «حرب العراق»، وحرب الخليج الثانية، و«عملية تحرير العراق»، وأطلق المناهضون لهذه الحرب تسمية «حرب بوش» على هذا الصراع أو حرب احتلال العراق. وبدأت عملية غزو العراق في 20 مارس 2003 من قبل قوات الائتلاف بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية وأطلقت عليه تسمية ائتلاف الراغبين، وكان هذا الائتلاف يختلف اختلافًا كبيرًا عن الائتلاف الذي خاض حرب الخليج الثانية؛ لأنه كان ائتلافًا صعب التشكيل واعتمد على وجود جبهات داخلية في العراق متمثلة في الشيعة في جنوب العراق بزعامة رجال الدين، والأكراد في الشمال بزعامة جلال طالباني ومسعود برزاني. وشكلت القوات العسكرية الأمريكية والبريطانية نسبة 98٪ من هذا الائتلاف. ولقد تسببت هذه الحرب في أكبر خسائر بشرية للمدنيين في تاريخ العراق وتاريخ الجيش الأمريكي في عدة عقود. وانتهت الحرب رسميًا في 15 ديسمبر 2011 بإنزال العلم الأمريكي في بغداد، وغادر آخر جندي أمريكي العراق في 18 ديسمبر 2011.

تبريرات الحرب حسب الإدارة الأمريكية:

احتلال العراق:

قدمت الإدارة الأمريكية قبل وفي أثناء وبعد سقوط النظام السابق ببغداد وتحديدًا في 9 أبريل 2003 مجموعة من التبريرات لإقناع الرأى العام الأمريكي والعالمي بشرعية الحرب، ويمكن تلخيص هذه المبررات في التالي:

- استمرار حكومة الرئيس العراقي السابق صدام حسين في عدم تطبيقها لقرارات الأمم المتحدة المتعلقة بالسماح للجان التفتيش عن الأسلحة بمزاولة أعمالها في العراق. ومن الجدير بالذكر أن الولايات المتحدة الأمريكية، وضعت

موعدًا نهائيًا لبَدْء العمليات العسكرية، بينما كانت فرق التفتيش تقوم بأعمالها في العراق.

- استمرار حكومة الرئيس العراقي السابق صدام حسين في تصنيع وامتلاك «أسلحة دمار شامل» وعدم تعاون القيادة العراقية في تطبيق 19 قرارًا للأمم المتحدة بشأن إعطاء بيانات كاملة عن ترسانتها من «أسلحة الدمار الشامل». ومن الجدير بالذكر أنه لم يتم حتى هذا اليوم العثور على أي «أسلحة دمار شامل» في العراق بل إن نتائج مفتشي الأسلحة أكدت عدم امتلاك العراق لأسلحة الدمار الشامل نهائيًا.

- امتلاك حكومة الرئيس السابق صدام حسين لعلاقات مع تنظيم القاعدة ومنظمات «إرهابية» أخرى تشكل خطرًا على أمن واستقرار العالم، وهو ادعاء لم يثبت بأي دليل لاستحالة وجود قواسم فكرية وعقائدية تجمع القاعدة بنظام الحكم العراقي العلماني.

قبل انتخاب جورج بوش كرئيس للولايات المتحدة، قام ديك تشيني ودونالد رامسفيلد وپول ولفوتز بكتابة مذكرة تحت عنوان «إعادة بناء القدرات الدفاعية للولايات المتحدة» في سبتمبر 2000 أي قبل عام من أحداث سبتمبر 2001، وورد في هذه المذكرة ما معناه: أنه بالرغم من الخلافات مع صدام حسين، والذي يستدعي تواجدًا أمريكيًا في منطقة الخليج العربي فإن أهمية وأسباب التواجد الأمريكي في المنطقة تفوق سبب وجود صدام حسين في السلطة. ويمكن قراءة النص الكامل للمذكرة في Rebuilding America›s Defences Forces And Resources For A (New Century Strategies).

بعد أحداث 11 سبتمبر 2001 والنجاح النسبي الذي حققه الغزو الأمريكي لأفغانستان، تصورت الإدارة الأمريكية أن لديها التبريرات العسكرية والدعم الدولي الكافيين لإزالة مصادر الخطر على «أمن واستقرار العالم» في منطقة الشرق الأوسط، وأصبح واضحًا منذ أواخر عام 2001 أن الإدارة الأمريكية مصممة على الإطاحة بحكومة صدام حسين.

تبريرات الحرب حسب مناهضيها:

تعرضت التبريرات التي قدمتها الإدارة الأمريكية إلى انتقادات واسعة النطاق بَدْءًا من الرأي العام الأمريكي إلى الرأي العام العالمي وانتهاء بصفوف بعض المعارضين لحكم صدام حسين، ويمكن تلخيص هذه التبريرات في التالي:

- الهيمنة على سوق النفط العالمية ودعم الدولار الأمريكي، حيث إن صدام حسين كان قد اتخذ قرارًا في عام 2000 باستعمال عملة اليورو كعملة وحيدة لشراء النفط العراقي.
- ضمان عدم حصول أزمة وقود في الولايات المتحدة بسيطرتها بصورة غير مباشرة على ثاني أكبر احتياطي للنفط في العالم.
- المصالح الشخصية لبعض شركات الأعمال وشركات الدفاع الكبرى في الولايات المتحدة.
- دعم واستمرار الشعبية التي حظي بها الحزب الجمهوري الأمريكي إبان أحداث سبتمبر 2001؛ بغية استمرار هيمنة الحزب على صنع القرار السياسي في الولايات المتحدة.
- تطبيق ما ورد في مذكرة تشيني ورامسفيلد وولفوتز التي كُتِبَت عام 2000، وتمهد لدور استراتيجي أكثر فاعلية للولايات المتحدة في الشرق الأوسط.
- إنجاز المهمة التي لم يكملها والد جورج بوش في حرب الخليج الثانية.

أسلحة الدمار الشامل:

كان تبرير امتلاك العراق لأسلحة الدمار الشامل (السلاح النووى) من أبرز وأهم التبريرات التي حاولت الإدارة الأمريكية -وعلى لسان وزير خارجيتها كولن باول- ترويجها في الأمم المتحدة ومجلس الأمن، وقبل وقوع الحرب صرح كبير مفتشي الأسلحة في العراق هانز بليكس أن فريقه لم يعثر على أسلحة نووية وكيمياوية وبيولوجية ولكنه عثر على صواريخ تفوق مداها عن المدى

المقرر في قرار الأمم المتحدة (150كم) المرقم 687 في عام 1999، وكان العراق يطلق على هذه الصواريخ اسم صواريخ الصمود. وقد وافق صدام حسين في محاولة منه لتفادي الصراع على تدميرها من قبل فريق هانز بليكس.

بعد سقوط بغداد قام الرئيس الأمريكي بإرسال فريق تفتيش برئاسة ديفد كي الذي كتب تقريرًا سلمه إلى الرئيس الأمريكي في 3 أكتوبر 2003 نص فيه أنه «لم يتم العثور لحد الآن على أي أثر لأسلحة دمار شامل عراقية». وأضاف ديفيد كي في استجواب له أمام مجلس الشيوخ الأمريكي أن «بتصوري نحن جعلنا الوضع في العراق أخطر مما كان عليه قبل الحرب». في يونيو 2004 وفي سابقة هي نادرة الحدوث أن ينتقد رئيس أمريكي سابق رئيسًا أمريكيًا حاليًا قال بيل كلنتون في مقابلة له نُشرت في مجلة تايم Time Magazine أنه كان من الأفضل التريث في بَدْء الحملة العسكرية لحين إكمال فريق هانز بليكس لمهامه في العراق، ولكن جورج بوش قال في 2 أغسطس 2004: «حتى لو كنت أعرف قبل الحرب ما أعرفه الآن من عدم وجود أسلحة محظورة في العراق فإني كنت سأقوم بدخول العراق».

في 12 يناير 2005، تم حلّ فرقة التفتيش التي تشكلت من قِبل جورج بوش بعد فشلهم في العثور على أسلحة محظورة.

العلاقة بين صدام حسين وأسامة بن لادن:

وصل الأمر ببعض المسئولين في الإدارة الأمريكية من استعمالهم إلى هذا التبرير لحد توجيه التهمة إلى صدام حسين بضلوعه في أحداث 11 سبتمبر. استندت هذه الاتهامات على مزاعم أن 6 من منفذي أحداث 11 سبتمبر ومن ضمنهم محمد عطا قد التقوا عدة مرات مع أفراد في المخابرات العراقية في إحدى الدول الأوروبية، وأن هناك معسكرًا لتنظيم القاعدة في منطقة سلمان باك جنوب العاصمة بغداد ويعتقد أن وكالة المخابرات الأمريكية استندت في

هذه المزاعم على أقوال عراقيين نزحوا إلى الغرب، وكانوا منتمين إلى حزب المؤتمر الوطني العراقي المعارض لصدام بزعامة أحمد الجلبى. في 29 يوليو 2004 صدر تقرير من هيئة شكلت من قبل مجلس الشيوخ لتقصي حقيقة الأمر، نصت فيه أنه بعد جهود حثيثة من الهيئة لم يتم التوصل إلى دليل ملموس على ارتباط صدام حسين بتنظيم القاعدة، وفي سبتمبر 2005 نفى كولن باول وجود أى علاقة بين الطرفين.

بداية العمليات المسلحة:

في 20 مارس 2003 وفي الساعة 2.30 بتوقيت جرينتش، بدأ الغزو الأمريكي البريطاني، واعتمدت قيادة الجيش الأمريكي على توجيه ضربة جوية شاملة ضد الأهداف العراقية الاستراتيجية، واعتمدت الضربة الجوية على أحدث طائرات الهجوم (طائرة الشبح) التي لا تظهر على شاشات الرادار، مع إطلاق صواريخ توما هوك وكروز واستخدام قنابل من عيار كبير جدًّا لم تُستخدم من قبل، وكانت ضحايا الضربة الجوية من المدنيين كبيرة جدًّا مقارنة بالعسكريين، واعتمدت الخطة على تكليف البريطانيين بالسيطرة على الجنوب العراقي وتقدم الأمريكيين إلى بغداد.

كان الغزو سريعًا بالفعل فبعد حوالى ثلاثة أسابيع سقطت الحكومة العراقية، وخوفًا من تكرار ما حدث في حرب الخليج الثانية من إشعال للنيران في حقول النفط قامت القوات البريطانية بإحكام سيطرتها على حقول نفط الرميلة وأم قصر والفاو بمساعدة القوات الاسترالية. وتوغلت الدبابات الأمريكية في الصحراء العراقية متجاوزة المدن الرئيسة في طريقها. وأثناء هذه الأحداث في وسط العراق أصبح الجنوب العراقي تحت سيطرة القوات البريطانية.

بعد ثلاثة أسابيع من بداية الحملة، بدأت القوات الأمريكية تحركها نحو بغداد وفي 5 أبريل 2003 قامت مجموعة من المدرعات الأمريكية وعددها 29 دبابة

و14 مدرعة نوع برادلي (Fighting Vehicles Bradley Armored) بشن هجوم على مطار بغداد الدولي.

في 7 أبريل 2003، قامت قوة مدرعة أخرى بشنٍّ هجوم على القصر الجمهوري واستطاعت تثبيت موطئ قدم لها في القصر، وبعد ساعات من هذا حدث انهيار كامل لمقاومة الجيش العراقي وما زالت تفاصيل معركة المطار وانهيار مقاومة الجيش غير معروفة حتى الآن. ولكن المزاعم التي لها صدى قوي تقول إن قيادات الجيش الأمريكي تمكنت من إبرام صفقات مع بعض قيادات الجيش العراقي الذي اضمحل فجأة، بعد أن كان الجميع يتوقعون معارك عنيفة في شوارع بغداد.

وسادت عمليات النهب والسلب للقصور الرئاسية بالإضافة إلى المتاحف وكافة المؤسسات الحكومية والخاصة، وهرب صدام وعائلته حتى تم القبض عليه وتم إعدامه فجر يوم عيد الأضحى الموافق 30 ديسمبر 2006 في ظل تدمير شامل لمنشآت الدولة وعمليات إرهابية، حتى غادرت القوات الأمريكية في 18 ديسمبر 2011.

القسم الرابع الحالة المصرية (في سلسلة الثورات العربية) ورفضها المشروع الأمريكي

في عام 2010 و2011، كان العالم العربي في حالة اضطراب سياسي، وشهد العام الأخير رحيل القوات الأمريكية عن العراق وهو في حالة فوضى سياسية وديمقراطية مشوهة واقتتال داخلي دموي بين قوى دينية ومذهبية، ونفوذ إيراني متزايد وجماعات جهادية إسلامية من كل صنف ولون (سيارات مفخخة - هجوم مسلح - قنابل زمنية - سقوط ضحايا من الأبرياء) إلى جانب عدد كبير من العملاء ورجال المخابرات في العالم العربي، قامت احتجاجات في بعض الدول العربية وتحولت الاحتجاجات ضد نظم الحكم - والتي اعتبرتها الشعوب عميلة خاصة في مصر وسوريا وتونس واليمن وليبيا- إلى غضب عارم ضد

نظم الحكم، ونشبت ثورات متعددة على التوالى فى: تونس 17 ديسمبر 2010، ثم مصر 25 يناير 2011، ثم اليمن 11 فبراير 2011، ثم ليبيا 17 فبراير 2011، ثم سوريا 15 مارس 2011. وقد اتخذت الثورات العربية أشكالًا مختلفة حسب نوع نظام الحكم السابق، وحسب القوى السياسية التي ترى أنها صاحبة الثورة، وحسب التدخلات الأجنبية الحريصة على مصالحها، فبينما كانت ثورة تونس الأقل دموية والأسرع في تغيير نظام الحكم واستقرار القوى الثورية الجديدة ذات المرجعية الدينية، نجد ثورة 25 يناير في مصر أكثر تعقيدًا في الصراع على السلطة بعد إزاحة نظام حكم مبارك. كما نجد الأكثر دموية في هذه الثورات هي الثورة الليبية والنهاية المأساوية للرئيس القذافي وما زالت تعاني الصراع على السلطة فيما بين القوى السياسية، ومنها القوى الدينية. وفي اليمن كانت الثورة معقدة ولكنها دموية بدرجة أقل وما زالت تعاني الصراع على السلطة، وتدخل القبائل، أما في سوريا فمقاومة نظام الحكم في هذه الثورة مختلف، فهي أقرب لثورة ليبيا في هذا الأمر بالإضافة إلى تدخل قوى خارجية كثيرة، وجماعات دينية وافدة جعلتها أشبه بما يجري في العراق من اقتتال، وما زال القتال بين جيش منقسم على نفسه، ونظام قويٍّ مُصرٍّ على الحكم وضحايا متزايدة حتى اليوم.

وفي مصر قامت ثورة 25 يناير 2011 على نظام حكم مستبدٍّ فاسد، ثورة تطالب بالعيش والحرية والعدالة الاجتماعية ورفض التوريث للحكم، ثم رفض نظام الحكم برمته.

خرجت الملايين للشوارع والميادين في القاهرة (ميدان التحرير) وفي محافظتي الإسكندرية والسويس بصفة خاصة، ثم باقي المحافظات تباعًا وترددت التيارات الدينية في الأيام الأولى في المشاركة، ثم شارك الإخوان المسلمون يوم 28 يناير ونزلوا ميدان التحرير، واستسلم نظام الحكم وتنحى الرئيس بعد عدة مناورات، وكلف القوات المسلحة (المجلس العسكري) بإدارة شئون البلاد برئاسة المشير محمد حسين طنطاوي.

فوجئ المصريون بمن يهاجم أقسام الشرطة ويقتحم السجون وهرب عدد كبير جدًّا من المسجونين كان على رأسهم 36 عضوًا من أعضاء الإخوان المسلمين على رأسهم الدكتور محمد مرسي، وقد تبين فيما بعد للقضاء أن حركة حماس ساهمت في اقتحام السجون وإطلاق زعماء الإخوان بتدبير مسبق وما زال المصريون في انتظار كلمة القضاء بعد تصحيح مسار الثورة في 30 يونيو 2013.

خلال عام 2011، كان ضغط الإخوان على المجلس العسكري واضحًا مقنعًا إياه أنهم القوة الوحيدة المنظمة في الشارع والقادرة على حماية الثورة، وتمكنوا من جعل المجلس العسكري يوافق على تعديلات دستورية استفتى عليها من الشعب بجعل وضع الدستور لاحقًا للانتخابات البرلمانية الدستورية بنسبة 77٪ بعد حشد الأصوات المؤيدة للإخوان وتقديم الشعارات الدينية، علاوة على الإغراءات المادية وبعض التزوير من الكوادر الإخوانية وخلاياها النائمة من القائمين على الانتخاب، والملاحظ أن الكثير من أفراد الشعب وتحت تأثير الدعاية الإخوانية ظن أن الإسراع في تكوين المؤسسات الدستورية قبل وضع الدستور يحقق الاستقرار الذي ينتظره.

حاولت القوى المدنية إبراز أهمية أن يكون الدستور أولًا إعلاميًّا، ولكنها لم تستطع هذه القوى بوجودها الضعيف في الشارع أن تحقق النجاح لفكرتها، أُجريت الانتخابات في شهر نوفمبر 2011 حتى يناير 2012 أسفرت عن حصول الأحزاب الدينية على نسبة 70.5 ٪ يتقدمهم حزب الحرية والعدالة بنسبة 43.7 ٪ ويليه حزب النور بنسبة 22.04 ٪. والجدير بالذكر أن الإخوان المسلمين صرحوا قبل الانتخابات أنهم لن يدخلوا الانتخابات في جميع الدوائر؛ لأنها لا تريد أن تحصل على الأغلبية تحت شعار مشاركة لا مغالبة على عكس ما حدث تمامًا.

وأُجريت الانتخابات الرئاسية، ورغم أن الإخوان والتيارات الدينية أعلنوا عدم خوض الانتخابات الرئاسية لمرشح لهم فإنهم عادوا وتقدموا بمرشحيهم الذين

يمثلون التيارات الدينية وهم: الدكتور محمد مرسي، د. سليم العوا، د. عبدالمنعم أبو الفتوح (انشق عن الإخوان حديثا)، عبد الله مشعل، في مواجهة بعض الرموز السياسية القديمة والحديثة أهمهم: عمرو موسى، حمدين صبَاحي، الفريق أحمد شفيق. وأسفرت الانتخابات عن بعض التجاوزات لصالح الإخوان التي لم يُحَقَّقْ فيها في حينه مثل: منع قرى بعض الأقباط من التصويت بالصعيد، وضبط بعض الأوراق المطبوعة سلفا في مطابع الأميرية، كما أسفرت نتيجة الانتخابات عن فوز الدكتور محمد مرسي بأغلبية 51.73 ٪ بعدد أصوات 13.230.131 منتخبًا ويليه الفريق أحمد شفيق بنسبة 48.27 ٪ بعدد أصوات 12.347.380 منتخبًا (الفرق أقل من مليون ناخب).

ومن الأمر المثير للدهشة إعلان الإخوان النتيجة الساعة 4 فجر يوم 30 يونيو 2013 التي اعترفت بها أمريكا فورًا من قبل إعلان النتائج الرسمية من لجنة الإشراف على الانتخابات المحصنة قراراتها سابقًا.

وبدأ حكم الإخوان في 30 يونيو 2012م

ومن المتعارف عليه عالميًا ألّا يمارس الرئيس المنتخب مهامه ولا يدخل قصر الرئاسة إلا بعد فترة زمنية تقارب الشهرين مثل أمريكا التي تنتهي انتخاباتها في نوفمبر ويدخل الرئيس البيت الأبيض في يناير، وكذلك تركيا، لكن الرئيس مرسي ذهب إلى قصر الرئاسة في نفس يوم فوزه بالانتخابات ليعاين مكتبه الجديد، مما يدل على الفرحة العارمة بالوصول لهذه المرحلة من التمكين.

خلال عام حكم الإخوان حدثت مشاكل عديدة مع مؤسسات الدولة، مع المجلس العسكري، قام الرئيس د. محمد مرسي في 12 أغسطس 2012 بإقالة رئيس المجلس العسكري المشير طنطاوي ورئيس الأركان سامي عنان، وتعيين الفريق السيسي قائدًا للجيش، ومع القضاء قام الرئيس في 8 يونيو 2012 بإلغاء حكم المحكمة الدستورية بحل البرلمان وإعادته ثم التراجع عن هذا القرار.

أيضًا تم محاصرة المحكمة الدستورية من قِبل المنتمين لجماعة الإخوان المسلمين أثناء نظرها دعوى بطلان مجلس الشورى وتم منع القضاة من الدخول للمحكمة، ولم تحرك الحكومة ساكنًا لمنع ذلك.

ومع الإعلام، تمت محاصرة مدينة الإنتاج الإعلامي أيضًا من دون تدخل من الحكومة، ومشاكل أخرى عديدة مع مجلس القضاء الأعلى ونادي القضاة بالإضافة إلى العفو عن عدد كبير من المسجونين معظمهم في جرائم إرهابية سابقة، وفي 22 نوفمبر 2012 أصدر الرئيس محمد مرسي الإعلان الدستوري المكمل الذي من أهم بنوده أن جعل القرارات الرئاسية نهائية غير قابلة للطعن من أي جهة أخرى (مثل المحكمة الدستورية) وإقالة النائب العام المستشار عبد المجيد محمود، وعدم اتباع الأعراف الدستورية في تعيين النائب العام، وإمداد مجلس الشورى واللجنة التأسيسية بالحصانة؛ حتى لا يمكن حلها كما حدث لمجلس الشعب. وترتب على ذلك رفض فئات عديدة في المجتمع للإعلان الدستوري وقامت على أثر ذلك مظاهرات من قِبل رافضي الإعلان وحدثت مواجهات بين مؤيدين ومعارضين حتى اشتعل الأمر في 5 ديسمبر 2012 بواقعة أحداث الاتحادية؛ حيث قامت مظاهرات بمحيط قصر الاتحادية والاعتصام به، الأمر الذي أدى إلى تدخل المنتمين لجماعة الإخوان المسلمين، ودارت الاشتباكات التي استمرت ثلاثة أيام، كل ذلك بالإضافة إلى أزمات الكهرباء والغاز والمرور والبنزين والسولار الذي تبين لاحقًا أنه كان يُهرب داخل أنفاق تمر من سيناء إلى غزة والعكس. تلك المشاكل أدت إلى اضطرابات سياسية عديدة لعدم تلبية احتياجات الشعب، وعنف الحكومة ضد المتظاهرين، وخلال عام كامل من المخالفات وأخونة الدولة والتحكم في مفاصلها؛ وتمكين كوادر الإخوان السياسية والمالية من السيطرة الفاشية على الأوضاع السياسية والاقتصادية، الأمر الذي أدى إلى تناقص الاحتياطي النقدي إلى 12 مليار دولار، وزيادة الديون الخارجية رغم المعونات التي تلقتها الحكومة من بعض الدول العربية خاصة قطر.

في هذا العام حازت الإدارة المصرية بالرضا الأمريكي الكامل خاصة بعد قيام رئيس الجمهورية بالوساطة بين إسرائيل وحماس برعاية أمريكا فيما يشبه معاهدة عدم اعتداء بين الطرفين. والجدير بالذكر أنه لأول مرة تُكتب صيغة خطاب إلى الرئيس الإسرائيلي بمناسبة عودة السفراء في صيغة لم يسبق لها مثيل من الود والحميمية منذ قيام إسرائيل، والخطاب موقع باسم الرئيس.

التهبت المعارضة بسبب سياسة الرئيس الخارجية والداخلية وزادت الاضطرابات.

قامت حركة تمرد، وهي حركة معارضة مصرية، دعت إلى سحب الثقة من الرئيس محمد مرسي وانطلقت في يوم الجمعة 26 أبريل 2013 من ميدان التحرير بالقاهرة لتجمع توقيعات موثقه بالرقم القومي لسحب الثقة، وحددت يوم 30 يونيو 2013 للإعلان على سحب الثقة من حكم الإخوان، وتمكنت من جمع 22 مليون توقيع لسحب الثقة من الرئيس تحت الدعوة لحشد الشعب يوم 30 يونيو 2013.

وقد حاول السيد وزير الدفاع الفريق أول عبد الفتاح السيسي في 23 يونيو 2013 إنقاذ الموقف بمطالبة جميع القوى السياسية بما فيها رئاسة الجمهورية بالاستجابة لمطالب الشعب وأعطى مهلة أسبوعًا لحوار وطني جاد للخروج من الأزمة الحالية، ولم يتم الاستجابة له، وهو ما أدى لخروج الشعب في 30 يونيو 2013 هذا الخروج الذي عبرت فيه الجماهير عن مطالبها بحشد بلغ 33 مليون نسمة معبرة عن الإرادة الحقيقية للأمة في مطلب واحد وهو سحب الثقة من النظام القائم، الأمر الذي جعل القيادة العامة للقوات المسلحة بقيادة الفريق أول عبد الفتاح السيسي تصدر بيانًا في الرابعة عصر يوم 1 يوليو 2013، ذكرت فيه خروج شعب مصر ومن المحتم أن يتلقي الشعب ردًّا على حركته، والاستفتاء على بقاء الرئيس، وأمهلت القوات المسلحة مؤسسة الرئاسة 48 ساعة لتلبية مطالب الشعب.

وفي 3 يوليو 2013، بعد اجتماع قادة القوات المسلحة مع القوى السياسية أعلن وزير الدفاع عبد الفتاح السيسي بيانًا أنهى فيه رئاسة محمد مرسي، وعرض خارطة الطريق للبلاد تتضمن: تسليم السلطة لرئيس المحكمة الدستورية العليا المستشار عدلي منصور لحين إجراء انتخابات رئاسية مبكرة.

30 يونيو ثورة الشعب الثانية:

ما حدث في 30 يونيو 2013 هو أمرٌ جلل، وحدثٌ فريد من نوعه، وسوف يكون له أثر حتى على المستوى العالمي؛ أثر سياسي، وسوف يكتب عنه الكثير مستقبلًا، وما نستطيع أن نقوله اليوم إنه ثورة شعبية حقيقية عبرت عنها الملايين (من 30 إلى 33 مليون) لتعلن سحب الثقة من الحكم الإخواني بعد أن ظل في الحكم عامًا كاملًا وهي بذلك تعتبر تصحيحًا لمسار ثورة 25 يناير 2011 وبعد خيبة أمل الشعب في حكم الإخوان لدرجة شيوع مقولة شعبية سياسية أن المشير حسين طنطاوي سلّم مصر للإخوان المسلمين، وقد أثبت الواقع أن الصحيح هو أن المشير طنطاوي أسلم الإخوان للشعب فأعلن الشعب رفضه لحكم فاشي ديني في مطلب وحيد، وبعد إسقاط رئيس الجمهورية وحكمه دفعة واحدة حمى الجيش إرادة الشعب لا أكثر ولا أقل، وقام بدوره في منع حرب أهلية بين جماعة متسلطة منظمة تابعة لتنظيم عالمي لا يزيد عددها على 300 ألف إخواني مصري ضد الشعب المصري كله خروجًا منهم على الدولة وعن الشرعية الثورية للشعب المصري. والجدير بالذكر أن ما قام به الشعب المصري لفرض إرادته ضد قوى عالمية متمثلة في السياسة الأمريكية ومعها الاتحاد الأوروبي وإسرائيل والتنظيم العالمي للإخوان المسلمين لفرض مشروع الشرق الأوسط الجديد بعد إحداث ما يسمونه بالفوضى الخلاقة، هذا المشروع الذي أجهضه الشعب المصري قرب اكتمال حلقاته الأخيرة الرامية لتفتيت الدول العربية وتدمير جيوشها وإشاعة الفوضى والاقتتال الداخلى، بحيث لا تكون هناك دولة قوية في المنطقة إلا إسرائيل، وحل المشكلة الفلسطينية على حساب الأراضي المصرية باقتطاع جزء كبير من سيناء يعطي

للإمارة الإسلامية (حماس)، وتقسيم الضفة الغربية بين إسرائيل والأردن مع إعطاء القدس الشرقية للعرب ليُعلن منها الخلافة الإسلامية الوهمية على دويلات وإمارات تقودها جماعات متخلفة متناحرة تعيش في عالم افتراضي خارج التاريخ الإنساني المعاصر. ولكن في الوقت المناسب لنا وغير المناسب لهم قال الشعب لا، فذهل الجميع وأصبح مشروع الشرق الأوسط الجديد أثرًا بعد عين وسجل العالم للمصريين ذلك.

ملاحظة أخيرة: إن الحلفاء الطبيعيين لأصحاب مشروع الشرق الأوسط الجديد هم ثلاثة أنواع من المسلمين: النوع الأول: الإسلام السياسي المنظم التابع للتنظيم العالمي الذي لا يعترف بالأوطان ولا بالدولة الحديثة وكل ما يشغله ويضحي في سبيله هو السيطرة على الحكم باسم الدين، والنوع الثاني. وهم المسلمون المتطرفون فيما يسمى بالجماعات الجهادية الذين يتوهمون امتلاكهم للحق والحقيقة، ويعتقدون في ضرورة فرض آرائهم على مواطنيهم بالقوة، وهؤلاء هم وقود الاقتتال الداخلي (أفغانستان - الصومال - سوريا - العراق - اليمن - ليبيا) وهؤلاء يستخدمون في إشاعة الفوضى الدموية، ويتعامل معهم الغرب كأداة لهم ما دام نشاطهم حسب ما يخطط لهم محليًّا أو إقليميًّا، بشرط عدم تجاوز طموحاتهم للمستوى العالمي عندئذ يضربون بقسوة من الغرب.

أما النوع الثالث: فهم الكثرة الغالبة التي كانت متعاطفة مع الإسلام السياسي المنظم من دون انضمام له، وتم استغلال هذا النوع في تمكين الإسلام السياسي من السلطة ثم في اللحظة المناسبة سحب تعاطفه نهائيًّا منه كرئيس ونظام حكم، وعاد إلى صفوف الشعب الوطني المؤمن بالديمقراطية الحقيقية ودولة القانون والدولة المدنية الحديثة.

الخاتمة

في النهاية، ألخص لك أيها القارئ الكريم الفصول الأربعة التي حاولت جهدي إلقاء الضوء أو بعضه فيها على علاقة الشرق الإسلامي بالغرب، خلال أربعة عشر قرنًا من الزمان وذلك في سطور صادقة جاش بها وجداني، ورغم ذلك لا تبتعد كثيرًا عن الموضوعية.

أولًا: الشرق القديم (عصر الحضارات القديمة):

تجمع البشر حول الأنهار وتعلموا من الطبيعة وعشقوها فأقاموا مجتمعات عميقة النظرة.. للحياة والكون وتساءلوا عن رب السموات والأرض ورب الخصب والنماء، واجتهدوا، فعرفوا ما تطمئن به نفوسهم وانطلقوا بَنَّائين للحضارة، ناسجين تراث الإنسان في أوطانه الأولى، فكان دينًا، وعلمًا، وفنًّا، وحكمة.. وازدهرت الأوطان وشيدت مدن، وأهرامات، وحدائق معلقة.. تنطق بالعظمة، والحكمة، والعمارة، ونقوش تحكي تراث مجد عريق.. حتى أترف الملوك والأمراء والكهنة، فكانت فتن وحروب بين الأقارب وغير الأقارب، وظل الشرق منبعًا للمعرفة والتحضر آلافًا من السنين في روابي الرافدين، وعلى ضفاف النيل العظيم.

ثانيًا: الغرب القديم (الإغريق والرومان):

على جبال الأوليمب، بدأ العقل الغربي خطوات المعرفة وأعجب بالفلسفة والمنطق فهام بهما وتميز، ونهل الإغريق من تراث الشرق.. وقد تجاوزوه فاتحين فأضافوا علومًا وفنونًا.. وسادوا العالم القديم.. وتركوا بصماتهم عليه فكرًا إغريقيًّا غربي السمات. ولم يتوقفوا عن الفكر والفلسفة حتى غلبتهم الثرثرة فانشغلوا بها وتنازعوا، وتفرقوا، ودافعتهم أمة صاعدة جعلت من روما عاصمة العالم.

وكما فكر الأولون وتفلسفوا شرع الآخرون وأسسوا نظامًا وحكمًا وقانونًا،

فتفوقوا وحاربوا فانتصروا واقتسموا العالم وكانوا السادة يأتيهم رزق الأرض من أطرافها، فأترفوا وطغوا، وجاءت المسيحية من الشرق بالجديد، فتحيروا واضطربوا، وتنازعوا فانقسموا وانتهبتهم القبائل في القسم الغربي، وعاش القسم الشرقي أمدًا طويلًا يصارع الغرب من أجل البقاء.

ثالثًا: الشرق المضيء (القرن السابع - القرن السابع عشر):

وسط حضيض الجهالة، ارتفع للحق بيرق في وجه البسيطة يبرق من حوله تجمع بشري، تلقوا الهدى وفهموا الحق والأخلاق، وكرهوا الظلم للنفس والناس فحاربوا، وفتحوا بالعقيدة أقفال القلوب، ووثبوا ناهضين في أسرع زحف عرفه التاريخ، وسادوا العالم منصفين، ونقلوا تراث الأقدمين وحفظوه، وعليه أضافوا كنوزًا من العلم والفن والمعرفة. وظل البيرق يخفق بالعلم والنور، وازداد الثراء والنماء، وأترف الملوك وادعى الحق كثيرون، فغاب الحق عن كثيرين.. فتنازعوا.. وتفرقوا.. وأثخنتهم جراح الفرقة في الشرق والغرب وإن «ظلوا صامدين» وفاتحين حتى «سقطت في أيديهم درة الغرب في شرقه على أيدي إخوة كانوا صاعدين»، فجددوا شبابًا كاد أن «يفيض»، فكانوا ملء السمع والبصر فاتحين ومدافعين.

رابعًا: الغرب الوسيط (القرن السابع - القرن السابع عشر):

بوغت الغرب في عقر داره وتخبط في الظلام مشدوهًا حائرًا.. وتقوقع في داخله مئات السنين يجمع القلوب حول ضوء الشمعة الخافت مدافعًا عن حلمه القديم، فتعصب ضد الوافدين وحاربت شعوبه بالجهل والتخلف تحت أعلام الحلم القديم، وبالتعصب قدموا لقلب الشرق المضيء ففشلوا، وانهزموا وعادوا بخفي حنين يتخافتون ويتلمسون الأسباب، وانفتحوا على التراث الإنساني القديم والمنقول والجديد في ذلك الحين وتنازعوا فيما بينهم طويلًا.. حول الطريقة المثلى لبعث الحلم القديم وقدحوا زناد الفكر فأثمر، ولاح في الأفق فجر جديد قرب الحلم،وجدد قواهم المادية والمعنوية، فعادوا يضغطون

الشرق في غربة حيث مالت شمسه فيها للمغيب، وسقطت درة الشرق في الغرب (الأندلس) وكانت بداية، ألهبت خيال المتعصبين الناهضين واستغلوا النجاح فساحوا في البحار وداروا جنوبا وشرقًا (اكتشاف رأس الرجاء الصالح)، واكتشفوا العالم الجديد وازدادو ا ثراء وقوة.

خامسًا: الشرق المدافع (القرن الثامن عشر - القرن العشرون حتى نهاية الحرب العالمية الأولى 1918م):

دافع الشرق عن هيبته وقاوم بالعقيدة مقاومة باسلة مأساوية السمات، شريفة المعنى والهدف، واتسعت رقعة الصراع شرقًا وغربًا وجنوبًا وشمالًا، حتى ثقل حَمْل اللواء وتضعضع الصرح التليد من أطرافه وفي قلبه وتصدعت الأركان تحت معاول الخيانة، والتكالب والحقد القديم، وظل يدفع بالعزة جحافل التفوق في عناد واستشهاد، ولكن الشرق لم يتلمس الأسباب، ولم يفكر، ولم يتفلسف، ولم يفطن لتغير العصر والمنهج وقوى الصراع.. فتخبط القادة.. وكان حماس من دون فكر، فذبل التراث وتجمد العقل، وزحف الظلام واغترب الشرق في عصره.

سادسًا: الغرب المتفوق (القرن الثامن عشر - القرن العشرون):

انجزت شعوبه فكرًا وعملًا وكدحوا طويلًا، وشعروا بالتفوق فحاربوا ليسيطروا بأسلحة جديدة، بالتجارة، والعمارة، والكشوف، والاختراعات الحديثة.. واخترعوا آليات للحياة تحكمها وتصلح نفسها بنفسها عند كل فتور في أي ميدان.. آملين لحضارتهم الخلود، وسادوا بسلطان العلم والمعرفة والبأس الشديد.وكانت الحضارة الحديثة خلاصة حضارات الإنسان متجددة الروافد، غربية الملامح والأصول. وتحسبوا للشرق أن يفيق ففصلوا الرأس عن الجسد والأذرع، وغسلوه في مياه غريبة، وزرعوا في القلب سكينًا تدميه دومًا «إسرائيل»، وانطلقوا بعربة التاريخ فرحين.

سابعًا: الشرق الجريح (القرن العشرون ما بعد الحرب العالمية الأولى):

انهزمت فيه العقول قبل الجيوش، وتمزقوا شيعًا في الجهالة، ووقفوا مشدوهين ولا يزالون.. قبلوا الوصاية طائعين ومكرهين، وعندما جادت عليهم السماء بالثروة من باطن الأرض لم تجد عقلا يرشدها أو فكرًا يوجهها.. فانحدروا وتغيرت فيهم ملامح البشر. حاول القليلون منهم تحريك العقول ونادوا بضرورة الفكر والفلسفة والعلم وحقوق الإنسان، وتجديد التراث الأصيل مؤمنين بأن الشرق مازال في جعبته الكثير لخير البشرية وحضارة الإنسان.. هكذا يقول التاريخ.. ذلك التاريخ الذي نسجته في مجمله أيادٍ شرقية، وفرعونية، وآشورية، وبابلية، ثم أسلمت القلوب والعقول فأصبحت الأنامل إسلامية الهوية، وجاء الإسلام وطنًا لشعوب محبة للسلام والتسامح حتى جاء من زَيَّفَ وكذب، واستغل التسامح، وامتص الرحيق، وأنكر وادَّعَى ما ليس له في كثير.. وكان ما كان. فهل قدره أن يموت بالتسامح؟! هذا الموت البطيء على أكفان التخلف المرفوض والمفروض؟ أم نأخذ العلم تحصيلًا ومنهجًا كما فعلوا، ونأخذ بالمعاصرة لغة وفقهًا كما فعلوا، ونلتقط الراية الملقاة ننفض عنها التراب غير متشنجين ولا متعصبين فمن تعصب هلك، ومن عاش ماضيه في عصره فقد جهل سنن الكون والحياة، أما التراث فشكل وجوهر؛ شكل يتغير ويتبدل مع الزمان والمكان، وجوهر فياض لا يخضع للحدود.

وإلى اليائسين أقول: لا تبحثوا بعيدًا عن مفتاح النهوض فهو قريب، اتركوا فقط مقاعد المتفرجين، واعملوا للحرية والديمقراطية ومنهج علمي نضعه كبشر، نختلف عليه ونعدله كبشر، لا كأنبياء أو آلهة، فالله واحد أنزل كلمته ووعد بحفظها، لم يفوض فيها ثمة بشر. ونعود كما كنّا فقهاء عصريين متخصصين في فقه الاقتصاد، والزراعة، والصناعة، والرياضة.. ولا ينبغي أن ننسى أن الفقه أعلى مراتب الفهم.. ونقول وداعًا للنقل والتقليد.. ومرحى للعقل والتجديد. وحيَّ على الفلاح بالابتداع على طريق المنهج العلمي في كل ما يتعلق بالحياة. نفعل ذلك بقلوب متعلقة بكلمات الله معنى وقصدًا.. فحيَّ على الجهاد والله أكبر معنى تجيش به النفوس قبل الحناجر.. ونلتقط الراية في ثقة

ووعي رويدًا رويدًا؛ لتبقى خفاقة عالية.. ومرة أخرى حيَّ على الجهاد.. والله أكبر.

تم بحمد الله

المراجع

أولًا: المراجع العربيـة:

- المراجع العربية:
- «رحلة إلى مصر» كارستيف نيبور، ترجمة د. مصطفى ماهر.
- «أتاتورك ميلاد أمة» تأليف: لورد Kinross.
- «تاريخ مصر من الفتح العثماني» تأليف: عمر الإسكندي، وسليم حسن.
- «الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها»، تأليف أستاذ دكتور: عبدالعزيز الشناوي.
- «صفحات من تاريخ مصر» إبراهيم باشا (1848 - 1948).
- «تاريخ القرن التاسع عشر» تأليف: محمد قاسم، وحسين حسني.
- «تاريخ أوروبا في العصور الوسطى» تأليف هـ. أ. ل فشر.
- «الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي»، تأليف: محمد سيد الكيلاني.
- «ابن حزم الأندلسي» تأليف: دكتور عبد الحليم عويس.
- «مصر في عصر الأيوبيين» الدكتور السيد الباز.
- «أطلس تاريخ الإسلام» الدكتور حسين مؤنس.
- «الحيل» لبني موسى ابن شاكر: د. أيتلابير.

ثانيًا: المراجع الأجنبية:

- Soclaial History of England Asabriggs.
- Early Modern Europe 1500 - 1789. H. G koenigs Berger.
- The Industriaiization 1780 - 1919 Clire Trebilcock.

السيرة الذاتية



اللواء أ.ح مهندس متقاعد

عبد الحميد علي محمود شرف

تاريخ الميلاد: 1/10/1932م المنصورة – الدقهلية – جمهورية مصر العربية.

أولًا: المؤهلات الدراسية والعلمية:

- بكالوريوس هندسة قسم كهرباء موجات راديو عام 1956م.
- دبلوم دراسات عسكرية من الكلية الحربية المصرية عام 1956م.
- ماجستير هندسة كهربية (نظم السيرفو في الحواسب) من جامعة الإسكندرية عام 1965م.
- دبلوم أكاديمية القادة المهندسين من الاتحاد السوفيتي عام 1966م.
- ماجستير في العلوم العسكرية عام71 من كلية القادة والأركان.
- زمالة أكاديمية فرونز العسكرية بالاتحاد السوفيتي عام 1971/1972م.
- عضو المجلس الأعلى في نقابة المهندسين عام 1978م.
- زمالة أكاديمية ناصر العسكرية كلية الحرب العليا عام 1979/1980م.
- خدم بالقوات المسلحة من عام 1956م وحتى عام 1985م، ومن أهم إنجازاته رفع كفاءة وزيادة فاعلية أعمال قتال قوات الدفاع الجوي مما ساعد في صمود حائط الصواريخ المصري في التصدي لطائرات العدو في حرب

الاستنزاف وحرب أكتوبر 73م، وأثناء خدمته بالقوات المسلحة شغل وظائف بحثية وقيادية على مستوى الدفاع الجوي وإدارة الحرب الإلكترونية وعلى مستوى القوات المسلحة المصرية.

ثانيًا: الترشيحات والجوائز العلمية:

- حصل على وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى عام 1982م.
- حصل علي وسام الجمهورية عام 1985م وذلك لدوره في حرب أكتوبر.
- تم اختياره ضمن مجموعة القادة العسكريين لتسجيل التاريخ الوثائقي لحرب أكتوبر المجيدة، وكذلك عين في لجنة كتابة تاريخ الدفاع الجوي الفترة من 1993 - 1996م.
- بعد تقاعده عمل بالبحث العلمي في مجال الطاقة المتجددة وفي مجال المياه والوقود اعتبارًا من عام 1990م، وحتى الآن وأنجز خلالها أربعة اختراعات تفيد مجالات عديدة كتوفير الوقود وغسيل الكلى ومعالجة ملوحة التربة بالأراضي الزراعية تحولت كلها إلى منتجات صناعية لخدمة المجتمع.
- تم ترشيحه لنيل جائزة الرأي العام الدولية عام 2000م.
- رُشح لنيل جائزة النهر العظيم التابعة لليونسكو عام 2001م.
- رُشح من قبل أكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا المصرية لنيل جائزة أحسن إختراع في إفريقيا عام 2002م، ونيل جائزة سمو الأمير سلطان بن عبد العزيز عام 2004م.
- حصل على عضوية مؤسسة Who is Who الأمريكية عام 2002م.

إصدارات المؤلف



اللواء أ.ح مهندس متقاعد

عبد الحميد علي محمود شرف

1 - 14 قرناً من الصراع بين الشرق والغرب "رؤية جديدة".

2 - الإنسان وفقدان الاتزان بين الروح والمادة.

الهوامش

1 التقرير المقدم عن أحداث 11 سبتمبر للكونجرس

final report of the national commission on terrorist attacks up on the United states p.s 2.

2 نقلًا عما جاء في:

final report of the national commission on terrorist attacks up on the United states.

